خواطر طبيب

في الدين والحياة

د. وليد فتيحي

t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

t.me/twinkling4

إهداء

•إلى أمير البيان مصطفى صادق الرافعي؛ صاحبِ العبارة الأيقونة التي تدورُ في فلكها هذه الصَّفحات: "إنَّ هذا الشرع لا يحْيا إلّا أنْ يختلط بلحمٍ ودم ويمشي على الأرض".

تقديم

هذه الفصول كُتبت مُفرّقة في موضوعاتٍ مُتعدّدة وفي أوقاتٍ مختلفة، وبالرغم من ذلك فإن القارئ لن يجدَ صعوبة في الوصول إلى ما يربط بينها، واكتشاف أهدافها وغاياتها، وأبرز هذه الأهداف والغايات التأكيدُ على أن خلافةَ الله في الأرض تقوم على عمارة الإنسان قبل عمارة البنيان، وأنَّ هذه العمارة لا بدَّ أن تكون محْكومة بالفطرة السليمة والآليات القويمة التي تتفق مع الشرائع التي وضعها الحكيمُ الخبير للناس.

ومعلومٌ أنَّ كلَّ صلاح يبدأ بالإنسان، وكلَّ فساد يبدأ بالإنسان أيضًا، وكلُّ ما تحمله الأرض فوقَها وتكتنزه في بطنها لا يعْدو كونه أدواتٍ قد سخّرها اللهُ للإنسان الذي حمل الأمانة التي أبتِ السماوات والأرضُ أن يحملنَها، فإذا صلحَ الإنسانُ صلحت الأنظمةُ والقوانين والمرافق وكلُّ أشكال العمارة؛ أي صلح أمرُ المجتمع نفسه.

وعندما نتحدَّث عن الإنسان، فإننا نتحدَّث عن ماضٍ وحاضر ومستقبل: فأمّا الماضي فهو حبرٌ على ورق لا قيمةَ له في ميزان الله ولا ميزان البشر؛ إلا أنْ يكون للحاضر منه قلبٌ ينبض. وإنَّ كلَّ تراث حضاري وفكري وروحي لا حياة فيه؛ إلا أنْ يختلط بلحمٍ ودمٍ ويمشي على الأرض في قلوبٍ قد حملته، وعقول قد وعتْه، وجوارح قد حفظته. وأمّا الحاضر في حقيقته، فما هو إلّا فترةُ جني ثمارِ ما زرعْناه بالأمس، أو وضْع بذورِ ما سنحصده في الغد.

وإنَّني في هذه الصفحات أحاول أن أقدِّم رسائلَ إصلاحية ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا؛ أذكّر مِن خلالها نفسي أوَّلًا، ثمَّ أذكِّرك أيها القارئ الكريم بأنَّ الإصلاح يعني تغييرَ كلِّ ما فسد

في النَّفس والمجتمع والبيئة، وقد خلق اللهُ الإنسان وأمدَّه بثلاثِ وسائل يستطيع بها تغييرَ نفسه وتغيير مَن حوله وما حوله؛ وهذه الوسائلُ الثلاث هي؛ القلب واللسان واليد.

وهكذا فإنَّ التغييرَ بالقلب هو أوسعُ هذه الوسائل وأوجبُها على كلِّ مسلم، فالإنسان إذا لم ينكر الفسادَ بقلبه فإنَّ جوارحه لن تنهضَ لتقوم بدورها في إحداث التغيير، وأمّا التغيير باليد فهو أعْلاها وأوسعها وأدقُّها شرطًا، وهو لازمٌ لمَن ملك القرار، ووليَ من الأمور ما يؤهله للتغيير المادي، وأمّا التغييرُ بالكلمة فهو محورُ فصول هذا الكتاب، وهذا النوعُ من التغيير يحظى بمكانة عظيمةٍ في تجنيد طاقاتِ المجتمع وتوْجيهها للخير، كما يكون عونًا لمَن بيدهم القرار ويملكون سلطةَ التغيير؛ فكأنَّ هذا النوع من التغيير جعله اللهُ لكلِّ صاحبِ فكرٍ وقضية، ولكلِّ صاحب مقترحٍ ونصيحة، ولكلِّ صاحب حاجة أو مظلمة.. ولهذا كان هذا الكتاب..

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.(00)

---

(00) سورة هود: 88.

في الفكر والدين

أربعونَ ساعةً في البحر

اسمي حسام عبد السلام جمعة!

أبلغ من العمر 47 عامًا، ولم أكن أدرك أو أؤمن من قبل أنَّ بعض الحوادث العظيمة التي تُكتب لأشخاص في حياتهم لها نصيبٌ من أسمائهم، وأنَّ الله قدّر لهم تلك الأسماء عندما كتبَ الأرزاق والآجال لتبقى أسماؤهم دلالةً على سَبْقِ علم الخالق وعظيم لُطفه وجلال طُرق تربيته لخلقه.

ولم أكنْ أحلم قطّ أن يصل فكري وخيالي، فضلًا عن أن أعيش يومَ جمعة حاسم كهذا الذي سأرويه لكم في قصتي هذه. يومٌ فاصل كالسيف وهو معنى حُسام فصل بين الحياة والموت، بل قُلْ بين حياةٍ وحياة، يوم هو أقرب للخيال منه للواقع، وما كنت لأصدِّق ما سأرويه لو أنّني سمعته من غيري، نظرًا لخلفيتي العلمية وتشكيكي في كلّ ما لا يستند إلى الأدلة العلمية الموثقة، وما أدري لعلَّ الله اختارني من أجل هذا لأحيا مع اسمه السلام، وليريني بأمِّ عيني كيف يضع اسمَه سبحانه على المخاطر فتنقلب أمنًا، وعلى الوحوش فتصير وديعة مستأنسة، ولأعايش من الآيات والعِبَر ما يعجز اللسان عن وصفه، ويعجز القلم عن تجسيده.

يوم جمعة كامل في البحر المفتوح: أربعٌ وعشرون ساعة سبقتها ثمانِ ساعات وتلتها ثمانٍ أخرى، فكانت بمثابة غلاف كتاب "جُمعتي الحاسمة" تلك، وليكون مجموع ما قضيت تائهًا في البحر المفتوح أربعين ساعة.

دعوني أعود بكم إلى الوراء، إلى الأسبوع الذي سبق الحادثة، حين كثرَ حديثي عن الموت على غير عادتي، وكررت سؤالي لأهلي ما حالكم يا ترى إذا متُّ وتركتكم؟ وكثر دعائي لبناتي

الثلاث كأنه دعاء مودع، وقد لاحظ زملائي في العمل قلةَ كلامي وكثرةَ صمتي وتأملي وسكوتي وانصرافي عنهم إلى عالم آخر سَكَنت إليه بعد زيارتي لمريض قبل 4 أسابيع من الحادثة، مريضٌ لم أكن أعرفه من قبل، وإنّما اصطحبني لزيارته صديق عزيز، مريض ملقى على ظهرِه منذ 14 عامًا لا يستطيع الحراك، ومعَ ذلك فإنني لم أرَ في حياتي رجلًا أكثر منه حيوية وإقبالًا على الدنيا ورضًا بحاله تلك على أنّها بابُه إلى مرضاة ربه، وطريقُه لإدراك أعلى مراتب الجنة، يُحدِّث زائريه فتخرج كلّ كلمة من فمه روحًا تعمل في نفوسهم عملَها بأكثر ممّا يظن قائلها أنّها تحدث في آذان سامعيه، وكان عجزه عن الحركة هذه المدة كلها مع تسليمه ورضاه ما يجعل في كلماته تلك الحركة العجيبة في قلوب مَن يراه؛ كلمات بسيطة تخرج من فمه بلا تَكَلُّف أو تَصَنُّع إلَّا أنها صُبغت بروح السماء فكان بينها وبين القلوب نسبًا روحيًّا علويًّا.

خرجتُ من بيت ذلك الرجل إنسانًا آخر، فكلماته عملت في نفسي عملها، وكان حديثي طوالَ شهري ذاك الذي سبق محنتي في البحر عنْ هذا الرجل وعن آية مرضه.

وممّا أذكر من قوله: "كم من الإشاراتِ الحمراء قطعنا مع الله، ولو شاء لأصابنا بمخالفاتنا حوادث وآلامًا ومحنًا ونستحقُّ والله هذا العقاب، ولكنّه غفور رحيم حليم تواب".

كان شهري ذاك هو شهرَ إعادة حساباتي، واسترجاعًا لشريط أحداث حياتي. أمّا صديقي الذي سأبقى مدينًا له لأنه عَرَّفَني على هذا الرجل، فقد اكتشف أنّه مصابٌ بسرطان القولون، وتمَّ استئصال السرطان وجزءٍ من الأمعاء وبقي تحتَ العلاج الكيميائي، فكان بمثابة آية ثانية لي، ورأيت فيهما رسالتين كأني أنا المعنيُّ بهما، فبدأت أنظر للحياة نظرةً أخرى، فمثلًا بعد أن كنتُ أتكاسل عن رؤية وَالِدَيَّ أصبحت أحرصُ على أن أراهما

يوميًّا ولو لبضع دقائق.

وجاء يومُ الخميس الموافق الثامن عشر من شهر مايو لعام 2006م، وقد اعتدت مع صديقين لي أن نَذهب للغوص والصيد مرَّتين في الشهر، وفي هذا اليوم أنهيت عملي متأخرًا وخشيت أن أؤخر صديقيَّ ولكنهما انتظراني، أما الصديقُ الأول "طلعت مدني" فقد اعتدتُ الذهاب معه منذ عام 94م، أمّا صديقي الآخر فاسمه "Manning"؛ فلبيني الجنسية، فقد أسلم قبلَ عام ولقَّب نفسه "يوسف". وخرجنا للبحر كعادتنا، وسجَّلنا في مكتب حرس الحدود بأبحر وقت عودتنا كما توقّعناه آنذاك الساعة السابعة من مساء نفس اليوم، واتّجهنا بالقارب لمنطقة تسمى "الوسطاني" وهي حوالي 20 كيلومتر غرب جدة، ووصلنا الساعة الثانية عشرة والنصف بعدَ منتصف النهار وأنزلنا المرساة الأولى ولكنها لم تثبتْ بسببِ الأمواج إلَّا بعدَ عدَّة محاولات، فوضعنا مرساة أخرى إضافية زيادة في الحِرص، حيث كان لي قبل عدة سنوات تجربة قاسية انْفصل فيها القاربُ عن المرساة، ولكنّني استطعت بفضلِ الله أن أصلَ إليه بعد 5 ساعات من السباحة المتواصلة.

تأكَّدنا من تثبيت المرساتين، ونزل ثلاثتنا للغوص، وكان هذا الخطأ الأول، إذ إننا لم نترك واحدًا منّا على ظهر القارب، فقد غلبتنا رغبتنا في أن نكون معًا تحت البحر، وألهتنا الثقة الزائدة بالنفس عن أخذ الحيطة. نظرًا لخبرتنا الطويلة بالغوص، وكان الموج قويًّا ذاك اليوم وكان الصيدُ وفيرًا، وبعد 40 دقيقة صعدنا إلى ظهر القارب للراحة، وقُلت لصاحبي طلعت وقد أرهقتنا مشقةُ الغوص وجهد الترتيبات التي تسبقه مما يجعل الجهد مضاعفًا: "يظهر أننا نحتاجُ إلى رياضة أخرى، فقد كبرنا في السنِّ على هذه الرياضة المرهقة"، فأجاب طلعت مطمئنًا أنه مازال أمامنا عشرُ سنوات أخرى في هذه الرياضة: "فإنني أعرف مَن

ناهز الستين من العمر ومازال يمارس الغوص".

تأكَّدنا مرة أخرى من ثبات المرساتين، ثمَّ نزلنا للغطسة الثانية الساعة الثالثة والنصف ظهراً وكعادتنا طلبنا من أحدنا أن يغوصَ قريبًا من المرساة، وبعدَ 30 دقيقة وجدت أنَّ المرساة مقطوعة، فذهب "طلعت" للتأكد من المرساة الأخرى فلم يجدْها، ولم أستطع الصعود لأنني أحتاجُ إلى دقيقتين لتحقيق تعادل الضغط، وعند صعودي رأيت في وجه "طلعت" الذعرَ وهو يصرخ؛ فالقارب صار على بعد 300 مترٍ تقريبًا" وقاربنا "Bosten Whealer" طوله حوالي32 قدمًا فتبادر إلى ذهني تجربتي التي حدثت قبل 5 سنوات وكيف أنني استطعت الوصولَ للقارب بعد 5 ساعات من السباحة المتواصلة، وهنا كان خطئي الثاني وخدعتني مرةً أخرى ثقتي الزائدة بالنفس ولو أنني استقبلت من أمري ما استدبرتُ لأدركت في تلك اللحظة أنَّ الأمر اليوم مختلف تمامًا، فقد كان الجوُّ آنذاك أفضل والأمواج أهدأ، بل والذي أسهمَ في لحاقي بالقارب آنذاك أنَّ المرساة المتدلية من القارب اصطدمتْ بصخور فأبطأت حركته، أما هذه المرة فليس ثَمَّة صخور ولا شُعب مرجانية، بل بحرٌ مفتوح وأمواج قوية، وبدون تفكير وحرصًا منّي على أن أكسب كلّ دقيقة ألقيت بسُترة الغوص (الطفوية) وإسطوانة الهواء والبندقية، وانطلقت في اتجاه القارب بأسرع قوة، وفي هذه الأثناء مَرَّ قاربُ صيد بيني وبين القارب فصرختُ بأعلى صوتي، ولكنَّهم لم يرونِ أو يسمعوني فأكملت السباحة، وكان الوقتُ الرابعة عصرًا، ولكني سرعانَ ما أدركتُ أنَّ الموج مختلفٌ هذه المرة، وبعد سباحة ساعة وجدت أن المسافة بيني وبين القارب ثابتة لا تتغير، وبعدَ ساعتين في تمام الساعة "السادسة مساءً" أدركت أن المهمة لن تكون سهلة، فقد تغير مسارُ القارب عدةَ مرّات، وبدأت المسافة بيني وبين القارب

تزداد.

ولم يكن هناك أيُّ شعب مرجانية أو قطع صخرية، فهذه منطقة تخلو من كلّ ذلك، وأقرب منطقة بها شعب مرجانية تسمَّى "أبو طير"، ولكن الموج لن يساعدني للذهاب إليها، كما أنَّ هدفي الأول هو اللحاق بالقارب، وبالرغم من أن الشمسَ بدأت في الغروب، والقارب مازال يبتعد، إلَّا أنَّ تجربتي الناجحة السابقة أمدَّت في حبل ثقتي الزائفة بنفسي فضاعفتُ قواي لأَلحقَ بالقارب، وجنَّ الليل وابتلع الظلام أيَّ أثر للقارب، وهنا توقفت أَنْظر وأسترجع وألوم نفسي.. ثلاثة أرواح تذهب بسبب خطأ تافه كهذا؟! كيف يكون ذلك؟! ما أسخفَ أن يفقد الإنسان حياته بهذه الطريقة.. وأخذت أنظرُ إلى جدة من على بُعد وأنا في قلبِ البحر الأحمر أراها متلألئة مضيئة، وكانت معالمها الواضحة ونافورتها أمامي تبعث في نفسي شيئًا من الطمأنينة.

وهناك في قلب البحر حيث لا يسمعني إلَّا الله، ولا يراني إلَّا هو، بدأت أناجي خالقي وأدعوه أن يخرجني من كربي هذا.. "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"، أدعوه دعاءَ يونس عسى الله أن يخرجني كما أخرج نَبِيَّه مما هو أعظم لا من قلب البحر فحسب، بل من قلب الحوت تذكَّرت آنذاك أنه قد فاتتني صلاة العصر فتوضأت من ماء البحر وصلّيت وقرأت المعوذات، ولأوّل مرة في حياتي أجدُ للوضوء معنى غير المعنى الذي كنت أجده وأنا على اليابسة آمنًا مطمئنًّا.

توضَّأت من ماء البحر ولم يكن وضوءًا مثل الذي عهدت، بل كان بمثابة وقاء ودرع يحوط بي ويحميني من كلّ ما أخشى وأحاذر.

أمّا الأجزاء التي لم يغطِها الوضوء فأخذت أقرأ المعوذات وأنفخ

في يدي وأمسح بها جسدي، وأحرص أن لا أترك جزءًا منه بغير درعٍ ووقاية، وأكثرت من دعائي.. "بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، أعوذُ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق، أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما أجد وأحاذر، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

ولا تسألني كيف لم يباغتني الذعرُ والخوف آنذاك، فأنا نفسي في عجبٍ من ذلك، إلَّا إنها رحمة الله ولطفه وسكينته التي تنزل على عباده، لم يكن هناك خوف! بل اعتقادٌ كامل لا شكَّ فيه أنَّ الله الكريم القوي العزيز سيخرجني من هذه المحنة، وأنَّ هذا المنظر المؤنس الذي أراه لمدينةِ جدة من على بُعد سيقربه الله لي ويأخذ بيدي لأصل إليه.

كان لا بدَّ لي أن أستمرَّ في السباحة، فالموج عال، والوقوف يعني الغرق، وليس لديَّ سترة السباحة لتساعدني على الطفو فوق الماء، ولأول مرةٍ في حياتي أرى النجوم بهذا الوضوح، وأرى القمر بازغًا مؤنسًا كتلك الليلة، ولأول مرةٍ في حياتي أشعر أنني لا أعْدو أن أكون نقطة في بحر، لا أختلف كثيرًا عن أي نقطة أخرى ليس لها وزن.

وبدأتُ أستعيد يومي وأتساءل عن صديقيَّ الاثنين هل تحرّكا في اتجاهي؟! وبدأت أصرخ لعلَّهم قريبان منّي، ولكن لا أحدَ يجيبني. أرى أنوارَ بعض الصيادين من على بعد ثمَّ تختفي، رأيت من على بُعد نافورة جدة، وبرجًا، ومبنى كبيرًا، فقررت السباحة في اتجاه المبنى، ولكن بعد ساعات من الجهد وجدت أنني لم أحقق أيَّ تقدم، فالمسافة بيني وبين المبنى أراها ثابتة لا تتغير، فالمدُّ القوى يعيدني إلى حيث بدأت، واتِّجاه الريح يأخذني نحو الميناء والذي فيه خطرٌ على حياتي نظرًا لوجود السفن العملاقة

التي حتمًا ستسحقني إنْ دخلت تلك المنطقة.

وبدأتُ المناجاةَ لله بأعلى صوتي، والتركيز في الدعاء، دعاء المضطر، وبدأت أراجع نفسي وأسترجع سنوات عمري وأسأل: أَغاضبٌ أنت عليَّ يا ربي؟ "لا تأخذني بعملي وعاملني بفضلك ولطفك وكرمك" "إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي أأعيش أو أموت".

أصرخُ بأعلى صوتي وكأني أملك المكان "هو سبحانه وأنا والبحر"، وأصبحتُ في سباق مع الزمن.. كلّ دقيقة لها وزنُها وقدرها فلا أدري أتكون الدقيقة الأخيرة؟ وهل تكون هذه الدقيقة هي ما بقي لي على الدنيا أستغفرُ بها ربي وأشتري بها رضاه والحياة الخالدة.

يداي تجدفان بكلِّ قواهما خشية الغرق.. وعقلي يسترجع بكلِّ قواه شريط العمر وما قدَّمت يداي.. وقلبي يدعو بكل قواه ليغسل كلّ ما جناه؛ لعلِّي ألقى الله بقلبٍ سليم.

وبالرغم من أنَّ الله لم يخذلني من قبْل، وبالرغم من ثقتي برحمته ولطفه وكرمه أنَّه بدأ يدخل في نفسي إحساس بأن الموتَ قد يكون هو ما كتب الله لي في هذه الليلة.

وبدأتُ أفقد قُوايَ حتَّى أصبح احتمالُ الموت ولقاء الله هو أَحلى الاحتمالات بدأت أستسلم ورأيت المبنى الكبير يصغر ويصغر، وابتلعني الظلام الحالك، فقرَّرت أن أحتفظ بطاقتي، وأحاول الطفوَ فوق سطح الماء ما استطعت.

رأيتُ بضعة صيادين، وحاولت الوصول إليهم بدون جدوى، ورأيت كشافات فأمَّلت أن يكون رجال حرس الحدود في طريقهم إلي، ولكنهم غيَّروا اتجاهم فجأة فأصابني الإحباط.. لا أدري كيف مَرَّت تلك الليلة بتلك السرعة، وبدأ الليل ينقشع

فوجدتُ نفسي قد ابتعدت كثيرًا عن الشاطئ، وبدأت أشعةُ النور تجلي ظلمة الليل فصلَّيت الفجر واستحضرت معنى دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿فَاجعَل أفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهوِي إلَيهِم وَارزُقهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُم يَشكُرُونَ﴾ (09).

وفي هذا الوقت رأيت مِن على بُعد مدخنةَ التحلية والتي كانت هي هدفي للوصول إليها ذلك الصباح.

وفجأة رأيت صيادًا على مرأى منّي فأخذت أسبح إليه بكلِّ قوتي وكلما اقتربت تبيَّن لي أنه يرفع المرساة فصرخت بكلِّ صوتي فتوقف كالذي سمع صوتًا ولكنَّ الموج حال بين عينيه أن تراني واتَّخذ طريقه في الاتجاه الآخر.. ولكن وجوده في هذه المنطقة أشعرني بالأمل بأنَّ هذه منطقة يقصدُها الصيادون، ولا بدَّ لي أن أجد أحدًا آخر، وبالفعل رأيت صيادًا آخرًا وكرَّرت نفس المحاولة السابقة ولكنْ مرة أخرى حال الموجُ بيني وبينه.

قرَّرت أن أستغل يومي وأن أسبح في اتجاه محطة التحلية حيث كان اتجاه الريح، وسبحت لمدة تسع ساعات متواصلة حتَّى انتصفت الشمس، وأشعة الشمس تحرق رأسي كأنها نارٌ منصبة عليه وبدلة الغوص تقطع لحمي.. وأنا بين الدعاء بالرحمة واللطف وملامةِ النفس على الخطأ الفادح الذي أقحمتُ به نفسي في هذا الموقف العصيب المهلك، وألوم نفسي على إلقائي للسترة التي بها أستطيع أن أطفو.

مَرَّت عليَّ عشر ساعات منذ بدأت السباحة تجاه التحلية، وبحمْد الله وكرمه أحرزت تقدمًا جيدًا حتَّى أصبحت مقابل مدخنة التحلية أرى عمائرَ الكورنيش ورأيت فرقاطة خاصَّة بحرس الحدود، بل ورأيت كابينة الفرقاطة من على بعد ولكنْ الموجُ حال بيني وبينهم، بل قُل رَدَمَني الموج ولم يصلْ صراخي إلى

آذانهم.. خلعت زعانفي وحملتها بيدي وأخذت ألوّح بها وأصرخُ بأعلى صوتي ولكنْ بدون فائدة، ورأيت طائرة الدفاع المدني تحلق في الجوّ، ولكنها بعيدة عنّي، ولم أتخيل في تلك اللحظة أنهم جميعًا خرجوا بحثًا عني، أخذت نظارةَ الغوص أعرضها للشمس لعلهم بروا انعكاسَ الشمس على زجاجة النظارة ولكنْ هيهات أن أُميّز بين أمواج البحر المتلاطمة.

وفقدتُ الأمل في كلّ هذه الطرق، وأخذت أسابقُ الزمن لاستغلال ما تبقى من النهار قبل غروب الشمس، وكل حلمي آنذاك أن أصلَ إلى الشاطئ وأخرج منه، أترجَّى أحدَ البائعين أن يسقيني ماءً ويطعمني قطعة من البسكويت، وأبحث عن سيارة أجرة وأطلبُ من السائق أن يأخذني لبيتي وأعدُه بأنني سأعوضه عن الضرر الذي سيلحق بمقعد سيارته من جرّاء بلل الماء.

وبدأ العطش يشتدُّ عليّ، وخيل إليَّ أنَّني قد أجد عبوةَ ماء ملقاة في البحر من إحدى السفن أو القوارب، وبلغ العطش منّي كلّ مبلغ فشربت بعضَ الماء المالح، وتذكرت آنذاك نصيحة الأطباء لي بالإكثار من شرب الماء حتَّى لا تثار حصوة الكلى عندي مرةً أخرى، وتذكرت ألمَ حصوة الكلى الذي باغتني قبل 3 أسابيع واحتجتُ لتخفيف الألم أن آخذ أشدَّ أنواع المسكنات، فدعوت الله أن يلطفَ بي فيصرف عني ألمَ حصوة الكلى لعلمي ويقيني أنَّ الألم الذي أصابني قبلَ بضع أسابيع لو باغتني الآن فإنه يعني الموت المحتمِ.

أخذت أضاعف مجهودي للوصول إلى الشاطئ، وفجأة تحوَّل اتجاه الرياح فاستخرتُ الله "اللهم إني أستخيرك بعلمك واسْتقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن في هذا الأمر وهو توجهي لهذا المبنى الشامخ على طريق

الكورنيش الذي أراه من على بعد خيرًا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسِّره لي، ثمَّ بارك لي فيه"، وفجأة أصبح اتجاهُ الرياح إلى التحلية وأصبحت العمارة بجانبي بعد أن كانتْ أمامي، وبدأت شمس يوم الجمعة بالغروب، وجنَّ الليل وأظلمت الدنيا مرة أخرى من حولي، قربت من التحلية وسمعت أذانَ المغرب، فكان للأذان معنى غير المعنى الذي عرفته طوال حياتي، بل وكأني أسمعُه لأوَّل مرة في حياتي "الله أكبر.. الله أكبر.." أملٌ كبير بربٍّ كبير أكبر من كلّ محنة وكرب، وكان هذا الأذان أولَ صوت بشرٍ أسمعه على مدى أربعٍ وعشرين ساعة، فكان بمثابة بشرى من ربٍّ كريم أنه سينجيني بلطفه من هذا الكرب.

وتوضَّأت وصلَّيت المغرب، وأكملت مسيرتي نحو التحلية المضيئة أمامي، ومرَّة أخرى تغير اتجاه الرياح ودفعني نحوَ البحر فذهبت كلّ جهودي للوصول إلى التحلية أدراجَ الرياح فأصابني الإحباط، وعلمت بعد ذلك أنَّ الله لطف بي أني لم أقترب أكثرَ من التحلية نظرًا لوجود شفّاطات ضخمة لم أكن لأفلت منها لو أنّني اقتربت من الشاطئ ولكان موتًا محققًا.

وهنا باغتني الشيطانُ لأوّل مرة بكلِّ قواه كأنّي أسمعه يحدثني بصوت عالٍ في عرض البحر ويقول لي: "لقد خذلك ربُّك، يريد الله أن يذلّك، ويلعب بك وستموت بعدَ ذلك لا محالة". سمعت صوت الشيطان مستهزءًا ساخرًا، والعجيب في الأمر أنَّ الصوت لم يكن من داخلي، ولكنَّه صوت كأنه آتٍ من الخارج، أنظر حولي فلا أرى إلَّا الأمواج والبحر، ولا أسمع إلَّا تلاطم الأمواج وهذا الصوت الساخر المستهزئ.

بادرتُ مرةً أخرى بالوضوء وقاية وأمنًا وحماية، ودعوتُ الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وقرأت المعوذات

ونفختُ في يدي ومسحت كلّ جزءٍ من جسدي، أنا أصرخ بأعلى صوتي حتَّى يرتفع صوتي عن صوت الشيطان الساخر قائلًا: "يا معين أعنّي، يا مغيث أغثني" وأصلّي على سيد الخلق أجمعين محمد ﷺ بأعلى صوتي لعلَّ الله يحنُّ عليَّ بصلاتي على أحبِّ خلقه إليه "صاحب شفاعة اليوم الأعظم"، وهنا سمعت أذانَ العشاء، ومرةً أخرى كان للأذان في نفسي أعمالٌ هي من أعمال الآخرة، وسكينة وطمأنينة وبشرى وأمل.

ولو أنني سُئلت أيُّ الاثنين أشدُّ عذابًا وتنكيلًا بي أهي الشمس الضارية الحارقة تسلخ جلدي بسياط لهيبها وتحرق جسدي بألسنة نيرانها أم هو البرد القارس المؤلم الذي يفتِّت العظم ويمزِّق الجسد من الألم في منتصف الليل والقشعريرة والرجفة التي تصاحبها كلّ ليلة لما استطعت أن أجيب!

وكلُّ الذي حالَ بيني وبين الموت من البرد في الليلتين هو أحْقر من أن أذكره في قصتي هذه، ولكني استحضرت فيه معنى العبودية والضعفَ الكامل لله. هل يمكن أن يُصَدَّق أنَّ الذي حال بيني وبين الموت من البرد هي قطراتُ البول السّاخنة التي حَرصت على أن أحتبسَها في النهار وأبقيها ليلًا عندما تشتدُّ عليّ القشعريرة وأخشى أن تنخفض درجة حرارتي "Hypothermia" فتكون هذه القطرات في داخل بدلةِ الغوص قطرات الحياة الدافئة.

ما أضعفَك يا ابنَ آدم، وما أجرأك على خالقك، وأنتَ مَن أنت وهو سبحانه مَن هو.. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (08).

أخذ منّي الإرهاق كلّ مأخذ، ووصلت إلى نقطة الاستسلام. اشتدَّت عليَّ القشعريرة فدعوت الله أن يخلصني من هذا الكابوس

وناجيت ربي أسأله: يا ربّ، لم يعدْ لي من قوة فقد يكون من الأفضل أن تأخذني إليك برحمتك. تذكرت والديّ وزوجتي وبناتي الثلاث ودعوتُ لهم، فإني أعلم أنهم ليسوا ممَّن يقدر على تحمل مثل هذا الامتحان.

وأحسستُ براحة عميقة فكنت أخشى أن أنجو ثمَّ أُعلم بأنَّ صديقيّ لم ينجوَا فألوم نفسي. كيف أنجو ويهلكان؟ واستحضرت معنى أنَّ الغريق في الجنة فأصبحتُ أرى نعيم الجنة في الموت، وأعيش جحيمَ الماء في الحياة الذي أصبح أشبه ما يكون بماءِ نارٍ مسكوب علي، وأصرخ بأعلى صوتي من الألم وقدْ كثرت جروحي وآلامي.

نظرتُ نظرة أخيرة فوجدت نفسي أبتعدُ أكثر فأكثر من اليابسة، وعلمت أنَّ البحر يبتلعني. استجمعت شتات فكري وأمري، واستحضرت معنى الشهادة، وتشهّدت وأسلمتُ نفسي لله، وأغمضت عيني، واجتهدت في استقبال القبلة وودَّعت كلّ ما في الدنيا من ذكريات وآلامٍ وأفراح وأتراح، واستقبلت ربي أدعوه أن يكتب لي الجنة، وأن يكون ماء البحر قد غسلَ ذنوبي كلها، وحمدتُ الله على هذه الميتة، وأنني لم أمتْ موتَ الفجاءة حيث لا وقت للمراجعة والاستغفار.

تخيَّلت نفسي أشرب ماءَ البحر وأنَّ الكرة الأرضية تنشقُّ من تحتي وأنا أنزل فيها، وبدأت في النزول، وفجأة ناداني صوتٌ صارخ.. "إنما هي شعرة بين حفظ النفس والانتحار، وفيها مصيرك الى جنة أو إلى نار".. "إنَّك تنتحر".

فدفعت نفسي ثانية بكلِّ ما تبقى لي من قوة، وبدأت أسبح مرةً أخرى ولكنّ قواي ما لبثت أن خانتني ثانية والقشعريرة استنزفت ما بقي لديَّ من قوة، وأجدُ صعوبة في التنفس فعلمت

أنَّها علامة ما قبل الموت. وبدأت أغوص.. وفجأة، موجةٌ قوية ترفعني إلى السطح فأخذت نفسًا عميقًا بما تبقى لي من قوة، فاستشعرت يدَ الله تحملني وترفعني، ونسمةُ هواء عجيبة كأنّها مُلئت بروح السَّماء وأنظرُ حولي فأرى أربعة أو خمسة دلافين "Dolphins" تطوف بي في هذا الليل المظلم تصدر تلك الأصوات الجميلة، والتي طالما ظننتها صورةً من صور تسبيحهم لخالقهم، فأدركت أنها علاماتُ الحياة يرسلها اللهُ لي ليعلمني أنه سبحانه منجّيني ولو بعد حين.

موجٌ يرفعني ويحول بيني وبين البحر أنْ يبتلعني، ونسمة هواء معبّأة بروح السماء تملأ رئتيّ وجسدي بالحياة، ومجموعة دلافين تطوف بي وتسبّح بحمد ربها بلغةٍ لا نفقهها. أنزل اللهُ عليّ السكينة وبدأت أفكرُ مرة أخرى بالنجاة. رأيت السفنَ من على بُعد طوابير تنتظر دخول الميناء وهي كقطعٍ من المدن، قررت السباحة تجاهها بالرغم من علمي بخطورة ذلك، ولكن ليس لي من خيار، وبعضُ هذه السفن راسية، ومحركاتها مغلقة، فلعلي أصل إلى إحداها ولا أُسحق بمحركاتها العملاقة.

توجَّهت إلى أصغرها، واستطعت الاقترابَ، وأخذت أصرخ بأعلى صوتي باللغتين لعلَّ أحدًا يسمعني، ومازلت في الثلث الأخير من الليل لكن دون فائدة. ألهمني اللهُ أن أضع أحدَ زعنفيّ تحت رأسي لأريح قدمي ولأستند على الزعنف لثوانٍ قليلة فوجدت أنَّ الموج يرفعني عندما أضع الزعنفَ تحت وجهي وأتَّخذه كوسادة وأغفو لثوانٍ قليلة قبل أن يلطمني الموج ويوقظني.

وألهمني اللهُ في تلك الآونة أن أدعوه بقوله تعالى.. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (07) ولم أعلم آنذاك أن كلمة "المضطر" لم تذكر في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في

هذه الآية الثانية والستين من سورة النمل. وإنَّ لها قصة عجيبة رويت لي بعدَ أن أكرمني الله بالنجاة من الموت.

وهي ما ذكر الحافظُ ابن عساكر في ترجمة رجلٍ حكى، فقال: "كنت في سفرٍ فركب معي ذات مرّةٍ رجل، فمررنا في بعضِ الطريق على طريقٍ غير مسلوكة، فقال لي: خذْ في هذه، فإنها أقرب، فقلت: لا خبرةَ لي فيها، فقال: بل هي أقربُ. فسلكناها، فانتهينا إلى مكان وعرٍ ووادٍ عميق، وفيه قتلى كُثر، فسلَّ سكينًا معه وقصدني، ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله، وقلت: خذِ البغل بما عليه. فقال هو لي: وإنّما أريد قتلك. فخوّفته الله والعقوبة، فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه، وقلت: إنْ رأيت أن تتركني حتَّى أصلّي ركعتين. فقال: عجِّل. فقمت أصلي، فارتجَّ علي القرآن، فلم يحضرني منه حرفٌ واحد، فبقيت واقفًا متحيرًا، وهو يقول: هيه.. أفرغ. فأجرى الله على لساني قوله تعالى: "﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبلَ من فم الوادي، وبيدِه حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأتْ فؤاده، فخرَّ صريعًا، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله مَن أنت؟ فقال: أنا رسولُ الله الذي يجيب المضطرَّ إذا دعاه ويكشف السوء. قال: فأخذت البغلَ والحمل، ورجعت سالمًا".

وبينما أنا أصارع الموتَ في الثلث الأخير من الليل بما تبقى لي من قوة، وأُصَبِّر نفسي وأقرأ هذه الآية إذا بخبطة قويةٍ تأتيني من الخلف، فوضعت نظارة الغوص فرأيت سمكةَ قرش من نوع "White Tip" ولي في أنواع القروش علمٌ ودراية.

وكأنه يقول لي: "ماذا تفعل هنا؟"، أو أنه يدرسني، وهذه من عادات القرش فبصرُه ضعيف، ويعتمد على جسده في تحديد ماهية فريسته، ووزنها ونوعها، وتحليلًا للجسم بل طعمه وجنسه. وفجأة تبدد التعب والعطش وعادت لي قوتي وأحسست بهرمون

الأدرينالين "Adrenaline Rush" كأنما ينسكب في دمي سكبًا ليعيد لي الحياة والقوة للحفاظ عليها، وعلمتُ بعد ذلك دورَ هرمون الأدرينالين الذي يفرز من غدتي الكظر "وهما الغدتان الموجودتان فوق الكليتين" تحت أيِّ ضغط أو توتر، وهذا الهرمون يساعد على بدء مجموعة من التفاعلات الحيوية التي خلقت من أجل مساعدة الجسم على التعامل مع الأزمة والتكيف معها. ففي البداية من هذه التفاعلات يفرز الكبدُ السكر في الدم للإمداد ببعض الطاقة حتَّى يستعدَّ الجسم للهجوم أو الهرب، وعندئذ يكون التنفس أسرعَ حتَّى يمدَّ الجسم بالمزيد من الأكسجين ثمَّ يزداد معدلُ ضربات القلب حتَّى تضخَّ الدم بصورة أكبر لكي تحمل السكر الزائد والأكسجين إلى المخ والعضلات، كما يؤدي إفرازُ الأدرينالين إلى تأثيراتٍ عديدة على الجسم، أهمُّها أنه يزيد من قوة انقباض العضلة القلبية ويزيد من سرعة نظم القلب، ممّا يؤدي إلى زيادةٍ ملحوظة في النتاج القلبي، كذلك يؤدي إفراز الأدرينالين إلى انقباض الأوعية الدموية المحيطة، وتحويل سريان الدم من الجلد والأحشاء إلى العضلات الهيكلية والدماغ. فكانت تلك الضربة القوية هي أكثرَ ما أحتاج إليه لمواصلة المقاومة وعدم الاستسلام، ولكني ضحكت في نفسي وناجيتُ ربي.. "يا ربّ، أهذا الذي ينقصني؟ "أدعوك ربي أنْ تنجيني فترسل لي قرشًا؟" أستجديك ربي بألوهيتك وربوبيتك إنْ أردت أن تأخذني إليك فخذْني قطعة واحدة لا في فم هذا القرش ممزقًا أشلاءً، لم أرَ في حياتي قرشًا بهذا القرب، وبدأ يحوم حولي فأخذتُ أحوم حول نفسي لأتأكد من نوعه فتيقَّنت أنه "White Tip" وهذا النوع من القروش قوي وذكي، بل وعنده قدرةُ الصعود فوق الشُّعب المرجانية في حالة تعقبه لفريسته، وقد رأيت مثله من قبْل في رحلة صيد، وإن لم يكن بذلك الحجم، وكنت أحمل سمكًا قد صدته فهاجم صيدي فألقيتُ له بالصيد كاملًا بما فيها بندقية

الصيد لأفدي به نفسي. دعوتُ ربي أن يسخرَ لي هذا الوحش، وأكثرت من الدعاء.. "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق" "بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع البصير"، واستمرَّ القرش يحوم حولي وحجمه أكبر منّي بكثير، وقدَّرت طوله حولي 3 أمتار، وازدادَ دعائي ومذلّتي إلى الله الذي يقول للشيء كن فيكون، والعجيب في الأمر أنَّ الله ألهمني أنْ أدعوه بأن يسخِّر لي هذا الوحش الفتّاك ولم يلهمني أن أدعوه بصرفه عنّي. مرت ثلاث ساعات ومازال القرش يحوم حولي، فتيقّنت آنذاك أنه لم يؤمَر بأن يفتك بي وإلّا لفعل ذلك منذ ساعات فاطمأننت، بدأ فجرُ يوم السبت ينشق، توضَّأت لصلاة الفجر وأحسست مرةً أخرى بقوة الوقاية والحماية والتحصين والدرع الذي يحيط بي بوضوئي هذا، وصلّيت الفجر وأنا أحاذر من هذا القرش، وأدعو الله أن يسخِّره لخدمتي ويقيني شرَّ هذا البحر وينجيني منه.

وبعدَ الصلاة، فوجئت بالقرش يقترب منّي أكثر، ويحوم حولي وكأنه يريد الهجوم، عندئذٍ أدركت أنه إنْ هجم علي فأنا هالكٌ لا محالة، وعسى لو رأى منّي محاولة للرد أن يعدل عن رأيه، فجمعت كلّ ما تبقى لي من قوة، وقررت أن ألقي بجسدي كله عليه إنِ اقترب منّي لعلّه يظن أنَّ بي قوة ففعلت وارتطمت به فغاصَ إلى الأعماق ثمَّ عاد مرة أخرى إلى السطح كأنه يقول لي "يا عبدَ الله، لم أرد إيذاءك أو قتلك أو أكلك، فلم يأذن لي أن أفعل، ولو أذن لي لما رأيتني إلّا وقد سلبت قطعة من جسدك وأنتَ لا تشعر". وعاد يحوم حولي ببطء كأنه يعلمني أنه موكّل بمرافقتي في رحلتي هذه . فأصبح بعدَ ذلك بالنسبة لي بمثابة سمكةٍ عادية تحوم حولي تؤنس وحشتي، وعندما أضاءت الدنيا أصبح بمقدوري أن أتيقنَ بما لا شك فيه أنَّ القرش هو من الفصيلة التي ذكرت آنفًا،

وأنه لا يريد الفتكَ بي بإذن خالقه، فأصبح القرش أنيسي بعد أنْ كان همّي ومصدر قلقي وخوفي.

أخذت أقتربُ من السفن ونسيت الآلامَ والعطش وقد غمرتني فرحةُ النجاة من القرش والاقتراب من السفن. وفي هذه الآونة سمعت صوتَ محرك حوامة حرس الحدود فتوقعت أنهم لن يروني كما حدث قبل ذلك طوال الأربعين ساعة الماضية ولكنّهم كانوا يقصدونني واقتربوا منّي فخلعت زعانفي ورفعتها كما فعلتُ في محاولاتي السابقة لجلب الانتباه إلي، وصاح أحدُهم: أأنت الدكتور حسام جمعة؟ فأجبت: "نعم". فقال: "أبشرْ، لقد نجوت".

حاولوا رفعي أولًا من يدي فسقطت من آلامي ثمَّ ألقوا إليّ سلمًا، وصعدت الحوامة، ولم أستطع الوقوف ولكني سجدت لله طويلًا، فقال أحدهم: اتركوه يسجد لله. وباغتني النوم وأنا ساجدٌ لله.

وقيل لي بعد ذلك أنني لو تابعتُ سباحتي في اتجاه السفن الضخمة لفتكتْ بي القروش هناك، حيث إنها منطقة تُلقَى فيها المواشي المريضةُ تسمَّى "بحر المواشي" قبل أن تصلَ إلى الميناء وتكثرَ فيها القروش، ولمَا بقيَ منّي قطعة واحدة ليتعرفوا بها عليَّ.

وذهبوا بي إلى مركز الحوامات، وقُدمت لي سكبة من الماء لم أذقْ في حياتي أطعمَ من مذاقها كأنها سكبت من ماء الجنة.

وكان اسمُ الحوامة "زفاف"، وبالفعل كان يوم زفافي مرةً أخرى للدنيا، وكانت فرحة منقذيّ بي غير معقولة كأنما زفت لهم حياتهم كذلك من جديد، وعلمتُ بعد ذلك أنَّ المسافة التي قطعتها في 40 ساعة حوالي 50 كيلومترًا، أي تقريبًا المسافة من جدة إلى نقطة تفتيش الشميسي القريبة من مكة المكرمة.

أمّا بالنسبة لصديقيّ "طلعت مدني"، و "يوسف" فقد علمت أنّه

تمَّ العثور عليهما من قِبل متطوعي "فريق/ محمد دباغ" يوم الجمعة في السابعة والربع صباحًا فحمدتُ الله على نجاتهما.

وعلمتُ أنَّ كلّ بيوت جدة كانت تدعو لنجاتي ممَّن أعرف ولا أعرف، فضلًا عن مساجد وأئمة دعوا لي في تلك الجمعة الحاسمة من حياتي.

وذهبوا بي إلى المستشفى وتعجبَ الأطباء من معدلات الأملاح في الدم وغيرها من التحاليل التي يتعذر الحياة بمثل هذه المعدلات والأرقام. أمّا حصوة الكلى التي كانت عندي قبلَ أسابيع فبقدرة القادر سبحانه وتعالى اختفت تمامًا ولم تترك أثرًا في الأشعة، وأغلب الظنِّ أنَّ الله تكفل بها وشفاني وخلَّصني منها وأنا في البحر.

ولم أنمْ لمدة يومين بعدَ نجاتي...

وتسألني اليوم: ما الذي حدث لك؟ أقول لك: إنَّ الله أراد بي لطفًا وخيرًا عظيمًا يوم كتب الأرزاق والآجال، واختار لي اسمي بسبْق علمه.

"فجُمعتي الحاسمة" تلك ستبقى لي ما حييتُ فاصلًا كالسيف الحاسم بين حياتي قبلها وحياتي بعدها. فما أنا اليوم ذلك الذي كنتُه بالأمس قبلَ جمعتي الحاسمة تلك، وقد نذرت إلى ربي نذورًا كبيرة. أبسطها ألا أتكاسل عن صلاة الفجر في المسجد، وأن أسخِّر حياتي للدعوة إلى الله، وأن أسعى لتسخير وتجنيد قصتي هذه التي هي من آيات الله لإحياء النفوس وتذكير الناس، والعودة بهم إلى الله، وأنْ أمتثل قولَ الله تعالى... ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (06).

وإنني اليوم لأنظرُ بعينٍ غيرِ تلك التي كنت أنظر بها، وأسمع بأُذن غير تلك التي كنت أسمع بها، وكلُّ الأعمال والشعائر صبغتْ

عندي بصبغة السماء، فلا الأذان هو الأذان الذي كنت أعرفه، ولا الوضوء هو الوضوء، ولا الصلاة هي الصلاة، ولا طعم الماء هو طعم الماء، ولا تعظيم النعمة هو تعظيمها، ولا الشعور بالأمان هو الشعور بالأمان، ولا تقدير الصحة والعافية هو هو... ولا الدعاء هو الدعاء.

كنت أنظرُ للدّعاء "كمسدس ماء" واليوم أعلمُ أنه أشدُّ وأمضى من أقوى قنبلة ذرية على وجه الأرض، بل وفي تشبيهي هذا إنقاصٌ للمعنى وسوءُ أدب مع خالق السماء والأرض، ولكني أجتهدُ في تقريب المعنى ما استطعت.

وأدركتُ ما في هذه الأمة من خيرٍ عظيم، أصدقاء أعرفهم وغيرهم لا أعرفهم ذهبوا للبحث عنّي بالقوارب طوال الليل والنهار، وأناسٌ لا أعرفهم ولا يعرفونني هجروا مضاجعهم وقاموا الليل يدعون الله أن يحميني وأنا هناك في وسط البحر. فأبى اللهُ إلّا أن يكون أرحمَ من قلوب الرحماء من أمّته، وأن يكتب لهم الأجرَ ولي النجاة.

تذكّرت قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ٨٧ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ٨٨﴾ (05).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقلْ سبحانه "وكذلك ننجي المرسلين" أو "الأنبياء". ليؤكد سبحانه أنه سيكونُ من أمة محمد إلى قيام الساعة مَن سينجّيه اللهُ بصور عجيبة وغريبة فيها كراماتٌ كتلك التي أنجى بها نبيه يونسَ من بطن الحوت في جوف البحر.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (04)

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (03)

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (02)

أمّا القرش فلا تسألوني عنه ولا عنِ الضربة التي أُمرَ أن يوجهها إليَّ في تلك المنطقة بالذات "منطقة الكليتين" فالأطباء يعلمون ما فوقَ الكلية "الغدة الفوق الكلوية" المسئولة عن إفراز هرمونات الكاتاكولامينز "Catecholamine" وما دورها في مثل هذه المواقف.

كلُّ الذي أعرفه هو أنَّ تلك الضربة التي أمر اللهُ هذا القرش بها كانت بمثابة القوة التي أعانتني على أن أواصل مسيرتي نحوَ تحقيق واجبِ الحفاظ على النفس والنجاة من الموت، ولم يُؤمر القرش بغير هذه الضربة مستجيبًا لله الخالق الذي له الأمرُ من قبل ومن بعد.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ (01)

---

(09) سورة إبراهيم، من الآية 37.

(08) سورة الانفطار: 6.

(07) سورة النمل: 62.

(06) سورة الأنعام: 162.

(05) سورة الأنبياء 87-88.

(04) سورة إبراهيم، من الآية 25.

(03) سورة النور، من الآية 35.

(02) سورة العنكبوت، من الآية 43.

(01) سورة يوسف: 105-106.

مَن الذي قتل مسرَّة وميسرة؟!

لا أدري كيف أبدأ روايةَ هذه القصة المؤلمة، المليئة بالمواقف والعِبَر، إنّها قصة واقعية موثقة الأحداث بأدق تفاصيلها ليس فيها إضافةٌ من نسج الخيال ممّا يجد بعضُ الكتّاب الحاجةَ إليه لإضفاء شيء من الحياة على أحداث رواياتهم، أو لإستثارة مشاعر قرائهم.

كنتُ في عيادتي عندما تلقّيت مكالمةً من رئيس الأطباء يخبرني أنَّ مسرَّة البالغة من العمر سبعة أعوام تلفظ أنفاسها الأخيرة، وأنَّ تواجدي مع أهلها هامٌّ جدًّا أثناء هذه اللحظات العصيبة، فاعتذرتُ من باقي مرضاي في العيادة وأسرعتُ لغرفة العناية المركزة لأرى المشهدَ الذي مازال عالقًا في ذهني كلما أعدتُ شريط أحداث ذلك اليوم إجلالًا لما رأيت. توقفت من بُعد أنظرُ لأرى، وأعتبر بذلك الوالد الذي فقدَ ابنه الأول ميسرة البالغ من العمر ثلاث سنوات منذُ سويعات قليلة، وها هو الآن يودّع ابنته مسرَّة.

وقد رأيت ذلك اليوم المعاني العظيمةَ المجردة مثل تعلق القلب بالله، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه؛ تتجلّى في بشرٍ حيٍّ فتحيا به، ورأيتُ كيف يصبح المؤمنُ بهذه المعاني قرآنًا يدبُّ على الأرض.

إنَّ أعظم كتبِ الوعظ، وأبلغَ وعّاظ الأرض ليعجزون أن يوصلوا هذه المعاني التي كانت تُخطّ لوالد ميسرة ومسرة في الصحف العلوية في ذلك المكان وذلك الزمان، واللهُ يسمع ويرى، ويباهي ملائكتَه بعبده وهي تنظر إليه.. إذا ماتَ ولَدُ العبدِ قالَ اللَّهُ لملائِكتِه: "قبضتم ولدَ عبدي؟ فيقولونَ: نعم. فيقولُ: قبضتُم ثمرةَ فؤادِهِ؟ فيقولونَ: نعم. فيقولُ: ماذا قالَ عبدي؟

فيقولونَ: حمِدَكَ واسترجعَ. فيقولُ اللهُ: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوهُ بيتَ الحمْدِ"(15).

رأيتُ كيف يجسّدُ إنسانٌ واحد في موقف ما ذلك المعنى الذي يصحّح اللهُ به ألفَ معنى، وكيف يكون المؤمن الواحد عندئذٍ هو فنَّ الحياة كلها، بل أستاذها ومعلّمها بِصَمْتِه قبل نُطقه وبسُكونه قبل حركته، لحنٌ سماوي يخرج من المؤمن بدون قصد أو تصنُّع أو تمثيل. في وقتٍ تنصهر فيه معادنُ الرجال ليخرج منها جوهرها ولبّها وأصلها، ويتطاير كلّ ما دونَ ذلك ممّا يخالطها من ترابِ الأرض وقبضة الطين وزور الدنيا.

وقفتُ بعيدًا أنظر إلى ذلك الأب الذي فقد ابنه ميسرة قبلَ ساعات، وهو الآن يودّع ابنته مسرَّة، بل قل وقفت أنظرُ إلى تلك المدرسة، وقد تخيَّلته في تلك اللحظة وهو يمسك بستارِ غرفة العناية المركزة كأنما يمسك بأستار الكعبة. تارةً ينظر إلى ابنته كأنه يناديها، وتارة ينظرُ للسماء كأنّما يناجي ربه، وتارةً أخرى ينظر إلى الأرض كمن يذكّر نفسه أنّنا منها خُلقنا وإليها نعود.

عجيبٌ أمرِ الإنسان.. بكلِّ ضعفه يصبح مدرسةَ الكون عندما تعمل النفحةُ الربانية فيه عملها، وتقود في مثل هذا الموقف زمامَ أمره.

وضعتُ نفسي مكانه، وسألتها: يا نفسُ، ما كنتِ فاعلة في موقفٍ مثل هذا؟ أكنتِ تجزعين أم كنتِ تصبرين؟ لا كتب اللهُ علينا مثلَ هذا الابتلاء.. اللهمَّ إنَّ عافيتك أوسع لنا.

ثمَّ قلت في نفسي: "إنَّ لهذا الرجل مع الله لحالًا"، فمثلُ هذه المواقف تشهد بالإيمان بما يعجز كلّ أهل الأرض أنْ يشهدوا به لأحدٍ منهم ولو اجتمعوا.

انتقلَ ميسرة وأخته مسرَّة إلى ربهما، وبقي والدُهما المعنى الذي

أحيا اللهُ به الكثيرَ في قلوب كلّ مَن رأوه ذلك اليوم والأيام التي تليه من الفضائل والمعاني ما يعجز القلمُ أن يعبر عنه.

وذهبَ والد ميسرة ومسرَّة في إيمان ليُبلِّـغ زوجته بفقدان نصفِ أبنائهما في هذه السويعات القليلة ليكون أول ما تتفوَّه به الأمُّ بدون جزع ولا عويل ولا صراخ، وبإيمان بقضاء الله وقدره وحكمته ورحمته: "لا يأتي من الله إلّا الخير".

قذفَ اللهُ في قلبي ذلك اليوم أنَّ دوري أكبر وأبعد من مجرَّد طبيب أو رئيس تنفيذي لمستشفى، وأنَّ هناك واجبًا قد أوجبه اللهُ علي، وأنَّني مكلف بأن أشركَ المجتمع بأسْره بعرضي هذه القصة عليهم، وبسردي تفاصيلها الدقيقة لهم، وقرَّرت أن أغوص في أعماق القضية، وأعيشَ مع والد ميسرة ومسرة قصته كلها منذ اللحظة التي حملهما فيها بين يديه وقد دخلَا الدنيا، إلى اللحظة التي حملهما فيها بين يديه وأدخلهما القبرَ وتركهما هناك، ووافق الأب وجلس يسردُ القصة بتفاصيلها، وعشتُ معه ساعات لم أرَ فيها أو أسمع قصةَ والد فَقَدَ ولديْه، بل لأكون أنا هذا الوالد الذي فقدَ ابنه وابنتَه في ذلك اليوم.

بدأتُ أعيش أحداث القصة، فحاله حالي وألمُه ألمي ولسانه قلمي، ها أنذا أكتب قصةَ رحيل مسرة وميسرة كما هي بتفاصيلها الدقيقة بقلمي، وكأنَّني أنا الذي فقدتهما تجسيدًا لقول المصطفى ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه".

فإليكم قصتي..

"لا أدري مِن أين أبدأ.. هل أبدأ من أولِ صرخة من فمها أطلقتها.. أو أولِ لحظة وقعت عيناي عليها.. أو أول يوم حملتُها بين يدي.. أو أول ابتسامةٍ رسمتها على خدَّيها.. أو أول خطوة مشتْها تحت ناظري.. أو أول يوم صحبتها لمدرستها.. أو أول كلمةٍ قرأتها

على مسمعي.

ولِدتْ مسرَّة ابنتي الثانية، وسبحانَ الله كيف ولدت مسرَّة، كانت بحقٍّ مسرَّة لنا منذ أول يوم دخلت فيه الدنيا، فقد وصلنا إلى المستشفى لإجراء الفحص العادي ولم نتوقع الولادة، فتركتُ زوجتي مع والدتي ورجعت للعمل وطلبت منهم الاتصالَ في حالة الانتهاء من الفحوصات، وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وصلّيت الظهر، ووجدت مكالمة على جوالي فاتصلت، فقيل لي ولِدتْ مسرَّة، فعدت سريعًا للمستشفى لأجد طفلة.. سبحان الذي خلقَ فسوى، فقد آتاها الله جمالًا، وقد نَزَعَتْ إلى أخوالها بعيونها الزرقاء وشعرها الأشقر، بخلاف أختها الكبرى فريال التي آتاها الله جمالًا من نوعٍ آخر، وأسمينا هذه الطفلة الجديدة مسرَّة؛ لما أدخلت في قلوبنا من الغبطة والسرور منذ يومها الأول. تحدثت مسرَّة في سنٍّ مبكرة جدًّا، ومازلنا نحتفظ ببعض تسجيلات الفيديو لها وهي في شهرها السابع تنطق بكلمات واضحة وتضحك ضحكاتٍ عالية كأنها طفلة كبيرة، وعندما أتمَّت مسرَّة من العمر سنة بدأت تتحدث بطلاقة ما عهدناها لدى الأطفال، وكانت دائمًا فرحة مسرورة حتَّى أنَّ جدتها كانت تقول: سبحان الله الذي خلق هذه الطفلة! لم أرها قط إلّا مسرورة، وما رأيتها يومًا حزينة.

وكانت مسرَّة متعلقة تعلقًا كبيرًا بأختها الكبرى فريال التي تكبرُها بأربع سنوات، حتَّى سمَّت فريال بأمها الثانية، وكانت تنام دائمًا معها.

عندما أسترجعُ الذكريات الجميلة أتذكَّر كيف جمعت مسرَّة من المتناقضات ما يزيد من حبنا لها، فبالرغم من ذكائها الحاد، واستغراب الناس لإدراكها لخفايا الأمور، وما وراء الأشياء؛ إلّا أنها كانت لينةَ العريكة سهلةَ الإقناع رغبة منها ألّا تستعرض

ذكاءها، وأن لا تسبّب إزعاجًا لنا، وكان لها منطقٌ فطري يدهشنا في كثير من الأحيان، مثال ذلك عندما كانت في الثانية من عمرها وحضرتْ حفلة في مدرسةِ أختها الكبرى فريال، وقد عرضتْ على الأطفال تمثيلية قصة الراعي الذي كان يملك غنمات، وكان الذئب يأخذُ كلّ يوم منه غنمة حتَّى نصبَ له الراعي فخًّا، وأمسك به وأخذَ يضربه فقامت مسرَّة في وسط القاعة صارخة: "لا تضربوه.. لا تضربوه"، فأوقف عرض المسرحية واندهش الجميعُ من تصرُّفها واقتربت منها المدرسة وقالت لها: لا تخافي حبيبتي، أليس هذا هو الذئبُ الذي يأكل غنمَ الراعي؟ فأجابتها: نعم. ثمَّ سألت مسرَّة المدرسة على مرأى من الناس: وهل يأكل الذئبُ الدجاج كذلك؟ فأجابت المدرسة: "نعم". فقالت مسرَّة: "وأنتِ مش تأكلي الدجاج كمان؟"، فبهتتِ المعلمة وضحك جميعُ مَن في القاعة من تعليقها الذكي الفطن، وما هذا إلّا موقف من عشرات المواقف التي تنمُّ عن فطنة وذكاء حاد.

كانت مسرَّة مليئةً بالحياة والنشاط، لا تكاد تستقرُّ في مكان واحد، وعندما أسترجع كلّ ذلك النشاط والحياة يبدو لي كأنها كانت تعلم أنَّ أيامها على هذه الأرض معدودة، فكانت تعطي كلّ لحظة من حياتها حقَّها حتَّى لا تضيع لحظة من حياتها فيها شيء من الحياة ولم تخرجه منها تلك الصغيرة لتحياها وتحيا بها، وتُبقي لنا ذكريات مليئة بالنشاط والأخذ والعطاء. فسبحانَ الذي جمع في هذه الطفلة تلك المتناقضات العجيبة، فبالرغم من نشاطها غير العادي وروحها الاستكشافية وحبِّها للمغامرة والدعابة والضحك، أو ما نسميه في العامية "بالشقاوة" في البيت؛ إلّا أنها كانت نموذجًا في الانضباط والسيطرةِ على تلك الروح المُفعمة بالحياة، فكانت تُذهلنا بمدى سيطرتها على نفسها وتحكمها في تصرُّفاتها، وكانت تغارُ

من أختها الكبرى فريال "تدلّل باسم فراولة" كيف تمسك فريال بالقرآن وتقرأ فيه ومسرَّة لا تقرأ بعد، وتأتي فتحمله مثلَ أختها فتناديها أمُّها أن لا تلعبي بالقرآن، فكانتْ هذه القضية تسبِّب لها ضيقًا، وحفظت معظمَ السور القصار من أختها الكبرى بالسماع قبلَ أن تتعلم القراءة، واعتبرت مسرَّة انضمامَها لأختها الكبرى في نفس المدرسة أكبرَ مكافأة لها.

كيف أنسى أنَّ طفلتي الصغيرة مسرَّة قبل أول يوم دراسي لها بشهرٍ كامل كانت تستيقظ كلّ صباح باكرًا وتعلق شنطتَها في ظهرها وتمسك المصحفَ بيدها اليمنى، وتقول لها أمُّها: اتركي المصحف يا مسرَّة.. وتجيبها: "لا، أنا خلاص زيّ فراولة ما تاخدوا منّي المصحف أبدًا".

وبالرغم من قدرتي المادية الجيدة إلّا أن زوجتي رفضت أن تكون معنا خادمة في البيت حرصًا منها أن تعتني بأبنائها بنفسها تسهرُ عليهم وترضعهم حتَّى يفطموا، وإن طالت الفترة إلى عامين أو يزيد، وأنا في المقابل كنت لهم سائقًا، وأرعى مصالحَهم وطلباتهم بنفسي، فكنّا بذلك أسرةً مترابطة متلاحمة يسعى كلّ منّا ليخدم الآخر. وأبناؤنا لا يفارقوننا، ولا أذكر أنّنا خرجنا يومًا وتركناهم لغيرنا يعتنون بهم، وكانت كلّ تقارير مسرَّة في مدرستها تعكس مثالياتَها وانضباطها واجتهادَها وذكاءها، وإنْ كان فيها شيء عجبت له مدرستها وهو التفاف زميلاتها دائمًا حولها. وكانت المُدرسة تعجبُ لذلك، فسألت مسرَّة يومًا عن سببِ ذلك، فكانت إجابتها بتلقائية فطرية: "أنا أحبهم وهُم يحبونني"، وهل لغير الحبِّ الصادق تنجذبُ الأرواح وتُمتَلك، وقد رزق اللهُ صغيرتي محبة في قلوب خلقه إلى الحدِّ الذي جعل أمَّها تخاف عليها، وأنهت مسرَّة عامَها الأول، وكانت نهاية مشرِّفة حيث اتصلت بي مديرة المَدرسة وسألتني: هل عند مسرَّة مُحفِّظة للقرآن في البيت؟ فأجبتها

بلا.. هي تحفظ فقط في مدرستها. فقالت: "أنا أستغرب مِن قراءتها فإنها تقرأ بتجويد لا بدَّ أنها درستْ على يد أحد".

فاستأذنتني المُدرسة أن تأخذها لتقرأ في الفصول الأخرى لتشجيع باقي الطلبة فتردَّدت واستشرت أمها ثمَّ توكلنا على الله، واتصلت بي المُدرسة مرّة ثانية تستأذنني أن تقرأ مسرَّة في حفلة للطلبة الكبار فأجبناها أنَّ مسرَّة مازالت طفلة صغيرة، وهذه مدرسة تحفيظ فيها كثيرٌ من الفتيات الحافظات، ولكن الله وهبَ مسرَّة صوتًا جميلًا وتلاوة مميزة، وكانت تتقمَّص أصوات كبار القراء كالحصري والمنشاوي، بل وتتجهَّم وترسم على وجهها الجدية والوقار وكأنها شابَّة لا طفلة، وكانت مسرَّة مولعة بالقرآن ومتلهِّفة أن تحفظ أكبر قدرٍ ممكن حتَّى تلحق بأختها الكبرى فريال، حتَّى أنها أصرَّت في السنة الثانية أن تَسبق المقررَ الدراسي، ووعدتُ مسرَّة أن أحضر لها مُدرسة تحفيظ للقرآن الكريم.

وفي يوم، سألتُ زوجتي عن سبب استعجال مسرَّة في حفظ القرآن، فطلبت منها أن تستفسر من مسرة وتستدرجها في الكلام لتعرف منها ما تريدُ من وراء هذا الاستعجال، هل هي تنتظر منّا مكافأة أو هدية أو غير ذلك؟.. وأي إجابة تلك التي أجابتنا بها مسرَّة، فقد قالت لنا: "اللّي يحفظ القرآن ربنا يلبِّسه تاج الملك، ويلبس أمه وأبوه، ولو أختي فريال حفظت قبلي حتلبّسكم التاج قبلي وأنا ما أبغي.. أنا أبغي التاج حقي هو اللّي تلبسوه الأول".

والله ما سررتُ في الدنيا قدرَ ما سُررت بتلك الكلمات، واستمرَّت مسرَّة تجلب لنا السرور بشتى أشكاله وصوره وألوانه، فقد حباها الله ذكاءً حادًّا وسرعة في الحفظ عجيبة، فكانت تحفظ صفحتيْن في اليوم الواحد حفظًا كاملًا ليس فيه خطأ واحد، وكان لها تفسيرُها الفطري للآيات.. تلك الفطرة الحية التي هي

خيرُ ما يتجاوب مع كلام فاطر السماوات والأرض بدون تصنع أو تكلف أو تطويع للآيات، أو نظر عميق فيها بتلك الأدوات التي يحتاجها العلماء لفحص معاني الآيات. ففي يوم جاءتني أختها فريال وقالت لي: يعني إيش ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (14) يعني ربنا جاء معاهم في الغرفة سمعهم؟ فأجابتها مسرَّة وهي مستلقية: "يعني افهمي يا فراولة إنّ الله يسمع كلّ شيء حتَّى لو كنت تحت السرير يسمعك"، وكأنّها بقولها هذا قد فهمتْ قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (13)، أو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (12).

كنّا في يوم نجلسُ ونشاهد التلفاز فذُكر حديثُ السبعة الذين يظلهم اللهُ في ظله يومَ لا ظل إلّا ظله، وتحدّثنا عن أناس يطردهم اللهُ من رحمته، قالت: "أيوه الملاعين". قلت لها: "الملاعين مين؟.. الشياطين؟" قالت: "لا". قلت لها: "يعني إيش؟" قالت: "دحين أقول لك"، وقعدت تقلّب في التلفزيون ولكن لم تجدْ ضالتها، ونَسيتُ أنا الموضوع، وبعد نصف ساعة أو يزيد وجدتُها تصرخ عليَّ فنادتني فأتيتها، فوجدتها تنظرُ إلى قناةٍ تعرض حديث "لعن الله الراشي والمرتشي". قالت لي: "هدول في منهم ملاعين.. همّ دول الملاعين زيّ كده، عرفت يا بابا مين همّ الملاعين؟"، وأنا أقفُ بين يدي طفلتي في ذهولٍ واندهاش، هل كانت طفلتي حقًّا تعلم معنى الرّاشي والمرتشي!.. أو أن الذي أنطقها هو فاطرُها، وهل يجري اللهُ الحقَّ إلّا على ألسنة مثل هذه القلوب الطاهرة، وهذه الفطرة السليمة التي لم تنتكس بعد.. حقًّا إنّها قصة عجيبة،

ولكنْ لله في خلقه شئون.

مازالت كلماتُ صغيرتي وضحكاتُها تدوّي في أذني.. وما ذكرت لكم هنا إلّا غيضًا من فيض، وهذا الذي يجعلني أسأل نفسي: كيف أوزّع صبري؟ أأوزّعه على كلماتها وضحكاتها التي مازلت أسمع صداها في أرجاء بيتي؟.. أو أوزّع صبري على ذكرى كلّ حركةٍ قامت بها في حياتها محفورة في عقلي وقلبي؟.. أو كلّ مكانٍ كان له مع طفلتي لحظة حياة؟.. هذه الذكرياتُ التي تخرج لي بطفلتي من قبْرها فأعود أدفنها، فكنت لا كالذي دَفَن روحًا واحدة بل كالذي يدفن أرواحًا وأرواحًا في كلّ لحظة من حياته.. وإنّني أموت بموتها كلّ يومٍ على قدر ما يُحيي المكان والزمان من ذكراها.

وكان مِن نقاط ضعف صغيرتي مسرَّة أنّها كانت لا تتحمل أنْ ترى أحدًا مكدرًا متألمًا حزينًا، وكنّا إذا أردنا منها شيئًا لا نجد أنجعَ طريقة من أنْ نتظاهر بالحزن والبكاء فتفعل ما نطلبه منها حتّى لا نحزن، وتقول لنا: "أهمّ شيء إنكم ما تزعلوا".

وتمرُّ الأيام، وأكرمنا الله بمولد ميْسرة، والذي كان كالتوأم لأخته مسرَّة، وإن كان فارقُ السنِّ بينهما أربع سنوات.

حقًّا، قلّما تجد اثنين يتماثلان في الطباع والتصرفات كتماثل مسرَّة وميسرة، حتّى طريقة حَبْوِهما على الأرض تختلف عنْ أختهما فريال وأخيهما بلال الذي لم يكن قد ولدَ بعد، فكانا يحبوان باستعمال يدٍ واحدة فقط هي اليد اليمنى، وكان هذا ليسَ بطبيعي عند الأطفال، وكانا ملتصقين كالتوائم.. تشابهٌ عجيب بينهما في الصفات والحركات والطباع. وكان ميسرة دائمًا يستعين بمسرَّة دون غيرها في البيت في كلّ صغيرة وكبيرة، وكان ميسرة ينام في السرير مع أمه ثمَّ انتقلَ إلى غرفة إخوته، وكان يلعب مع

أخته طوال يومه، وكان يقوم في منتصف الليل ويلجأ إلى أخته الكبرى فريال وينامُ معها إلّا في ليلة واحدة، ولأوّل مرة في حياته ذهبَ ونام في حضن أخته مسرَّة، وكانت تلك هي الليلة الأخيرة في حياة ميسرة ومسرَّة.

وكان لميسرة كذلك روحٌ عجيبة، وابتسامة عريضة لا تغادره، فكان مليئًا بالحياة يدندن طولَ وقته بألحانه الخاصة، وينشد بكلماتٍ يختلقها وينمّقها، إنها طاقةٌ عجيبة ونفسٌ حلوة لم أره يومًا يستيقظ من نومه إلّا وابتسامته العريضة مرسومةٌ على وجهه، حتَّى وهو يحاول فتحَ عينيه عند الاستيقاظ، وكان ميسرة كأخته مسرَّة يحب العطور، أذكر أنّني دخلت يومًا ووجدت البيت مفعمًا بالعطر، ووجدت مسرَّة وكان عمرها آنذاك خمسة أعوام وقد أفرغت عودة كانت لي أثيرة، وقبل أن أنطق قالت لي: "أنت مو قلت إحنا كلّنا مع بعض في كلّ شي؟" فَسَكَتُّ، وكان ميسرة مثل أخته يتسلّق على التسريحة ليشمَّ رائحة العطور، وخفت عليهما من استعمال عطر الكبار، فأحضرت لهما عطورًا خاصَّة بالأطفال، وكان ميسرة يحُبّ العطر كثيرًا ويسمّيه "أناه"، وكان العطر عنده قيمًا وعزيزًا.

وكبرت مسرَّة، وكبر ميسرة تحتَ سمعي وبصري، وكانت مسرَّة تغار من ميسرة وهو معي، واتَّضح لي أنها لم تغرْ من حبي له؛ وإنّما غارت عليه منّي فهي تريده أن يكون معها طوال الوقت.. إنَّها غِيرة لم نسمع عنها من قبل، وكانت ضحكةُ ميسرة تملأ البيت كله، وكان عندما يأوي إلى فراشه للنوم تُسرِع باقي الأسرة للنوم لأنَّ البيت يصبح هادئًا هدوءًا موحشًا دون غنائه ودندنته وقهقهته وروحه المرحة العجيبة.

كيف بالله عليكم أوزّع صبري؟.. وعلى ماذا أوزّع صبري؟..

طوالَ شهر شعبان وميسرة ومسرَّة يهيئان أنفسَهما للعيد الذي لم يروه، فكلُّ يوم تفرش مسرَّة ملابس العيد وتخطط لأيام العيد متى تلبس هذا، ومع ماذا؟ وميسرة وهو لم يبلغ الثالثة بعدُ لا يستطيع الوصولَ إلى ملابسه إلّا الملابس الداخلية، فيخرجها كذلك ويفرشها مثلَ أخته ويسمّيها "الجديدة"، وظلّا طوالَ شهر كامل يخرجان الملابس ويحلمان بأيام العيد ونحنُ نعيش معهما أحلامهما ونشاركهما السعادة والغبطة والبهجة والسرور. وكان ميسرة يصلي معنا وأداعبه، وأقول له: "يا شيخ، روح أنت ما أنت حتَّى متوضّي"، ولكنه كان لا يرد عليّ، ويرسم على وجهه تعابير كالتي ترسمها مسرَّة كلّها جدية مثلَ تعابير الكبار وكأنّه يقول لي: "أنا دحين في الصلاة لا تزعجني"، ويمثل أنه مندمجٌ في الصلاة، ويرفع يدَه الصغيرة التي كنت أدعو الله بها في أحلكِ الظروف، وأقول يا ربّ اشفع لي بهذه اليد الصغيرة التي ارتفعت إليك. وكان تمامًا كأخته مسرَّة كلّما ارتكب خطأ جرى وكبر ودخل الصلاة بأيِّ قبلة كانت ليكسبَ وقتًا حتَّى نهدأ من غضبنا، وننتظر حتَّى ينتهي من الصلاة، وأحيانًا كانت تطول هذه الصلاة.

فريال ابنتي الكبرى، التي حماها الله لنا، وهي ابنتي البكر ودرَّة البيت تساعد دائمًا أمها ومعهما مسرَّة، وكنّا نستعدُّ للانتقال لبيتنا الجديد الذي أخّرنا الانتقال إليه إلى ما بعد رمضان حتَّى لا يلهينا عن اغتنام الشهر الكريم والتركيزِ في العبادة، فكنّا نذهب قبلَ رمضان كلّ أسبوع إلى بيتنا الجديد، وقد اختار كلّ من أبنائي غرفته وألوانها والرسومات التي فيها حتَّى شكل المسبحِ اختاروه هُم، وصمّم على أساسه، جناح منفصل لفريال ومسرَّة بغرفتين وصالة وحمّام، وكذلك الحال لميسرة وبلال، وكانت فريال ومسرَّة تضحكان على ميسرة، كيف يكون له غرفة خاصّة، ويقولان

وهُما يضحكان.. "لو وضعَ في الحمّام ما يقول شيء"، وأجيب سيكبر قريبًا إنْ شاء الله، ويتغير الحال.. والحمدُ لله على كلّ حال.

قبلَ وفاة مسرَّة بأشهر، عبَّرت لي زوجتي عن خوفها عليها، حيث إنّها أصبحت تحفظ بسرعة عجيبة صفحتين في اليوم أو بزيد، وتجلس إلى أمّها وتحدّثها بلغةٍ ليست بلغة عمرها، فتقول لها: "هذه السورة مرّه عجباني.. هذه الآية مرّه حلوة"، وتكون النتيجة تفاعلًا عجيبًا بين مسرَّة مع القرآن، وتنهي في اليوم الواحد صفحتين ونصف الصفحة بكل سهولةٍ ويُسر.

وجاءَ شهر رمضان.. آخر رمضان لمسرَّة وميسرة، وقد وَعَدْتُ ابنتي فريال البالغة من العمر عشر سنوات والحافظة من القرآن تسعة أجزاء أنّها إذا حفظت جزءًا جديدًا من القرآن فلها جائزةٌ قيّمة، ووعدت مسرَّة أن لها مثلها إذا حفظتْ نصفَ جزء من القرآن على أن ينتهيَا من هذا الحفظ قبل الخامس والعشرين من رمضان، حيث إن المُحَفِّظةَ ستسافر، ولا بدَّ أن تُسمِّع لهما قبل سفرها، وبعدَ ساعتين وجدنا مسرَّة حزينة "مبوزة" وسألناها: لماذا أنت حزينة؟ فأجابت: "ليش تقول لفريال تحفظ جزءًا وتقول لي أنا أحفظ نصف جزء"، فأجبناها: "أنتِ أصغر وإذا أردتِ أنْ تحفظي أكثرَ من النصف فاحفظي" قالت: "أيوه وأسبقها.. أنا أحفظ قبلها"، ووعدناها بجائزة إن هي فعلت، وجاء اليومُ الموعود يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان وأنا بين التراويح والتهجد في الحرم جاءني اتصالٌ من البيت فأخبرتني ابنتي مسرَّة وصوتُها كالعادة فرحٌ، وإنْ كان أكثر من المعتاد، وتقول كلامًا غير مجمع لشدَّة فرحها وسرورها: "أيوه أنا.. تاج.. هدية.. جائزة.. خذ ماما"، قالت لي زوجتي: "يا سيدي مبسوطة لأنها دوبها الساعة الواحدة وانتهت من حفظ الجزء الجديد، وسورة إضافية فوقها، وهي الآن سابقة المدرسة بجزءين تقريبًا"، وأمّها تضحك

وتقول لي إنّها هي التي طالبت المحفِّظة بالجلوس عنوة، وقالت: ما تخرجي قبل ما أسمِّع كلّ اللي حفظته معاك. وأسرعت مسرَّة إلى أمها في المطبخ، وقالت لها: "اقرئي عليّ الفاتحة". نعم طلب غريب عجيب يصدر من طفلة لأمّها، وتعجّبت الأم لطلب ابنتها، ولكنْ لله في خلقه شئون، وله معهم حال لا يدركه ولا يراه إلّا أولو الأبصار.. وكانت سعيدة سعادةً عظيمة بانتهائها من تسميع جزء كامل وسورة فوقها دون خطأ واحد، فقالت لها الأم: "سيحضر لك بابا ما طلبتِ"، وبدأت تخطِّط الطفلة مع أمها أين تسافر وتذهب للفسحة، وماذا تشتري من هدايا للعيد والمكافآت وجهاز الكمبيوتر وتشاتينج على الإنترنت، وغيره ممّا يتطلع له أطفال اليوم، وإن كانت مسرَّة غير كلّ هؤلاء الأطفال في أنَّ جائزتها الكبرى في كلمة مازالت ترددها وهي... "التاج".

نعم، لقد كان جُلُّ همِّها أن تُلبس أباها وأمها هذا التاج يوم القيامة قبلَ أختها فريال.

بعدَ انتهاء صلاة التهجد، عدتُ إلى البيت ووصلتُ الساعة الرابعة والنصف، وككلّ يوم يكون الأبناء نائمين فأتسحر أنا وزوجتي، ولكن اليوم كان مختلفًا عن باقي الأيام؛ فميسرة مازال مستيقظًا ولا يريد النوم، ونشيطًا ويلبس البيجامة التي يسمّيها "النامة"، وجاءني وتعلّق بي بطريقة غريبة غريب أمر ميسرة ومسرَّة كأنّ ميسرة كان يعلم أن هذه آخرُ ليلة سيقضيها معي ومعَ والدته، فأراد أن يأخذ منها أكثرَ ما يستطيع، ويعطي فيها والديه آخر سويعات له على وجْه الأرض، فتسحَّر معنا وبقي للفجر ثمَّ ذهب للنوم، وكانت هذه المرّة الأولى والأخيرة التي يجري فيها ميسرة إلى أخته مسرَّة وينام في حضنها، وتصف الأمُّ بغرابة كيف نامَ في حضنها ووضع رأسَه على صدرها، ورجله على رجلها، وأخذ يدندنُ كعادته، وكأنه كان يعلم أنّهما سينتقلان عمّا قريب معًا إلى

مكان واحد، فبدأت رحلتهما معًا في تلك الليلة.

وجاءت الساعة الحادية عشرة صباحًا، ووجدت ابنتي فريال البالغة من العمر عشر سنوات تقف على رأسي وتوقظني وهي تتكلّم بصعوبة، وتقول: "أنا وماما وميسرة تعبانين"، فخرجت من الغرفة ولقيت زوجتي وأطفالي الأربعة على الأرض، ميسرة مطروحٌ على الأرض، وجهه شاحب، وشفتاه زرقاوان، وزوجتي تمسك ببطنها وكلهم يتقيّأون، وفريال تترنَّح وتكاد تسقط من طولها وأنا في ذهول.. لِمَ لَمْ توقظوني من قبل؟ وعلمت أنَّ الأمر حدث بسرعة فائقة، وفي لحظات، ولم يعدْ لديهم قدرة على الحركة وكأنّما أصابهم الشلل، وكانت الحال كذلك بمسرَّة وهي مطروحة في الصالة، فقلتُ في نفسي ليس هناك وقت.. وهل الإسعاف سيأتي بسرعة؟ فحملت الاثنين الصغار وأمهم تتّكئ عليّ، وناديت إحدى أخواتي وهي طبيبة استشارية أطفال. لا أدري كيف وصلنا إلى المستشفى!.. وصلنا الطوارئ، وكلُّ الذي يدور في خلدي هو تسمّم، وأقصى ما سيكون هو غسيلٌ للمعدة، وكان ميسرة يتكلم ومازال في وعيه وإنْ كان مرتخي الأعصاب، وكان يصرخُ ويبكي، ومازالت فيه قوة، وبدأ فريقُ الأطباء والتمريض في العمل وبدأوا في وضع إبرةِ المحلول، وفجأة ومِن وضع النائم المتعَب المرتخي العضلات قفزَ ميسرة على طرف السرير ونظرَ إلى الباب كأنّه رأى شيئًا أزعجه، أو أنَّ شخصًا دخل علينا فظننت أنَّ أمه دخلت علينا فنظرت بسرعة فلم أرَ أحدًا دخل، وأعدت نظري إليه فإذا بأعضائه كلّها ترتخي فجأة، وفي ثوانٍ رأيت الفريقَ الطبي يحاول إنعاش قلب ابني بلا فائدة، حتَّى أنَّ الأطباء أنفسهم كانوا في ذهول لسرعةِ ما حدث، وعلمت بعد ذلك أنَّ الأطباء قضوا وقتًا طويلًا في محاولة إنعاش القلب لابني دون فائدة، ولكن الوقت مرَّ بالنسبة لي كأنه دقائق وثوانٍ، ولم تنزل عيني

عن الشاشة التي فيها رسمُ دقات القلب لعلَّ الحياة تدبُّ مرة أخرى في ابني ميسرة. كنت أبحث عن معجزة تنزل من السماء لم أكن أتصوَّر أنَّ هذا الوجه البريء يسكتُ عن الكلام، لم أكنْ أتصور في يوم من الأيام أنني سأقف مثل هذا الموقف.. لم أكن أتصوّر أنه سيغيب عني للأبد.. يا رب.. يا رب.. يا رب، تمنّيت أن أستطيع أن أفعل شيئًا.. كلّ الذي كان في حيلتي هو الدعاء، ومسح آثار الدم التي تخرج من أنفه وفمه، وكنت أقول في نفسي دعْها تخرج، قد تكون هذه آثارَ حياة تعود.

عجيبٌ أمر الإنسان.. كيف تختلف عنده المعايير، وتنقلب الموازين بتغيّر الأحوال، والله إني كنت سعيدًا في كلّ مرة يصعق فيها قلبُ ابني الصغير بالكهرباء ويهتزُّ كلّ جسده ويعودُ القلب برتعش أمامي على الشاشة لأنَّ ذلك يعني شيئًا واحدًا؛ أنّ هناك أملًا.. أيّ صورة من صور الجنون هذه أن يتمنَّى والد أن يصعق قلبُ ابنه بالكهرباء، ولكنها حالُ أب لا يريد أن يفقدَ ابنه، وفقدت إدراكي بالزمن، ورأيتُ الدموع تنهمر في عيني الطبيب الذي ينعش قلبَ ميسرة، فعلمت أنَّ كلّ شيء قد انتهى.

تمنَّيت أن يفعلوا أيَّ شيء من شدة خوفي من فقدانه للأبد، وإنْ كان شقّ صدره؛ لأنَّ ذلك لو كان يُجدي يعني بالنسبة لي أنه مازال هناك أملٌ أن يعود لي ابني ميسرة، فلم أكن مهيَّئًا لوداعه، وفي لحظةٍ نظرت فوجدته مرتخي الجسد باردًا، وأنا أسأل نفسي: أينَ ذلك الوجه الأبيض الأشقر الجميل؟! أهكذا ينتهي كلّ شيء في دقائق؟! كان يتكلم قبل ساعة!! كان يلعب معي البارحة!! لم يكن عند أحدٍ إجابة عن الذي حدث! وكيف حدث!.

وانتهى كلّ شيء وغابَ ميسرة عن الدنيا وودَّعها.. علمت في تلك اللحظة أنَّ باقي أفراد أسرتي في العناية المركزة، وتمنَّيت أن آخذ ميسرة معي إلى هناك، يعلم اللهُ أنَّ تركي له في غرفة

الطوارئ كان أشقَّ وأصعب علي من أنْ أموت ألفَ مرة، وأن أُقَطَّع ويُفعل بي أيُّ شيء، ولكني مضطرٌّ أن أترك طفلي الصغير ميسرة، فبقية أفراد أسرتي الأربعة في العناية المركزة لا أدري بحالهم.

كان عليَّ أن أتماسك، وأن لا أبدي حزنًا، وأن أقف بجوار كلّ مِن زوجتي وأبنائي الثلاثة الباقين لي على وجه الأرض، فبدأتُ بابنتي فريال "درة أبنائي وبكري"، فوجدت حالتها مستقرَّة، وجريت لغرفة مسرة فوجدتها في حالة مستقرَّة، ولم يؤلمني إلّا أنها ذهبت للمستشفى وهي صائمة ورفضتْ أن تفطر بالرّغم من إصراري عليها أن تفطر وهي طفلةٌ صغيرة لم يكتب عليها الصيامُ بعد، وما أنْ وصلنا إلى المستشفى إلّا وشفتاها مشققتان من الجفاف وترفض أن تشرب، وإن كانت منذ وصولها تأخذُ السوائل والمحاليل بالوريد، وجلست بجانبها وهي واعية والحمدُ لله، وتتحدث إليّ وإلى عمتها، وأمضينا تقريبًا ستَّ ساعات على هذا الحال، وقلنا الحمدُ لله بدأت الأمور تستقرُّ وتهدأ، وإنْ كان هناك شيء في نفسي يجعلني غيرَ مستقرٍّ وهو علمي بالارتباط غير الطبيعي بين كلّ من مسرَّة وميسرة، وهي تتلقى الأكسجين والسوائلَ بالوريد وموصلة بأجهزة القلب والتنفس الصناعي ورسم تخطيط القلب وغيرها من مستلزمات الرعاية المركزة. علمت بعدَ ذلك أنَّ المستشفى قام بالاتصال بمركز سموم جدة، وبإرسال عينات لمعرفة نوع التسمّم، وتمَّ كذلك الاتصالُ ومناقشة الحالات مع مركز السموم في ولاية "كاليفورنيا" بأمريكا من خلال نظام الرَّبط المباشر أجراها رئيسُ الأطباء في المستشفى، وقدم شرحًا إكلينيكيًّا متكاملًا، وبدأ الشك في أن هذه ليست حالة تسمّم غذائية عادية، وقد يكون هناك سمٌّ قاتل فيه مادة الألمنيوم، وبالتحديد مادة فوسفيد الألمنيوم (Aluminum Phosphide) وقد علمت

مؤخرًا أنه ليس هناك، وللأسف الشديد، أيُّ علاج لمَن يستنشق الغاز السامّ الصادر منها، وبعدَ استجواب ومراجعة تاريخ اليومين الماضيين بالتفصيل بدأت الشكوكُ تزداد وتتضافر المعلومات التي تشير بأن ما نتعامل معه هو تسمّمٌ ناتج عن استنشاق غاز الفوسفين (Phosphine) السام المنبعث من أقراص مبيد الآفات فوسفيد الألمنيوم، وأنَّ أحد سكان الأدوار السفلية في العمارة التي نقطنها قامَ بوضعه بشقته بكميات كبيرة وأغلقها وسافرَ إلى بلاده، مَن الذي يبيع هذه المادة السامة؟! مَن الذي رخَّص ببيعها واعتمدها كمبيد حشري للأماكن المأهولة؟! مَن الذي يراقب هذه الموادَّ السامة ويأذن باستيرادها؟! مَن الذي وفّرها له بهذه الكميات القاتلة؟! مَن الذي يشارك في قتل أبنائنا بجهله أو إهماله أو جشعه؟!

بقيتُ بجوار ابنتي مسرَّة أمسك بيدها حتَّى جاءت الساعة التاسعة والنصف مساء، وكانت كلّ الأمور تسير بشكلٍ جيد، وبجانبها معي عمُّها وعمّتها "أختي الصغيرة وهي طبيبة في الجراحة"، وتسأل مسرَّة كيف حالك يا مسرَّة.. وأنبوب التنفس في فمها وتشيرُ بأنها جيدة، وفي لحظة أصبحت تتكلّم بسرعة وتشير لنا حتَّى ظننا والأطباءُ أنها حالة عصبية، وهي تحاول أن تتكلم وتشرح لنا أنّها ترى شيئًا وتطالع للأعلى.. نفس النظرة التي نظر ميسرة بها إلى باب الطوارئ، ونظرتُ ولم أجد أحدًا، ثمَّ غاب عني تكرّر المشهد مرةً أخرى مع ابنتي مسرَّة.. أخذت أحدثها أقول لها يا بنتي "مين فوق؟ مين قاعد يكلمك؟" وهي تريد أن تشرح، ولكنّي لا أفهم لوجود أنبوب التنفس في فمها، وطلبت منها أن تمسكَ بيدي ففعلت، ودخلَ مجموعة أطباء آخرين، وعلمت آنذاك أنهم أصبحوا قلقين بأنهم يتعاملون الآن مع هذه المادة السامَّة القاتلة والغاز القاتل، والتي وللأسف ليس لها علاجٌ في حالة استنشاق

كمية كبيرة منها، ودخل رئيس قسم التخدير وقال لي: إنّنا نتعامل مع دورة، ولكننا لسنا متأكدين منها بعْد. ولم أرد أن أشركهم مخاوفي ولم يريدوا بعد أن يشاركوني في التفاصيل المشئومة، وكانوا متفائلين أنّها ستعيش بالرغم من ذلك، وسألنا مسرَّة: كيف حالك يا مسرَّة؟ فهزَّت رأسها وهي واعية، فاسترخينا. وفجأة سمعت نفسَ الجرس المشئوم.. لقد توقف القلب، لقد كانت تتحرَّك قبل دقائق تجيبني وتستجيب لي، وتتكرر نفسُ الأحداث مثلما حدث مع ميسرة، وأصبحت أشير لهم على ثوبي، وفيه دمُ ابني ميسرة، وأقول لهم: "ما نشف دم ميسرة.. بسّ خلوه ينشف".

وانتهى كلّ شيء، غابت مسرَّة كما غاب ميسرة في لحظات، تُرى ما هذا الذي رآه ميسرة ورأته مسرَّة لحظات قبل وداعهما هذه الدنيا؟! ليتني أسمعُ من صغيرتي ما هذا الذي رأت، وليتني أسمع من صغيري ما هذا الذي رآه؟! يقولون لي اصبر.. وإنّي والله سأصبر، ولكن كيف أوزّع صبري؟! أأوزّعه على كلماتهما التي مازالت ترنُّ في أذني؟! أو على ذكرى ضحكاتهما ولعبهما بين يدي؟! أو على أحلامهما؟! أو أصبر على رؤية أمهما وهي تستقبل الخبرَ ونعيش ما بقيَ من عمرنا نداوي هذا الجرح العميق؟! أو أصبر وأنا أرى درةَ قلبي وبكري فريال وهي تخوض الحياةَ وقد سلبت أختها الوحيدة وأخاها؟! كيف ستعيش وتتعامل مع هذه المأساة؟! أمسك بجدار غرفة العناية المركزة أنظرُ إلى ابنتي مسرة وقد أحاطها الأطباءُ من كلّ مكان، لا لشيء إلّا لحرقتهم وألمهم أن يتركوها، كالذي علم بعقله أنَّ كلّ شيء انتهى ولكنَّ قلبه لا يطيق أن يذعنَ ويقبل، وبقينا ننظرُ لها وقد انتقلت لربها، وحولها سبعةُ أطباء يذرفون الدمع حزنًا عليها.

وخرجتُ من هناك ولا أدري أخروجي من هذه الدنيا سيكون

أصعبَ أم خروجي من تلك الغرفة، وقد ودعت فيها ميسرة ومسرَّة في بضع ساعات.. رحلة قصيرة تلك التي قضيتها معكما يا ميسرة ويا مسرَّة.. ثمَّ أسرعت لابنتي فريال، وجلست بجانبها هي وزوجتي وابني الرضيع بلال، وهم مازالوا في غرف العناية المركزة، وأصبحت أتنقل بينهم، ولا أدري كم سيبقى لي منهم بعدَ نهاية هذا اليوم الذي بدأ بمكالمة هاتفية من مسرَّة وأنا في الحرم بين صلاة التراويح والقيام لتبشيري بانتهاء حفظها لجزءٍ من القرآن وسورة فوقها، وتذكر كلمة "التاج"، وكلام آخر كثير، فقدت في هذا اليوم اثنين من أبنائي، ومازال هناك في اليوم ساعات.. يا ربّ رحمتك ولطفك بما تبقى لي من أهلي. وانتهى اليوم، وأبقى اللهُ لي زوجتي وابني الرضيع بلال ودرّة أبنائي فريال.. فالحمدُ لله الذي أعطى وأخذ.. وكل شيء عنده بمقدار. وتجلدت وصَابَرتْ معي أمُّ مسرَّة وميسرة، ساعات أليمة تلك التي قضيتها مع زوجتي في العناية المركزة وهي على سريرها، ورأسي على جانب سريرها، لا أكاد أرفعه من ثقلِ ما أحمل.. لم أكن أتصور أنني سأدفنُ ابني وابنتي الطفلين؛ بل أنْ أدفنهما في يوم واحد! وكم مرَّت عليّ اللحظات مرَّ الشفرات تقطع لحمي وتفري عظمي وأنا واقف بين القبرين، والكلُّ من حولي مجتهد أن يواريهما الثرى وأنا حائرٌ بينهما.. أأقف على هذا أم أنظر إلى ذاك؟! أأدعو هنا أم أبكي هناك؟! وأنا أُقْتَل ألفَ مرة بكلِّ ذكرى أحيتها مسرَّة وأحياها ميسرة في، كيف أوزع صبري؟!

مرّت أيام عصيبة وانتقلنا للغرفِ العادية، وجاء العيدُ ونحن مازلنا في المستشفى.. وبدأ التكبيرُ بعد صلاة الفجر وأنا لا أريدُه أن يقف، ولا أريد العيدَ أن يبدأ.. وكيف لعيدنا أن يبدأ وقد انتهى عيدي بدفني لأبنائي الاثنين ميسرة ومسرَّة! وعلمت بعدَ ذلك أن سكانًا آخرين أصيبوا كذلك بأعراضِ استنشاق

هذا الغاز السام، وعلمت بعد ذلك أن هذا المبيدَ الحشري مبيد فوسفيد الألمنيوم هو مبيدٌ حشري فعّال في تبخير صوامع الغلال والمخازن لقتل سوس الحبوب والدقيق، وكذلك لقتل الفئران والجرذان، بل هو غازٌ قابل للاشتعال، وعلمت كذلك أنَّ وزارة الزراعة هي التي تمنح تراخيصَ استيراد وبيع المبيدات الزراعية، ومنها مبيد فوسفيد الألمنيوم، وهي المسئولة عن المراقبة للتأكد من التزام كلّ منشأةٍ حصلت على ترخيص استيراد هذه المادة بأنّها ملتزمة بالقيود التي وضعتها وزارة الزراعة والموقع عليها، وأنْ لا تصرف هذه المواد الزراعية السامّة إلّا للجهات المرخص لها ببيعها واستخدامها، وأنَّ وزارة الزراعة تطلب هذه الضمانات الموقَّع عليها خطيًّا من صاحب المنشأة التي طلبت إذن الاستيراد، وذلك قبل إفساح الشحنة من الميناء مع تضمين شهادة (SASO) وهو الاختصارُ المعروف لهيئة المواصفات والمقاييس، وعلمت كذلك وللأسف أنَّ هناك أكثر من عشرين حالة وفاة على مدى عامين من جرّاء غياب الرقابة لبيع هذا المبيد الحشري الذي لا يدخل البلادَ إلّا بإذن وتصريح من وزارة الزراعة، وأنّه لذلك لا تستخدمه أمانةُ محافظة جدة، ولا نتعامل معه من قريب أو من بعيد، ولا تستخدمه في برامجها لمكافحة آفات المدينة؛ لأنها تعلم بمدى خطورته وتستخدم فقط المبيدات التي أقرَّت من قبل الجهات المختصة، وتقع فقط ضمنَ ما توصي به منظمة الصحة العالمية، وعلمت كذلك أنَّ الأمانة بدورها في تأمين الأمن والسلامة لكافة سكان مدينة جدة قد عقدتْ ندوتين توعويتين بمشاركة وزارة الصحة حول سبل السلامة في استخدام المبيدات، وكانت الندوتان خلال هذا العام، وقد خصت الندوة الثانية لمراقبي ومراقبات الأسواق للتعرف على هذه المادة السامة، وعبواتها ومصادرتها من محلات النظافة والعطارة والبقالات الشعبية غير المرخص لها بالإتجار فيها، بل وقد قامت وزارةُ

الصحة بالتنبيه مرارًا ومرارًا على خطورة هذا المبيد وضرورة إزالته من الأسواق، وقد أرسل بالفعل خطاب رسمي من مدير الشئون الصحية بمحافظة جدة، للجهات المعنية لتحذيرها من انتشارِ هذا المبيد في الأسواق، وضرورة التعامل الفوري مع هذه المأساة والكارثة التي تحصد أطفال هذا المجتمع الأكثر تأثرًا بهذه المادة السامة، أين الرقابة إذًا؟ مَن وضع هذا السمَّ القاتل بهذه الكمية بين يدي من استخدمها؟ أين رقابةُ وزارة الزراعة من هذه المنتجات؟ وإنني أسأل اليوم إنْ لم تكن وزارة الزراعة هي المسئولة فَمَن المسئول؟ مَن الذي قتل طفليّ مسرَّة وميسرة؟ مَن نزعهما من بين يدي وغيَّبهما عن حضني؟ هل قتلهما حقًّا هذا الجار أم الجهل أم الجشع أم غياب الرقابة أم كلّ هذا جميعًا؟ هل هو جهل مجتمع وتقصير المسئولين في توعيتهم؟ أم جشع التجار ذوي الضمائر الفاسدة وسعيهم للربح السريع؟ أو غياب رقابة وزارة الزراعة المسئولة والمصرحة لدخول هذا المبيد تحت مسئوليتها، والتي أخذت التعهداتِ اللازمة منِ المنشآت الزراعية!! أو أن المجتمع بأسره قد قتلَ ميسرة ومسرَّة بالتقصيرِ في محاربة الجهل ومعاقبة الجشع وغياب الرقابة؟ كيف يغلق ملفٌّ مثل هذا بهذه البساطة وهذه السهولة، وتختزل القضية فقط في تجريم صاحبِ الشقة السفلية الذي قام باستخدام وتخزين المبيد القاتل في شقته؟ إنَّ القاتل ما كان ليحصد ثمرةَ فؤادي لو لم يعنْه عليه مَن وفّرها له في الأسوق أو البقالات بل حتَّى محلات العطارة. لو حدثَ هذا في الغرب ألن تكون هناك محاسبة شديدة وفتح للملفِّ التحقيق دون أن يكون هناك حصانة، فهذه حياةُ بشر، وأيُّ بشر! فهم أثمنُ ثروة، وليس هناك ثمنٌ على وجه الأرض يمكن أن يقدم كتعويض عن فقد روح واحدة ﴿مَن قَتَلَ نَفسًا بِغَيرِ نَفسٍ أَو فَسَادٍ فِي الأَرضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَن أَحيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(11) أمّا الصحافة فحدّث ولا

حرج، فبعضُ الصحفيين كتبوا وليتهم ما كتبوا.. تزييف وتشويه للحقائق بل وإيذاء وتجريح لنا". انتهت القصة على لسان والد ميسرة ومسرَّة.

إلى كلّ مَن أراد أن يعزي والدَ ووالدة مسرَّة وميسرة.. لا تعزوهما بكلمات جوفاء وإنْ خرجت من قلوب صادقة.. يكفيهما عزاءُ بعض الصحف والصحفيين التي اتّهمتهما بالإهمال والتقصير والجهل، اتّهمت الأب وهو الرجلُ المتعلم الواعي المثقف الذي يحمل شهادةَ دكتوراه في الهندسة، والحافظ لكتاب الله، والذي جمع بين علمي الدنيا والآخرة، وأشهد الله أنّنا ما رأيناه إلّا مدرسة في العبر، وأنموذجًا راقيًا في التربية والتعامل مع أشدّ ابتلاء ومحنة، واتهمت الأمَّ وهي السيدة الكريمة التي تحمّلت أعباءَ بيتها وتربية أبنائها وكرَّست حياتها من أجلهم وأخرجت أبناءً وبناتٍ حفظةً لكتاب الله...

ولكن ليكنْ عزاؤكم لهما أنْ تجعلوا مِن حياة ووفاة مسرَّة وميسرة خيرًا عظيمًا لهذا الجيل، وعطاءً ومنفعةً لهذا المجتمع، فهذا ما كان أبو مسرَّة وميسرة وأُمُّهما يعملان من أجله، وقصة تربيتهما لمسرَّة وميسرة لهِيَ أكبر دليل، ولن يكون ذلك أبدًا بمعالجة سطحيةٍ للموضوع، بل بالتركيز على ما هو أحقُّ وأولى أن يعالَج.

هل سيُغلق مَلفُّ القضية ببساطة؟!

هل سيتكرَّر مثلُ هذا الحادث الأليم وتزهق أرواح بريئة؟..

إلى متى سيستمرُّ استشراء الجهل والجشع وغياب الرقابة في مجتمعنا؟..

مَن الجاني ومَن المسئول ومَن يستحق أن يُعاقب؟..

إلى كلّ مَن أراد أن يعزي والدَ ووالدة مسرَّة وميسرة.. أقول لهم: "عزّوهما بأن تحيوا لهما سيرة مسرَّة وميسرة."

ليصبح ميسرة رمزًا لتيسير أمورٍ كثيرة عُسرت على الناس ولم تزلْ إلى اليوم معطلة..

ولتصبح مسرَّة رمزًا لإدخال السرور في نفوس اغتالتها الهمومُ فأصبحت بها مكدرة..

ولنعيدَ للإنسان في مجتمعنا قيمته المهدرة..

ولنُفعِّل على أرض الواقع قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (10)

---

(15) رواه أبو موسى الأشعري، صحيح الترمذي، برقم 1021.

(14) سورة المجادلة: 1.

(13) سورة لقمان: 16.

(12) سورة الأنعام: 59.

(11) سورة المائدة، من الآية 32.

(10) سورة المائدة: 32.

الشيخ والدَّلال..
الشاطر والشُّطَّار

نقل الرافعي تحتَ مقال بعنوان (الدنيا والدرهم) (17) قصةً رويت عن أحدِ تجار المسلمين في عصر الازدهار، وكان يُلقب بالسّري يقول: "إنَّ السّري كان اشترى مكيالًا عظيمًا من لوزٍ بستين دينارًا، وأثبته في دفتر حسابه، وكتب أمامَه: ربحُه ثلاثة دنانير، فلم يلبثْ أن غلا السعرُ فبلغ تسعين دينارًا، فأتاه الدلالُ الذي كان اشترى له فقال: أريد ذلك اللوز. قال الشيخ: خذْه. قال الدَّلال: بكم؟ فقال الشيخ: بثلاثة وستين دينارًا. وكان الدلال رجلًا صالحًا، فقال للشيخ: إنَّ اللوز قد صارَ المكيال فيه بتسعين دينارًا. قال السّري: ولكني عقدت بيني وبين الله عقدًا لا أحله، فلست أبيعُ إلَّا بثلاثة وستين دينارًا. فقال الدَّلال: وأنا قد عقدتُ بيني وبين الله عقدًا لا أحلُّه، ألَّا أغش مسلمًا، فلست أشتري منك إلَّا بتسعين، فلا الدَّلال اشترى منه، ولا السّري باعه..!"

واني لأكاد أجزمُ بأن أغلبَ مَن سيقرأ هذه القصة في أيامنا التي نعيشها سيعتقدُ في شيخنا هذا والدلالَ الحمق أو المثالية التي تخرج عن أنماط التفكير المنطقي السليم.

ولا يدرك هؤلاء أنَّه هنا تكمن حقيقة سرِّ مناصرة كلّ مخلوقات الله على الأرض لذلك الإنسان الذي يسمَّى (المسلم)، والذي كان خليفةَ الله على أرضه، وعمَّرها كما يحبُّها الله أن تعمر.

وهنا يكمن سرُّ قوة ذلك الإنسان المسلم الذي افتقدتْه الأرض وتبكيه السماء، وهنا يكمن سرُّ توفيق الله لذلك الإنسان المسلم الذي يعامل المسبِّب قبلَ الأسباب، فاللهُ معه يسأله في كلّ حالِه لمَ تفعل هذا؟ وهو يجيبُ والله يستجيبُ بقدر ما يخلص العبدُ في

صدق الإجابة قولًا وفعلًا.

وهنا يكمنُ سرُّ البركة التي يضعها خالقُ كلّ شيء في أيّ شيء قصدَ وجهه فيه، فتكون هذه البركة على أوجه لا يراها إلَّا أهلُ البصائر، ولا يقدر على مثابرة أسبابِ إدراكها إلَّا أهل العزائم.

وبمثل هؤلاء أقيم مفهومُ خلافة الأرض في قلوب المسلمين، فأعانهم اللهُ على إقامتها على أرضه "أقيموا خلافة الله في قلوبكم يقيمها اللهُ لكم على أرضكم"، وبغير هذا فلا ترى إلَّا صورة هزيلة لظلِّ ذلك الإنسان العظيم الذي أضفتْ عليه السماءُ لقب (المسلم)، وإنني لأرى هذه الصورة الهزيلة في بلدي المسلم هذا في كلّ ساعة من ساعات حياتي العملية كطبيب وكاتبٍ ورجل إداري، حتَّى أنها أصبحتْ هي الصورة الدارجة المعتادة ومن وراء الصورة منطقٌ معوجٌّ وفطرة منتكسة ومسخٌ في القلوب لأعظم وآخر رسالات السماء للأرض.. وفصلٌ بين الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وقيام وبينَ مفهوم العبادة الشامل للإسلام الذي لا يترك حركة ولا سكونًا إلَّا أدخله في مفهوم العبادة.

فكثر الشَّاطر والشُّطار، والمضحكُ المبكي في هذا أنَّ الكثيرين ممَّن يتداولون هذه الكلمة لا يعلمون أن كلمة "الشاطر" في اللغة العربية الفصحى تعني "السّارق" والشُّطار هم "السارقون".

ونسيَ مسلمُ اليوم أنَّ الشعائر بجُملتها إن لم يكنْ لها من رصيد في أعمال المسلم اليومية فلم تنه عن منكر ولم تهذِّب فيه خلقًا تحوَّلت إلى حركاتٍ وطقوس خاوية من معناها الحقيقي، ولم تحقق ما بعث به آخرُ رسل السماء إلى الأرض سيدنا محمد ﷺ.. "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(16).

وما صورُ النفاق التي نراها إلَّا انعكاسٌ لغياب المفهوم الحقيقي

للإسلام، فنسمع عمَّن ينادي بالإصلاح ونرى في يده معولًا يهدم به، ونقرأ لمَن يدعو للصدق وقد عرفَ بين الناس بالكذب، وكتبَ عند الله كذّابًا، ونستمع لمن يدعو للأمانة وقد خانَ أمانة الأرض والسماء، وأهلُ الأرض يشهدون والسماء تكتب.

ونعايش صورًا من التناقض البغيضِ في كلّ أوجه الحياة.

ونسأل أنفسنا بعدَ كلّ هذا في تعجبٍ لم لا نرى في أمتنا إلَّا هزيمة تلو الهزيمة، وعارًا بعد عار، وننسى أن الله لا يغيِّر ما بقوم حتَّى يغيروا ما بأنفسهم.

وما عزاؤنا في هذا إلَّا ما كتبه ابنُ الجَوزي في كتاب "صيد الخاطر" تحت فصلٍ بعنوان (المخلصون) وهو يصفهم في قوله: "إلَّا رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، يحفظ اللهُ بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم.. بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم.. بل أحلى، وهمُّهم عند الثريا بل أعلى، إن عرفوا تنكروا، وإن رأيت لهم كرامة أنكروا. فالناس في غفلاتهم، وهُم في قطع فلاتهم، تحبُّهم بقاعُ الأرض، وتفرح بهم أملاكُ السماء، نسأل الله عزَّ وجل التوفيق لاتِّباعهم، وأن يجعلنا مِن أتباعهم".

---

(17) وحي القلم، الجزء الثاني، ص 161، دار الكتب العلمية، ط1 ، 2000م.

(16) رواه أحمد والحاكم، والبيهقي واللفظ له.

مأساةُ الأمَّةِ الإسلامية

كان في قرية من القرى بيوتٌ بُنيت أسقفها وجدرها وأرضياتُها من أصفى وأنقى وأطهرِ وأقوى ما يمكن للتراب أن يُخرجَ على أيدٍ من لحم ودم قد اختلط بهما هدى السماء، فكانت كلّ لبنةٍ من لبنات تلك البيوت كلمات السماء بلغة الأرض، أو نداء الأرض للسماء، وكوَّنت البيوت في مجموعها جملَ كتاب تاريخ عظيم.

وتتابعتِ الأجيال.. كلّ يضيف في البيت ويُجَمِّله ويحسِّنه ويُكَمِّله بعلمٍ وفقه وبصيرة ليواكب احتياجات زمانه.

وتعاقبتِ السُّنون.. وظهرت أجيالٌ أخرى غيرَ سابقيها، أضافت في البيوت بأهوائها وجهلها ما لا يتَّفق مع أسس بناءِ البيت وروحه، وتبعتها أجيالٌ أخرى أهملتِ البيوت كُلّية فعلق بأسقفها وجدرها وأرضياتها وأثاثها وفرشها ما ليسَ من أصلها من شوائبَ وعناصر فاسدة حتَّى ما عادوا يميزون بين الأصل والعناصر الدخيلة وبين مواد بنائه الأصلية وما غطّاها من تراب الأرض وغبارها، بل وما بين ما هو حقيقي وما هو زائف.

وعلمَ جماعةٌ من الناس ما حلَّ بالقرية فانقضّوا عليها ودخلوا بيوتها بيتًا بيتًا وأخذوا في إزالة كلّ ما علق بها من شوائب وعناصر دخيلة.

وبعدَ أن انتهوا نظروا في الأمر، وقالوا لأنفسهم: لو أننا تركنا ما في البيوت قائمًا كما هو لعادت الشوائب ثانية، وقال أحدهم: لو أننا علَّمنا أهل كلّ بيت وفقَّهناهم في التمييز بين الأصل وبين الدخيل لحرس كلّ أهل بيت بيته. فأجابَ آخر: ولكن هذا قدْ يطول، وإنني أرى أن نأخذَ بمبدأ الحيطة، فنعود إلى كلّ بيت ونخلع كلّ ما يحتمل أن تعلقَ به شائبة، أو أن يدخل فيه عنصرٌ دخيل.. فكان هذا ما استقرَّ عليه أمر هذه الجماعة.

فعادوا إلى كلّ بيتٍ وأخذوا في إخراج كلّ مادة أو عنصر كان قد تراكمَ عليه تراب أو غبار أو شوائب فبدأوا بالأثاثِ والفرش فأخرجوهما خشيةَ أن يتراكم عليهما الترابُ والغبار ثانية، وعملًا بمبدأ الحيطة عمدوا إلى الجدر فأزالوا طلاءها وما تحت الطلاء، وإلى الأرضية فخلعوا بلاطها وما تحتَ البلاط، وإلى سقفها فأسقطوا كلّ ما تدلّى منها، فأصبحتِ البيوت أشبهَ ما تكون بالقبور منها إلى البيوت، فهي تحملُ معنى وحشةِ القبر أكثر ممّا تحمل معنى سكينةِ وسكن المسكن والبيت.

ولم تكتفِ هذه الجماعة بذلك، بل وضعتْ على كلّ بيت حارسًا يحرم دخول أيّ شيء دون أيّ استثناء أو اعتبار بتغيّر احتياجات البيوت وأهلها، وتغيّر الزمن وضروراته.

وقُهر الجيلُ الأول على قبول ذلك.. وقبلَ الجيلُ الثاني على مضض.. وجاء الجيلُ الثالث وتغير الزمن ولكن بقيتِ البيوت وحراسُ البيوت كما هم، وتعذَّر على الحرّاس منعُ وصول أخبار القرى المجاورة إلى قريتهم، وأصبح العالم كلُّه أشبهَ ما يكون بقريةٍ واحدة، فرأى أهلُ القرية وسمعوا وهم في بيوتهم أخبارَ القرى المجاورة وما آلت إليه المدنيةُ فأدركوا خواءَ بيوتهم من أمورٍ كثيرة هُم في حاجة إليها لإكمال بيوتهم، ولإضفاء معنى المسكن عليها من سقفٍ وبلاط وطلاءٍ وبسط وفُرُش، فمنهم من حنَّ إلى ما كان في بيته قبل أن يفرغ من محتواه فطالبَ بما كان في البيت فمنعوه، وأمّا الأغلبيةُ من أهل القرية فما عادوا يريدون ما كان في بيوتهم من قبْل فقد سُحرت أعينهم بما رأوا في القرى المجاورة، وطربتْ آذانهم بما سمعوا، حيث إنَّهم لم يتمرَّسوا على حقِّ حرية الاختيار، ولم يعطوا فرصةَ التفكير ولا أدوات التَّمييز بين الأصالةِ والزيف، وبينَ الحقِّ والباطل، وصار جلُّ همِّهم أن يسترقوا النظر من نوافذ بيوتهم لعلَّ الحراسَ يغفلون عنهم ساعةً ليُدخلوا إلى بيوتهم ما حرَّم

عليهم الحراس.

وفي يومٍ من الأيام، حدث انفجارٌ عظيم في قرية من القرى البعيدة فسمع أهلُ القرية دويَّ الانفجار ورأوا دخانه، أما الحراس فمنهم مَن هُرِع إلى مكان الانفجار، ومنهم مَن وقف مذهولًا مشلولًا لا يدري ما يفعل، ووجد أهل البيوت بيوتهم وقد وهنتْ فيها الحراسة؛ فسارع كلّ بيتٍ بإدخال كلِّ ما هبَّ ودبَّ من القرى المجاورة كالمتلهف الظمآن يحسبُ السراب ماءً لشدة ما قاسى من الظمأ والحرمان.

وأخذَ جماعة من أهل البصيرة يبحثون عن تلك الموادِّ والعناصر التي كانت في البيوت قبلَ أن تقلع وتخلع وتزال فقيلَ لهم.. لقد ألقي بها في البحر.

وعادَ أهلُ كلِّ بيت يُدخلون في بيوتهم موادَّ غريبة لا تخرج من أرضهم، ولا تحمل روح لبنات بيوتهم. وبعد أن كانتِ البيوت في مجموعها جُملَ كتاب تاريخ عظيم صارتْ في مجموعها جُملَ كتابٍ تحكي مأساة قرية فقدت ذاتها وقطعتْ ما بينها وبين السماء، فلا هي ضربتْ لنفسها جُذورًا في الأرض، ولا ارتفعت عن تراب الأرض، فقد دفنتها معاني التراب وهي مازالت قائمة فوق التراب.

أمّا الجماعة التي نصَّبت نفسها لتطهير بيوت القرية بادئ الأمر، وآثرت أن تقدم مبدأ أخذ الحيطة في كلّ تقديراتها فقدْ ذهبت جهودُها أدراج الرياح، ولو أنهم أهدوا إلى أهل القرية أدواتِ التمييز وفرصة التفكير وحقَّ حرية الاختيار لكان أهلُ البيوت هم حراسها، ولما فقدت القرية القدرةَ على التمييز بين الحقِّ والزيف، ولكنهم أفسدوا من حيث أرادوا الإصلاح، وهدموا من حيث أرادوا البناء.

حريةُ الماء

يكثر الحديثُ عن الإصلاح، وتكثر الحركاتُ التي تحمل شعارَ الإصلاح، ومع كثرة التنظير واختلاف الوسائل، اختلطَ على كثيرين رؤية جوهر معنى الإصلاح.

وقد وقفتُ مع نفسي مؤخرًا أسألها عن كثيرٍ مما يدور في خلدِ أهل الضمائر، ويعبر عنه بما يطرح على الساحة، فأرهقتني الأسئلةُ وأعجزتني الأجوبة، وزاد كلّ ذلك في حيرتي فذهبت أبحثُ في الطبيعة عن آية من آيات الله تحملُ في حركتها كلَّ المعاني التي يتحتم على دعاة الإصلاح أن يتمثلوها، وعلى حركات الإصلاح أن تحملها، فما وجدت أفضلَ ولا أعمق ولا أظهرَ من الدروس المُستقاة من حركة الماء في إحيائها للأرض ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (19).

وهل الإصلاح إلَّا إحياء القلوب وإحياء الأمة وإرواء ظمأ الفرد والمجتمع والأمة! وأقصد بذلك إرواء ظمأ الحاجة والعوز والفقر الجسدي والروحي والعقلي.

ودقَّقت أخرى في دراسةِ حركة الماء وانسيابها في الجداول والأنهار فحدَّثتني حركتها بحديث مليء بالدروس التي تجسِّد حكمة الخالق في جعل سنة حركة الماء على ما هي عليه.

فقد اقتضت حكمةُ الخالق أن لا تترك للماء حُرية الاختيار، وأن يكون في حركتها أكبرُ درس عملي للإنسانية في تفهيمها وتعليمها بالنظر إلى سنة الخالق في تحديد حركة الماء بما يكفل مضاعفته إحياء الأرض وإصلاحها ونفعها.

فالماءُ يجري بخيره وإصلاحه ونفعه وإحيائه للأرض، يسقي الروافد عن يمينه وشماله وكلَّ ما يلامسه، فإذا اصطدمَ بصخرة

لم يقف؛ بل التفَّ من حولها وتلافاها، وأكمل طريقه في النفع والإحياء. وإذا انتهت حركته بحائط لم يقفْ؛ بل وجد لنفسه طريقًا يصلُ به إلى ما وراء الحائط، فتغلغل في الأرض، أو بحث عن ثغرة في الحائط، أو رُدَّ عن الحائط وعادَ بخيره ليروي وينفع ويحيي باقي الأرض.

فكمالُ الماء لا يكون إلَّا في تحقيق سنة الله فيه، وغاية خلقه في إحياء الأرض ونفعها وإصلاحها، بل لا يكون للماء معنى الماء إن لم تتحقَّق به غاية الإحياء والنفع والإصلاح.

ليتَ دعاة الإصلاح وحركات الإصلاح يكونون كالماء في سرعةِ حركته وانسيابه وشفافيته وصفائه، وفي نكرانه لذاته في سبيل إحياء الأرض وإصلاحها.

إنَّ الفرد والمجتمع في حاجةٍ إلى ما يروي ظمأهم، ويقضي حاجاتهم اليومية من قوتٍ ومسكن وعلاج وتعليم، وليسوا بحاجة إلى التنظير وتعقيد الطرح. فأين حركاتُ الإصلاح من العمل على تحقيق هذه الاحتياجات والمطالبة بها من: عملٍ لكلِّ مواطن، ومسكن لكلِّ مواطن، وعلاجٍ لكلِّ مواطن، وتعليم لكلِّ مواطن.

إنَّ في مجتمعاتنا وأمتنا من الخير ما يكفي لإرواء ظمأ كلّ فرد في المجتمع والأمة، لو أننا تشرَّبنا الدروس المهداة لنا من سنة حركة الماء وإحيائها للأرض والبلاد.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ٤٨ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٥٠﴾ (18).

---

(19) سورة الأنبياء، من الآية 30.

(18) سورة الفرقان -50 48.

أأحجُّ هذا العام أم لا؟ (1)

قبل سنواتٍ كتبَ اللهُ لي الحج، وكان لي مع النفس أحاديث وشجون وآلام وآمال.. أوَّلها ما كان بخصوص رمي الجمرات، فقد وجدنا بعضَ الإيجابيات، منها: إعادةُ تصميم موضع رمي الجمرات، حيث أصبح ممتدًّا عرضًا ليسمحَ لأكبر عددٍ من الحجاج أن يرموا في آن واحد، وتحديد اتِّجاه واحد للدخول وآخر للخروج، وعدم التضييق على الحجاج في أمر تحديدِ زمن ووقت الرمي، والسماحِ لهم بالأخذ بالرُّخص في تحديد وقت رمي الجمرات كلٌّ حسبَ مذهبه، كلُّ ذلك أدى إلى تحسُّن واضح في موقع رمي الجمرات عند الوصول إليها.

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أنَّ الحج منظومة متكاملة، وأيُّ تغير في جزئية من جزئياته سيكون لها تأثيرٌ على الجزئيات الأخرى، ولذا فلا بدَّ أن تخضع جميعُ الاقتراحات والمشاريع لدراسة واحدة شاملة واستراتيجية واضحة المعالم والأهداف، ويبنى لها برنامج متكامل "Simulation Model" لدراسة تأثير كلّ جزئية في منظومة الحجِّ على غيرها من الجزئيات حتَّى لا تعالج جزئية على حساب تفاقم جزئية أخرى.

*****

بينما كنت هناك.. هناك في منى، حيث الزحامُ والحشود الغفيرة من الحجاج، غثاء.. كغثاء السيل. أغمضت عيني وتركتُ روحي تسبح في الآفاق؛ آفاق السماء.. تعانق السحابَ لتنظر من علٍ وتسأل.. ترى ما الصورة المُثلى لحج خيرِ أمةٍ أخرجت للناس؟ أو بالأحرى ما الصورة التي ينشدها قانونُ السماء في الأمة التي استخلفت لحمل الأمانة؟ وما الصورة التي يُحبُّ اللهُ أن يرى عِبَاده عليها في الحج؟..

كثيرًا ما نسمع مَن يقول "الحج مشقة"، والأصل فيه المشقة، حتَّى أنَّ الكلمة أصبحت تعليلًا لكثير من الأمور التي لا يحبُّها الله، وتتنافى مع صفات خير أمةٍ أخرجت للناس.

وبدأتُ أسأل نفسي: مَن قال إنَّ المشقة تعني الغوغائية أو الفوضى أو الضجيج، أو إلقاء القاذورات في الطريق، والافتراش في كلّ مكان وأي مكان، واستعمال الطرق للطهي والنوم وغيرها، أو تردي حالة المراحيض بل وانعدامها في مزدلفة وأماكن أخرى عديدة!؟

ثمَّ تذكرت قَول ربنا ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (21) وكنت أسيرُ مع بعض أصدقائي المقرَّبين من مزدلفة إلى منى، وأشار أحدهم إلى المفترشين وهُم يطهونَ أطعمة عجيبة غريبة بطرق بدائية، واللهُ أعلم بحالة الطعام وأواني الطهي، ويبيعونها للمارَّة من الحجاج، فقال لي صديقي وهو يشيرُ إلى إحداهن "ليشهدوا منافعَ لهم"، فهل هذه هي المنافع التي تنشدها السماءُ ليكون حج خير أمة أخرجت للناس!

إنَّ الحج قد فُرض على القادرين عليه، والقدرة هنا هي قدرةُ الجسم وقدرة المال، وهؤلاء غالبًا ما يكونون من أهل الطبقة المقتدرة، فالحجُّ يعمل في جسد الأمة الإسلامية كما يعمل القلب في جسدِ الإنسان، يجتذب إليه القادرين من أنحاء المعمورة ليجتمعوا فيه، وليشهدوا منافع لهم، ويعودوا إلى أطراف العالم الإسلامي ومشارق الأرض ومغاربها لينفعوا مجتمعاتهم ويعلموهم بما رأوا وسمعوا وتعلموا، وبذلك يكونون أشبه ما يكونون بالدورة الدموية في جسم الإنسان "والأمةُ الإسلامية كالجسد الواحد" تحجُّ كريات الدم الحمراء من الأطراف، وكلُّ عضو من أعضاء الجسم إلى القلب، ومنه إلى الرئتين لينقَّى، ويمتلئ بالأكسجين "الحياة" ومنه يضخُّ مرَّة أخرى إلى الأطراف ليحييها ويبعث فيها

النشاط والتجديد.

*****

في كلّ عام يحج آلافُ الأطباء وآلافُ القانونيين، وآلافُ المهندسين، والآلاف المؤلَّفة من كلّ تخصص من تخصُّصات الحياة والعلوم العقلية والتقنية.

وإنّني أحلم بذلك اليوم الذي يتمثل في الحجِّ قمة النظام والنظافة والرقي في التعامل، والإخاء والمحبة والتآلف، ويقام فيه أكبرُ مؤتمرات العالم في الطب والقانون والاقتصاد والعلوم الدينية وغيرها، وتحدد القضايا التي ستناقش، ويتمُّ التحضيرُ لها قبل عامٍ كامل، وتبثُّ المؤتمرات على الهواء مباشرة بالترجمات الفورية لكل أقطار العالم، وتخرج هذه المؤتمرات بتوصياتٍ واقتراحات، وتُنشر في مجلدات لتشهد بعض هذه المنافع العالم الإسلامي برمته.

إنها هديةُ السماء لخير أمةٍ أخرجت للناس، فرصةٌ لا تتسنَّى لأي أمةٍ من أمم الأرض أن يجتمع ممثلون عن كلّ قطرٍ من أقطارها المترامية الأطراف من مشارق الأرض ومغاربها، يجتمعون في صعيد واحد ليؤكدوا وحدةَ الأمة ويشهدوا منافع لهم.

*****

إنَّ القارئ المتدبر لقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ٢٨﴾ (20)؛ لا يسعُه إلَّا أن يقف عند حكمة تقديم ذكْر منافع الحج على ذكر الله، وهذا التقديم يستوجب علينا البحث في هذه المنافع وإحياءها لكي تتحقَّق المقاصد التي من أجلها أمر اللهُ أن يؤذَّن في الناس بالحج.

وقد ذهب كثيرٌ من العلماء بأن الحجَّ مؤتمر إسلامي عظيم يشمل جميعَ شئون ومجالات الحياة، ويتناول جميع اهتمامات المسلم، وكلَّ ما يعينه على عمارة الأرض ونفع البشرية.

فهو مؤتمرٌ ديني وعلمي وصحي واقتصادي واجتماعي وثقافي وتربوي... إلخ.

حيث يجتمع فيه علماءُ الأمة في جميع التخصُّصات والمجالات ليتناولوا العلوم تحت أخلاقيات الحج السامية فتقام المؤتمرات ويتمرَّس المسلمون الحوارَ الهادئ، وتبادل العلوم بعيدًا عن كثيرٍ من آفات تحصيل العلم التي لا بدَّ للحاجِّ من أن يحذرها ويجتنبها في هذا المقام العظيم من جدلٍ ولغوٍ ومراء، إلى غير ذلك.

---

(21) سورة الحج: 28.

(20) سورة الحج: 28 27.

أأحجُّ هذا العام أم لا؟ (2)

قبل موسم الحج من كل عام أدخل في نقاشٍ مع نفسي أأذهبُ للحجّ هذا العام وقد حججت مرّات عديدة أم أترك المجالَ لغيري؟.. وأسأل نفسي أيهما أولى وأبرُّ عند الله؟..

ولو كان رسولُ الله بيننا ورأى حالنا فما تراه يكون أمرُه ﷺ لنا، ولو تجسَّد فقه الأولويات في عالم ونطق.. فما الذي كان يقول ويُفتي لنا به!؟

أصبح الحجُّ عند كثير من أصحاب المقدرة والدخل العالي سهلًا ميسرًا، وأسباب الراحة والرفاهية متوفرة إلى الحدِّ الذي يخفّف كثيرًا من معاناة الحج لتصبح رحلة الحج السنوية لهم أقربَ ما تكون إلى رحلة دينية سنوية يحرصون عليها كلّ عام.

ولكنْ ما الضير في ذلك؟..

وإليكم النقاشُ الذي يدور في نفسي كلّ عام..

تقول لي نفسي: هذه فرصة لا تأتي في العام إلَّا مرة واحدة.. أيامًا معدودات، وتعود بعدها نظيفًا طاهرًا نقيًّا كيوم ولدتك أمُّك، فتتزوَّد في هذه الأيام زادَ عامك كله، وقد آتاك الله الصحة والعافية والوقت والمقدرة المادية.. فما عذرك؟ بل وكثيرٌ من زملائك وأصحابك وأحبابك مَن يحج كلّ عام وفي هذا متعة مصاحبة الأحباب ومرافقتهم في مثلِ هذا المكان والزمان والموقف العظيم.. إنها حقًّا متعة لا تعوَّض، وإنْ لم تفعل فستندم ككلِّ عام عندما يراسلك أصحابُك من هناك عبرَ الهاتف، وعندما ترى أصحابك وأصدقاءك عائدين من الحج وقد فازوا بها وخسرتها أنت.

فأجيبها قائلًا: إنَّ الله فرض الحجَّ علينا مرَّة في العمر لحكمةٍ

إلهية، وقد حججت مراتٍ عديدة لا مرَّة واحدة..

وقد يكون من حكمة ذلك محدودية المكان والزمان، فإذا افترضنا أنَّ معدل الحجاج سنويًّا 2 مليون حاج، وسنوات العمر التي يستطيع فيها الإنسان القيامَ بهذا الركن ما بين سنِّ العشرين والسبعين؛ أي حوالي 50 سنة، وبعملية حسابية بسيطة نجد أنه باستمرار هذا المعدَّل لن يستطيع أن يحجَّ سوى مائة مليون مسلم فقط خلال خمسين عامًا، وإذا كان عددُ المسلمين حوالي ألف وخمسمائة مليون مسلم، وبفرض أنَّ المسلمين لن يزيد عددهم خلال خمسين عامًا (وهذا غيرُ صحيح أيضًا، والغالب أنه سيتضاعف بإذن الله)، واذا افترضنا أيضًا أن المائة مليون الذين سيحجُّون خلال خمسين عامًا ليس بهم مَن حجَّ أكثر من مرَّة واحدة (وهذا غيرُ صحيح ومخالف للواقع، إذ إن مجموعةً كبيرة من المسلمين يحجّون عشرات المرَّات ومنهم مَن يحج كلّ عام)، لو افترضنا كلّ هذه الفرضيات لتبسيط الحساب لوجدنا أنَّ نسبة المسلمين الذين سيحجّون خلال خمسين عامًا تشكل أقلَّ من 7%؛ أي بمعنى آخر أنَّ 93% من المسملين حول العالم لن يتمكنوا من أداء فريضة الحج أحد أركان الإسلام الخمسة طوال حياتهم.

أمّا إذا قمنا بالحساب الصحيح الدقيق، وأخذنا بعين الاعتبار ازديادَ عدد المسلمين خلال خمسين عامًا، وكذلك عدد المسلمين الذين يحجون مرَّات عديدة؛ فإنَّ الصورة تصبح أسوأ من ذلك بكثير، ونسبة المسلمين الذين سيموتون دون أن يؤدوا فريضة الحج ستزيد عن 93%.

أليسَ الأوْلى أن نطبق حديثَ رسول الله ﷺ: "والله لا يؤمن أحدُكم حتَّى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه"(23) كم من المسلمين الضعافِ في أرجاء المعمورة مَن يحلمون بحج بيت الله الحرام، ويَمنعهم العجز المادي عن القيام بهذا الركن العظيم.. أليس

الأوْلى بمَن يحج كلّ عام أن يحتضنَ مُسلمًا يتكفل بمصاريف حجّه كاملة بِنيَّة مساعدته للقيام بالحج، فيكون له الأجرُ المضاعف؛ أجرُ مساعدة مسلم على تأدية حجَّة العمر، وأجرٌ مماثل له بإذن الله، وأجرُ إيثاره أخيه على نفسه، ويكون لمخالفة هواه ثُقلٌ في ميزان حسناته يُضاف إلى ذلك، والله أعلم بما في قلوبكم.

أليسَ من الأنانية أن لا نفكر في إخواننا وأخواتنا في أقطار المعمورة الذين لا يستطيعون الحج ولا يقدرون على تكاليفه المادية؟ هل هو انعكاسٌ لمرض أخطر قد استحوذ على عقول وقلوب المسلمين؟

ليسَ هذا فحسب، بل إنَّ الدولة المخوَّلة بترتيب الحج كلّ عام قد وضعت قرارًا حكيمًا بعدم إعطاء رخصة حج لمن حجَّ بيت الله سابقًا إلّا بعدَ 5 سنوات من حجته الأولى إلّا إذا كانت الحجةُ لمرافقة محرم، أو أن يكون الحاج رئيسًا لبعثة، أو طبيبًا لها، وفي هذا مرونةٌ كافية لأصحاب الحجة الواضحة، أمّا أن تحج كلّ عامٍ على مدى عقود من الزمن ولا تفكِّر في إخوانك وأخواتك في مشارق الأرض ومغاربها؛ فهذا يحتاج إلى وقفة ومراجعة وتأملٍ وعمق تفكير في فقه الأولويات، أليس فيها إضافةً لذلك مخالفة لولي الأمر؟!

أليسَ من حِكم الحج وفوائده أن يأتي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ليشهدوا منافع لهم، فمكة بمثابة قلب الأمةِ الإسلامية والعالم كله التي تُضخ إليها الدماءُ من أطراف متباعدة من جسد هذه الأمة العظيمة، ومن القلب يذهب إلى الرئتين لِيُنقَّى، ويعود ثانية إلى أطراف جسدِ الأمة، ويضخُّ ثانية إلى أطراف جسد الأمة الإسلامية ليُعيد لها الحياة.. فأين نحنُ من هذه الحكمة؟

صراعٌ ونقاش يدور في نفسي في هذا الوقت من كلّ عام، وسؤالٌ أبحث له عن إجابة:

•ما الذي يقتضيه فقهُ الأولويات؟ وما الأوْلى لمَن أكرمهم اللهُ أن يعيشوا في هذه البلاد؟

أنْ يحجّوا كلّ عام، أو أن يتكفل كلُّ واحد منهم بتكلفة حاجٍّ لم يكتب اللهُ له الحجَّ إلى بيت الله نظرًا لظروفه المادية؟

أمّا عن نفسي، فقد اخترت لها أن تُسهمَ في تحقيق أمنية الملايين من إخواننا وأخواتنا المسلمين الذين حالَ بينهم وبين الحج تكلفتُه المادية.

وإنَّني أظنُّ أن هذا ما يأمله المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من أبناء هذا البلد الكريم، تفعيلًا وتصديقًا وامتثالًا وتطبيقًا لقوله ﷺ: "لا يؤمن أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه"(22).

---

(23) صحيح البخاري، ج 1، ص 12، برقم 13.

(22) سبق تخريجه.

أأحجُّ هذا العام أم لا؟ (3)

كتبَ لي الدكتور عصام البشير يحفظه الله بعدما قرأ ما كتبتُه عن الحج تعليقًا في كلماتٍ من جواهر صاغها في عقد من الحكمة استوجبتْ منّي أن أحتفظ بها لأنشرها هذا العام.

قال في تعليقه: "للأعمال في نظر الشارع الحكيم مراتبُ معلومة، ومقامات موسومة تدرك من خلال أحكام التكليف التي تتفاوت فيها الدرجاتُ وجوبًا وندبًا، أو كراهة وحرمة، أو مباحًا يستوي فيها طرفَا الفعل والترك.. الأمر الذي يستدعي ضبطَ موازين الأعمال بقاعدة الأسبقيات.. فلا يقدم ما حقُّه التأخير، ولا يؤخَّر ما حقُّه التقديم، وهو فقهٌ غفلَ عنه كثير من المسلمين عامَّتهم وخاصتهم في هذا العصر؛ حيث وقع الاختلالُ في هذا النهج الشرعي السديد.. وقد كان الأقدمون من سلف الأمة الصالح يسبغونَ أعمالهم على هذا الميزان الدقيق في مراتب التعبد.. حيث ذكر أنَّ عمر بن عبد العزيز المجدِّد على رأس المائة الأولى كتب له أحدُ عمّاله "تصدقْ لنا بمال نكسو به الكعبة.. فردَّ عمر: إني أردتُ أن أجعل هذا المالَ في أكباد جائعة؛ إنَّهم أولى بذلك من البيت"(25).. وما ذكره ابنُ كثير(24) أن عبدَ الله بن المبارك خرج مرةً إلى الحج فاجتازَ ببعض البلاد، فمات طائرٌ معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسارَ أصحابه أمامه وتخلَّف هو وراءهم، فلمّا مرَّ بالمزبلة إذا جاريةٌ قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائرَ الميت ثمَّ لفته، ثمَّ أسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخْذِها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلّا هذا الإزار، وليس لنا قوتٌ إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلتْ لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال، فظلم وأخِذَ ماله، وقتل، فأمر ابنُ المبارك بردِّ الأحمال، وقال لوكيله: كم معكَ من النفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عدَّ منها عشرين دينارًا تكفينا إلى

مرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضلُ من حجِّنا في هذا العام، ثمَّ رجع.

ومؤدَّى هذا النظر السديد أنَّ الفعل المتعدي بنفعه ثوابُه أعظم من فعلٍ يقتصر أثرُه على ذات الإنسان.. فمن تيسر له أداءُ الفرض الموسوم مرةً في العمر.. أوْلى له وأكبر أن يعينَ مَن أصابه عوز حالٍ دون أداء فريضة الحج.. لعدم توافر الاستطاعة، أو كفالة طالبِ علم أو سدِّ خُلة محتاجٍ تعرت عنه الضروريات في حياته.. ومثل ذلك قلْ في فروض الكفايات التي يقتصر مثالها عند الكثيرين على صلاة الجنائز.. وينحسر طرفهم عن جوامع قد تعطلت في حياةِ الأمة تتَّصل بنهضتها الصناعية وتقدمها العلمي، وتفوقها التقني، وتنميتها المستدامة، وإقلاعها الحضاري، وغراسها الثقافي، ما أغلظ الحُجب التي تحول دونَ إدراك عميق لمقاصد الشريعة المرعية.. ومراتب أحكامها السنية التي أنزلت كلّ عمل مرتبته على نحوٍ يحقق التوازنَ في الحقوق والواجبات). انتهى

---

(25) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، ج5، ص806.

(24) البداية والنهاية، ج 10، ص 191.

بينَ فقْه الواقع وسدِّ الذَّرائع

الإسلامُ دين حياة، جاء لينظم حياةَ الناس ويحقِّق مصالح البشرية، وهو محكومٌ بنواميس الحياة وسننها المنضبطة التي تدركُها العقول، وأحكامه كلُّها تدور مع هذه العلل ولا تنفصل عنها.. وبما أنَّ الزمن يتحرك وحاجات الناس ومطالبهم تتغيَّر باختلاف الظرف والمكان والزمان؛ فإنَّ الأحكام الشرعية لا بدَّ أن تشتمل في داخلها على وسائل الاستجابة المَرنة لتغير الظرف والمكان والزمان، وهذا ما يؤهِّل الشريعة الإسلامية أن تكون صالحة لكلِّ زمان ومكان.

وما شُرع الجمعُ بين النصوص والاجتهاد إلَّا لتحقيق هذا المبدأ، وكيف لا والعقلُ والنقل مصدرهما واحد كما قال أهلُ العلم: "العقلُ والنقل مصدرهما واحد هوَ الخالقُ سبحانه وتعالى.. فالعقل نعمةٌ على الخلق، والنقلُ رعاية لأولئك الخلق، وهما جميعًا سبيلان صحيحان مُعتمدان في طلب المعرفة والاهتداء إلى المصلحة".

ومِن أكبر ما نعاني منه في أيامنا هذه، فصلُ الدين عن الحياة، وذلك بعزل الدين عن مجريات الحياة ومتغيرات المكان والزمان نتيجة فسادِ تأويل النصوص، وقفل باب الاجتهاد، الذي يحقق الإسقاطَ الصحيح للأحكام على الزمان والمكان، وانتشار فقه جوهرُه التشدُّدُ، وأساسُه التوسعُ في سدِّ الذرائع والإفراط الشديد في التحذير من كلّ فكر جديد، وبذلك تمَّ تجميدُ الإسلام، وتجمَّد المسلمون عن الخوض في كثيرٍ من الأمور التي يحتاجها الناس في حياتهم، فتعارض الدين مع فقه الواقع والمصالح والعقل.

وهناك عواملُ عديدة أدَّت إلى انتشار مفهوم الغلوِّ في سدِّ الذرائع تحدث عنها علماء معاصرون كثيرون، ومنهم الدكتور عبد الحليم محمد أبو شقة في موسوعته "تحرير المرأة في عصر الرسالة"،

وهي دراسة مُوَسَّعة عن المرأة، جامعةٌ لنصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم، وقد قضى الدكتور عبد الحليم أبو شقة ما يربو على خمسةَ عشر عامًا يجمعُ مادتها وينقحها ويصحّحها ويؤصلها، وقد قدَّم له وزكى عملَه اثنان من أجلِّ العلماء المعاصرين، وهما: فضيلة الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله، وفضيلة الدكتور يوسف القرضاوي يحفظه الله.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "وددت لو أنَّ هذا الكتاب ظهر من عدةِ قرون، وعرض قضية المرأة في المجتمع الإسلامي على هذا النحو الراشد، ذلك أنَّ المسلمين انحرفوا عن تعاليم دينهم في معاملة النساء، وشاعت بينهم رواياتٌ مظلمة وأحاديث إمّا موضوعة أو قريبة من الوضع، انتهت بالمرأة المسلمة إلى الجهل الطامس والغفلة البعيدة عن الدين والدنيا معًا. وهذا الكتابُ يعود بالمسلمين إلى سنة نبيهم ﷺ بدون تزيد ولا انتقاص، إنَّه كتاب وثائق، ومؤلفه عالمٌ غيور على دينه، رحبُ المعرفة، متجردٌ لنصرة الحق، كره الجدل الذي برع فيه أنصافُ العلماء، وآثر مسلكًا قائمًا على عرض المرويّات كما استقاها من البخاري ومسلم، وقلَّما يعرض غير ما رواه الشيخان...".

أمّا الدكتور يوسف القرضاوي، فقد قدَّم الكتاب بثماني عشرة صفحة ختمها بقوله: "وفي الختام: أستطيع أن أذكر أنَّ هذا الكتاب بما احتوى من نصوصٍ ثابتة ونُقُولٍ صادقة، وشواهد ناطقة، وأفهام نيرة، وتعليقات ناضجة قد أضافَ إلى المكتبة الإسلامية إضافة لها وزنُها وأصالتها. وقد يخالف في بعض جزئيات الكتاب بعض الناس الذين تؤثر عليهم مواريثُهم وبيئاتهم بحُكم سنة الله في البشر. ولكنَّ روحَ الكتاب وجوهرَه في بيان موقف الإسلام من المرأة من خلال النصوص المحكمات، ومن خلال الهدي العام في عصر النبوة؛ لا يمكن لأحد أن يماري فيه".

يقول العالم الدكتور عبد الحليم أبو شقة في عوامل الغلوِّ في سدِّ الذريعة:(26) "إنَّ عوامل الغلو بحاجة إلى دراسة متعمِّقة تتناول الأمر بالتحليل الدقيق؛ وذلك بعد الدراسة العلمية الشاملة لجميع جوانب الظاهرة .. ولكن الأمر الذي نقطع بوجوده هو الغلوُّ في تطبيق قاعدة سدِّ الذريعة؛ وذلك بناءً على مجافاة التطبيق للشروط التي قررها الأصوليون لإعمالِ هذه القاعدة. وإذا كان بعضُ علمائنا الفضلاء قد وقعَ في الغلو، فنحن لا نملك إلَّا أن نقول مع تقديرنا لعلمهم وفضلهم: "جَلَّ مَن لا يخطئ".

•العاملُ الأول: الغفلة عن شروط قاعدةِ سدِّ الذريعة: إنَّ هناك عدةَ شروط ينبغي مراعاتها عندَ حظر أي مباح سدًّا للذريعة، وهذه الشروط هي:

1.أن يكون إفضاءُ الوسيلة المباحة للمفسدة غالبًا لا نادرًا. ويزيد الشاطبي أنَّ الوسيلة التي يكون أداؤها للمفسدة كثيرًا أي لا نادرًا ولا غالبًا لا تمنع؛ إذْ ليس هنا إلا احتمال مجرد بين الوقوع وعدمه، ولا قرينة ترجح أحدَ الجانبين على الآخر.

2.أن تكون مفسدتُها أرجحَ من مصلحتها، وليس مجرد مفسدة مرجوحة.

3.أن لا يكون المنعُ بعد توفير الشرطيْن تحريمًا قاطعًا، بل هو بين الكراهة والتحريم حسب درجة المفسدة.

4.إذا كانت الوسيلةُ تفضي إلى مفسدة ولكنْ مصلحتها أرجحُ من مفسدتها، فالشريعة لا تبيحها فحسب، بل قد تستحبُّها أو توجبها حسب درجة المصلحة.

ورغمَ وضوح هذه التقريرات من علماء الأصول، فإنَّ بعض الخلف غفلَ عنها، وأسفرت هذه الغفلة عن غلوٍّ في سدِّ ذريعة فتنة المرأة.

•العاملُ الثاني: سوءُ فهم معنى فتنة المرأة "وفي هذا تأصيل وتفصيل في الكتاب".

•العاملُ الثالث: سوءُ الظنِّ بالمرأة واستضعافها "وفي هذا تأصيل وتفصيل في الكتاب".

•العاملُ الرابع: الغيرةُ المريضة "وفي هذا تأصيل وتفصيل في الكتاب".

•العاملُ الخامس: دعوى فسادِ الزمان "وفي هذا تأصيل وتفصيل في الكتاب".

•العاملُ السادس: مجموعةٌ من الآيات والأحاديث والأخبار، آيات كريمة وأحاديث صحيحة أسيء تأويلها، وأحاديث ضعيفةٌ أو موضوعة وأخبارٌ ضعيفة "قد ورد في الكتاب نماذج عديدة وفصل فيها". انتهى.

فمِن باب سدِّ الذرائع يضيق كثيرون ببعض ممارسات المرأة ومنها العمل، فتمنع المرأة المُحَجَّبة الملتزمة بأخلاق وآداب الشريعة الإسلامية الغرّاء من العمل كبائعةٍ لسلعة تخصُّ النساء "مثل الحلي والمجوهرات والملابس الداخلية" إذا كانت المشترية امرأة برفقة زوجها أو وليِّ أمرها، في حين نجد معارضَ متخصصة في بيع الملابس الداخلية النسائية فقط "ولا تبيع غير ذلك" نجد رجالًا يبيعون للنساء أكثرَ السلع خصوصية للمرأة وإحراجا لها وكسرًا لحيائها، فتدخل المرأةُ وحدها. فيبادرها البائعُ الرجل ويقترب منها ليسألها عن حاجتها ومقاسِها، ويتناول الملابس الداخلية بين يديه ليريَها للمرأة، وفي هذا تعريةٌ معنوية لها، وقد كُشف له من جسدها ما أخفته بحجابها.

أليسَ من الأحرى والأولى أن تترك السلعُ ذات الخصوصية

الأنثوية مثل المجوهرات والملابس الداخلية النسائية للمرأة، بل ويستحسن أن ينخرطنَ في هذا المجال حفاظًا على المرأة المشترية المترددة على تلك الأسواق. وما ضررُ أن تكون المرأة المشترية برفقة محارمها من زوجٍ أو ولي أمر؟.. أوَليس هذا هو الأمر الطبيعي؟.. خاصة أنَّ البائعة ترتدي الحجاب الشرعي والمكان ممتلئ بزميلاتها البائعات.

بل أيُّهما أكثر حفاظًا على المرأة: امرأة متحجبة تبيع لامرأة أخرى برفقة زوجها أو ولي أمرها، أو رجل يبيع لامرأة "قد لا تكون ملتزمة بالزي الإسلامي" وقد لا تكون برفقة أيٍّ من محارمها؟!.

إننا مأمورون بإعمال العقل، النعمةُ التي أنعمها الله على الخلق، خاصةً عند تغير الأحوال وتبدل الزمان ووجوب الاجتهاد، وذلك هو السبيلُ الصحيح لطلب المعرفة والاهتداء إلى المصلحة، وفهم مُراد المولى عزَّ وجلّ من نصوص الشرع الحنيف؟!

---

(26) كتاب: تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج 3، دار القلم، الكويت، 1994.

58 امرأةً لرجلٍ واحدٍ

تصدَّر خبرٌ في جريدة Arab News في عددها الصادر بتاريخ 19/ مارس/ 2004م بعنوان (رجل يتزوج ثماني وخمسين "58" مرة خلال خمسين عامًا).. وفيه قصة رجل أعمالٍ سعودي تزوج 58 امرأة وطلق 54 منهن، ويذكر المقالُ أن زوجاته في كلّ مرةٍ يسمعن فيها برغبته في التجديد يتساءلن مَن منهنَّ ستُطلق هذه المرة، وقد وصل عدد ذريتِه إلى 36 من 15 زوجة، وقد تزوَّج من 30 قبيلة من السعودية، وفي كلّ مرة تراوده فكرةُ التجديد يقوم بإجراءِ قرعة بين زوجاته الأربع، اللواتي على ذمَّته آنذاك، لتحديد أيّ من الزوجات يُطلق هذه المَّرة. يقول رجلُ الأعمال إنه تزوج أول مرَّة عندما كان في الرابعة عشرة من عمره من ابنة عمّه، وطلقها بعد بضعة أشهر بالرغم من أنها كانت حاملًا من أول أبنائه، وأنجبت له أكبرَ أولاده، وبعد بضعة أشهر تزوَّج من الثانية فالثالثة فالرابعة ولم يتوقفْ منذ ذلك الوقت عن الطلاق والزواج. وزوجاتُه يعشنَ بعيدًا عن بعضهن. أمّا أولاده فغالبًا ما يتعرفون على بعضهم بعضًا مصادفةً في المدرسة نظرًا لتطابق اسم الأبِ والعائلة، وآخر مَن تزوج فتاة تبلغ من العمر 13 عامًا، وقد تزوَّجها قبلَ شهر حين ناهز الخمسين من عمره، ولكنه وعدَ بأنه سيتوقف عن التجديد عندما يتزوج الزيجة رقم 60 وقد وظف مديرًا متفرغًا لتلبية طلباتِ ونفقات زوجاته المُطلقات وأبنائه منهن، وقد صرف حتَّى يومنا هذا ستة ملايين ريال سعودي كتكاليف لهذه الزيجاتِ الثماني والخمسين. وقد عرضتِ الجريدة صورة رجل الأعمال هذا يجلس مبتسمًا بكلِّ عِزة وزهو وسرور.

وقد نشرتْ جريدة Arab News بعد يومين فقط من نشر هذا المقال خطابًا من سيدة أمريكية مسلمة تعيش في الشرق الأوسط وقد اعتنقتِ الإسلام قبلَ خمس سنوات تقول فيه: "إنني أكتبُ

إليكم اليوم كامرأة اعتنقت الإسلام قبل خمس سنوات بعدَ أشهر طويلة من الدراسة المتعمقة والبحث والاستقصاء واكتشاف جمال الإسلام متجليًا في ما أنعم الله به على المرأة المسلمة من حقوق، ولكنني أُصدم كلّ يوم وأُصابَ بالاشمئزاز والحيرة بالذي أرى وأعايش في الشرق الأوسط، وبالتحديد انعدام تطبيق تعاليم الإسلام الصحيحة، وإنني بعدَ قراءتي لمقالكم عن رجل الأعمال المزواج ما فتئت أسألُ نفسي: ما الذي حدثَ لما يسمَّى بالمجتمع الإسلامي؟! وأيُّ بنية اجتماعية وعائلية تلك التي جسَّدها لنا هذا الرجل؟! وما التأثيرُ النفسي على كلٍّ من المطلقات وأبنائهن؟!..

وكيف لهذا الرجل أن يكرِّس أي وقت لأبنائه ليعلمهم ويربّيهم وينشئهم ويكون لهم قدوة؟! إن التربية الصالحة لابن واحدٍ تتطلب جهودًا مُضنية وتضحيات كبيرة، فكيف بتربية عشراتِ الأبناء في آن واحد؟!.. إنها حقًّا مأساة عظيمة أن يستغلَّ بعضُ المسلمين قوانين الشريعة الإسلامية لإشباع شهواتهم وأهوائهم الشخصية دون أي اعتبار لتبعات أعمالهم على المجتمع قاطبة، ممّا يتعارض مع روح وتعاليم الإسلام والأهداف أو المقاصد التي من أجلها وضعت القوانين، وإنني بدأتُ أدرك انعدامَ الوعي والجهل بشريعة الإسلام في هذه البلاد، وأنَّ المجتمعات قد انحدرت في كثيرٍ من أفعالها إلى عهد ما قبل بزوغ فجر الإسلام من جاهليات" انتهت كلماتُ الأخت المسلمة تعقيبًا على الخبر.

وأقول:

لا أدري بماذا أجيبك يا أختاه.. لقد أصبح الإسلامُ الساحة التي يجد فيها كثيرٌ من مرضى الأنفس متنفسًا لأمراض نفوسهم. وتحتَ شعار الإسلام "آخر رسالات السماء إلى الأرض" يُرتكب الظلمُ والمخالفات والجاهليات.

لقد عاد الإسلامُ اليوم غريبًا كما بدأ، وإن كان عددُ سكان مَن يحملونه اسمًا لا فعلًا، وشكلًا لا مضمونًا قد تعدَّى البليون! عادَ غريبًا بندرة مَن يمثله حقَّ تمثيله ومَن تتجلى فيه روحُه السماوية، فالشريعة لا تحيا إلَّا بأن تختلط بلحم ودم، وتمشي على الأرض، وإنني لا أرى إلَّا مسخًا أو صورًا مهزوزة لذلك الأصل الذي قرأنا عنه في تاريخ أمة الإسلام. لا عجب إذًا أن ننحدر إلى ما انحدرنا إليه، وننتهي إلى ما صار إليه شأننا.

وأينَ هو الميثاق الغليظ ﴿وَأَخَذْنَا مِنهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الذي شبَّه الله به ذلك العهد الشديد الذي أخذه على كلّ زوج تجاه زوجته. وقد ذكر الميثاقُ الغليظ في القرآن ثلاثًا: أولاهما ما ذكرناه أعلاه، وهو ما على الزوج تجاه زوجته، والثاني ما أخذ اللهُ على أنبيائه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (29)، **والثالث ما أخذه اللهُ على بني إسرائيل من عهد** ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (28).

وعندما ننظر نجد أنَّ الميثاق لم يوصَف بالغليظ إلَّا في المواقف الثلاثة أعلاه لقدسية الميثاق وشدته. فأين هو ذلك الميثاق الغليظ الذي أخذه اللهُ من الزوج تجاهَ زوجته من هذه الممارسات المنحرفة والعبث بالشرع؟! وإلى متى سنقبل أن يكون الإسلامُ مَطيَّة لمثل هذه الممارسات وهذه النفوس المريضة؟! وأين هم حماةُ الإسلام الغيورون عليه من مثل هذه التجاوزات والانحرافات والعبث والتلاعب بروح الإسلام وتعاليمه وبنية المجتمع الإسلامي؟!...

وصدقَ الله العظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (27).

---

(29) سورة الأحزاب: 7.

(28) سورة النساء، من الآية 154.

(27) سورة الرعد، من الآية 11.

ثمَّ أتممتُ الأربعين

هذا المقال كتبتُه قبل سنوات، وذلك حينَ أتممتُ أربعينَ عامًا من عمري، فإليكم المقال:

إنَّني لأعجبُ من عالم الطفل، وأعجبُ كيف يعمل عقله، وكيف يدرك قلبه، وكيف تُحفر فيه أعمق وأجلُّ حكم الحياة قبلَ أن يغوص في أعماق الدنيا ويدرس أجلَّ وأدقَّ خصائصها، وكأنه يُطلُّ عليها من عالم الآخرة لا من عالم الدنيا فيقرؤها قراءةً فطرية بروحٍ سماوية لم تتمرغ بعد في معاني التراب وحاجات الجسد وأهواء النفس.

مازلتُ أذكر تلك الآياتِ المحفورة على رأس مدخل بيتنا الذي تركناه قبل أكثر من ثلاثة عقود. وكنت آنذاك في السابعة من عمري، وقد تعلمتُ القراءة لتوِّي، فكنت أهوى أن أتحدى نفسي في قراءة أصعب ما تقع عليه عيني، وكنت أثناءَ لعبي بدراجتي الصغيرة أطوف بالبيت عشرات المرات في اليوم الواحد وفي كلّ مرَّة يمنعني إجلالي لتلك الآية إلَّا أن أقفَ عندها وأقرؤها مُنغَّمة، وفي كلّ مرة يحضرني سؤالٌ فأسأل وأُجَاب فتعجبني بعض الإجابات تارة فأقبلها، ولا تعجبني تارة أخرى فأعلق السؤال إلى حين.

وبالرَّغم من أنني حفظتُ الآية عن ظهر قلب ولم أتعدَّ آنذاك السابعة من عمري "فكانت من أوائل الآيات التي حفظتها" إلَّا أن الآية كان لها في النفس أعمالٌ ليست من أعمال الدنيا ولا ما فيها، فكانت عيني تدمع في كلّ مرَّة أقرؤها، وأحسُّ بقشعريرة تارة في أطرافي وأخرى تتسلل إلى فروة رأسي، ولم أعرف معنى هذه القشعريرة، وكنت أعجبُ من عمل هذه الآيات فيَّ، ولم أبح بهذه المشاعر لأحد.

وتمرُّ الأيام سراعًا كلّ يوم يسابق الذي يليه، وتمرُّ ثلاثة وثلاثون عامًا كأنها عشيةً أو ضحاها أو يوم أو بعض يوم، وولدَ فجرُ يوم الخميس الموافق 23 سبتمبر وهو يوم ميلادي الذي يوافق في كلّ عام احتفال العيد الوطني، وأصبح عمري أربعين سنة، فتذكرت الآية التي كنت أقرؤها وحفظتها قبلَ ثلاث وثلاثين سنة، وإنني أقرؤها اليوم وكأنَّني أقرؤها لأولِ مرَّة في حياتي ﴿وَوَصَّينَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ١٦﴾ (31)

وطافت بي بعضُ المشاعر التي كانت تطوف آنذاك بابنِ السابعة.. فابتسمت.. ودمعت.. في آن واحد.

ابتسمتُ لابن السابعة الذي كان يظنُّ آنذاك أنَّ الأربعين بعيدة جدًّا، وما كان يعجب منه كيف يكون في الأربعين عامًا بلوغ ذروة الشدة والقوة والعزم.

فكان ابنُ السابعة يقول في نفسه: مَن بلغ الأربعين فقد قضى من عمره الكثير الكثير ولم يبقَ من عمره إلَّا القليل.

ودمعتْ عيناي لدمعة ابن السابعة الذي قرأ الآيات بعين السماء لا بعين الدنيا، فكان بضحالة علمه الدنيوي وبساطة عقله الفكري؛ أحكمَ وأعمق من ابن الأربعين، فأدرك رسالة السماء لابن الأربعين والتي لو تُركت لابن الأربعين لما قرأها مثل هذه القراءة.

وابتسمت لابن السابعة شكرًا وتقديرًا .. ودمعت على ابن

الأربعين حسرةً وتوبيخًا..

ابتسمت لسذاجة الإنسان وإلى أحلامه الهلامية بعيدة المدى، ودمعت وقد استشعرتُ كيفية مخاطبة الله لكلِّ عبدٍ من عباده بآيٍ من القرآن وكأنَّ الآية قد فُصِّلت وخُصِّصت لذلك العبد، وكأنَّه المنادى بها بعينه، وفي هذا إعجازٌ قرآني ورحمة وتشريف للعبد.

ومازلت أتنقلُ بين مشاعر ابن الأربعين وما حُفر في قلبي وعقلي من مشاعرِ ابن السابعة حتَّى أحسست كأني أنظرُ إلى شخصيْن متقابلين أستمع إلى حوارهما.. ولكنْ.. ابنُ الأربعين كان هو التلميذ، وابنُ السابعة هو المُعلِّم.

ابنُ الأربعين يحسب أنَّ أمامه عمرًا طويلًا مديدًا.. وابنُ السابعة ينظر إليه ويسمع كلامه بتعجُّب وخوف وتأهب، ويقول له: مرَّ من عمرك الكثيرُ الكثير.. كانت لك أشبه ما تكون بيومٍ أو بعض يوم وأنتَ اليوم مازلت تظنُّ أن أمامك عمرًا مديدًا؟!..

ابنُ السابعة خائف وَجِل.. وابنُ الأربعين ساكن واثق غير نَجِل.

ابنُ السابعة قرأ في الآيات ما أراد اللهُ أن يُقرأ فيها.. وابنُ الأربعين قرأها بحُظوطِ نفسه وآماله وطموحاته وبلوغه ذروة قوته وعزمه ففاته، منها المقصد والمغزى.

إنَّ ابنَ الأربعين قرأ من الآيات بلوغَ ذروة القوة والشدة، أمّا ابنُ السابعة فقد قرأ في الآيات قرب النهاية، فما بعد الاكتمال إلَّا النقصان، وقرأ في كلمة النهاية معنى القبر، وكأنَّ لسان حاله لو كان له آنذاك من بلاغة أن يقول ما قاله الرافعي في مقال بعنوان وحي القبور(30) يقول:

"القبرُ كلمة الأرض لمَن يخدع فيرى العمر الماضي كأنه غير ماضٍ، فيعمل في إفراغ حياته من الحياة "أي من إنسانية الحياة" بما يملؤها من رذائله وخسائسه. وفي الحياة الدنيا يكون الإنسانُ ذاتًا تعمل أعمالها فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتًا يخلد هو فيها، فهو مِن الخير خالد في الخير، ومن الشرِّ هو خالد في الشر فكأن الموتَ إنْ هو إلَّا ميلادٌ للروح من أعمالها تولد مرَّتين آتية وراجعة".

رحمَ الله ابنَ الأربعين برحمته بابنِ السابعة.. ولا خيَّب ظنَّ ابن السابعة في ابن الأربعين.. لقد كنت هذا الفجر بين حديث ابن السابعة وابن الأربعين.. وبين الروح والروح.. ابتسامات ودموع تحوَّلت لضحك وبكاء.. فسبحان الذي أضحكَ وأبكى.

---

(31) سورة الأحقاف: 16-15.

(30) وحي القلم، ج 2، ص 123.

ثورةُ الرُّوح

يعودُ رمضان في كلِّ عامٍ ليذكِّر بأنَّ الحياة الصحيحة هي وراء هذه الحياة لا فيها، وأنَّ تاريخ الإنسان لا يكون تاريخ إشباع رغباته ولا تلبية أهوائه؛ وإنما يكون "تاريخ النفس" وارتقائها نحو بارئها وخالقها.

عادَ شهرُ ثورة الروح على الجسد ليشهدَ على أمة محمد.. ولو كان له لسانٌ ينطق به لسألَ في تعجب: أيُّ أمة هذه التي كُتِبْتُ وفُرِضْتُ عليها، ولا أرى من حكمة وجودي في حياتها إلَّا بقدر ما في السراب من ماء! أيُّ مسخ هذا من صور أجدادهم الذين كنت أتفاعلُ معهم، وكانت الحياةُ تتفاعل بهم من حولهم وتُصنَعُ على أيديهم، فكانوا بمثابة المعنى الذي يفسِّر المعنى، ونطقت الحياة بهم من حولهم بأجمل كلمات تجسَّدت في سكونهم قبلَ حركتهم، وفي صمتهم قبل نطقهم، وعَمَّرُوا من العُمْرِ ما عَمَّرُوا ليعمّرُوا في الأرض ما عَمّروا، وليورثوا حضارة وعمارة تشهد بها السماء قبل الأرض.

عادَ شهرُ ثورة الروح على الجسد ليشهدَ على أمة محمد.. ولو كان له لسان ينطق به لسألَ في تعجب: هل أدركت الأمةُ أعظم دروسي؟! إنَّ أعظم دروسي هو تعميق معنى الفقر في نفس المؤمن الصائم، وإشعاره به بطريقة عملية.. وأقصدُ بالفقر هنا الرمز منه؛ وهو أنْ يفتقد الإنسان مقوماتِ حياته، جسدية كانت أو عقلية أو روحية، وإنما جاءَ منعُ الأكل والشرب والجماع وحفظ الجوارح رموزًا لتعميق هذا المعنى والوصول إلى تلك الحالة النفسية التي تجعل الروح تثورُ على الجسد، ولتتفاعل النفس مع أيِّ شكل من أشكال الفقر من مشارق الأرض إلى مغاربها، ومِن هذا الدرس العملي تنشأ الرحمة، ويستيقظ الضميرُ ليسمع الغني في

ضميره صوتَ الفقير يأمره "لا يطلب منه"، ويسمع مَن ابتلاه الله بالاكتفاء صوتَ الذي ابتلاه بالعوز والحاجة، ويسمع مَن كتب له الأمان في بلده صوتَ الذي ابتلي بسلب أرضه والاعتداء على حرماته وفقره وضعفه عن أن يرد الاعتداء أو يستعيد الحقوق.

هل أدركتِ الأمة أعظمَ حكم وجودي؟! أم تحوَّلت إلى شهر طقوس وعادات وتقاليد جوفاء.. مآدب طعام تفنن فيها أصحابها لتمجيد "تاريخ البطن" في تاريخ الأمة.. أمّا "تاريخ النفس" فيقتصر على المنافسة في ذرفِ أكبر قدرٍ من الدموع دون أن يكون لتلك الدُّموع من رصيدٍ في تحقيق حكمة الصوم من: رفع الفقر والعوز والظلم والقهر عن الضعفاء والمساكين، واسترداد المغتصبات، وكفِّ أيدي المعتدين.

أيُّ صورة هزيلةٍ هذه من أجدادهم العمالقة الذين أدركوا حكمةَ هذا الشهر الفضيل، وثورةَ الروح على الجسد وترجموا ذلك واقعًا، فكانت أعظم معارك الأمة لاسترداد عزتها في هذا الشهر العظيم، وكانت أكبر الإنجازات والأعمال في هذا الشهر الفضيل لتطهيرِ العالم من رذائله وفساده وكلِّ صور الفقر وأسبابه وتبعاته، ورفع الظلم والقهر عن الضعفاء والمساكين والمغتصبة حقوقهم وأراضيهم.

عادَ شهرُ ثورة الروح على الجسد ليشهدَ على أمة محمد.. ولو كان له لسانٌ ينطق به لسألَ في تعجب: أين أنتم يا أمةَ محمد من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ (32) وكيف تكون التقوى.. وكيف يكون اتقاءُ غضب الله على أمَّة مازالت تعيش في تاريخ بطنها ورغباتها وأهوائها، وما عادت تستطيع أن ترى ما وراءَ الحياة.. فترضى أن تُزهق أرواح الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ في هذه الأيام على الأرض المباركة التي استُخلفوا عليها إلى قيام الساعة،

وتنتهك الحرمات، وتدنَّس المقدسات، ويصرخ شعبٌ بأسره أصابه الفقرُ والعوز والظلم والقهر والاستبداد والذبح والتغريب والتنكيل والتعذيب، فلا يجد في ضمائر الصائمين من أمة محمد إلَّا بقدر ما في السراب من ماء.

عادَ شهرُ ثورة الروح على الجسد ليشهد على أمة محمد..

---

(32) سورة البقرة: 183.

من للثغور؟

يعودُ شهرُ رمضان من جديد في كلِّ عامٍ، وتعودُ معه أفواجُ المصلين القوّامين العابدين، ولنجدَ المساجد تعجّ بالمصلين.

مسجدُ حَيِّنا الذي لا يكتمل فيه صفان في صلاة الفجر على مدى العام تعدَّى السبعة صفوف في أول يوم من رمضان.. وفي هذا خير.

ويبدأ التسارعُ في التبكير للذَّهاب للمساجد لصلاة العشاء والتراويح خشية أن لا يجدَ المصلي مكانًا مكيفًا يصلي فيه خاصَّةً في بعض مساجد جدَّة التي تحظى بأئمةٍ حَباهم الله بالصوت الجميل والقراءة المؤثرة.. وفي هذا خير.

ويرتفع مؤشرُ تطبيق الشعائر التعبدية من صيام وقيام وقراءة للقرآن، في خير أمة أخرجت للناس.. وفي هذا خير.

ولكن هل حُقِّقت الغاياتُ العظمى والمقاصدُ العليا من وراء هذا الشهر الفضيل؟ هل تحقَّقت التقوى في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾؟

التقوى التي أشار الرسولُ إلى قلبه، وقال: ".. التقوى ها هنا.."(35)، التقوى التي مكانُها القلب، ويصدِّقها العمل كأسمَى صور الشكر للخالق ﴿اعمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكرًا﴾ (34).

رمضان شهرُ الجهاد الذي كانت فيه معظمُ انتصارات المسلمين وفتوحاتهم، ولكننا نجد غير ذلك.. نجد الإنتاجية تقل وساعات العمل تتقلص بذريعة التفرغ للشعائر التعبدية، وكأن الشعائر التعبدية أصبحت حائلًا دون العمل.

فأين شهرُ الجهاد من الوقوف على الثغور الحياتية؟

سُئل الإمامُ مالك عن الاعتكاف، فقال: أكرهه حتَّى لا يشغل الناس، وينفر المسلمين، ولا تتعطل به المصالح العامة.

كم من الثغورِ الحياتية في شتَّى مجالات الحياة الاجتماعية والإعلامية والتعليمية والتربوية والصحية والاقتصادية والسياسية والقانونية وغيرها.. يؤتى الإسلامُ من قبلها في أيامنا هذه.

كم من الثغورِ الحياتية يُغزَى الإسلامُ والإنسانية من قبلها فيصبح أبناءُ الأمة بل والإنسانية جميعها فريسةً سهلة لغزاة الفكر الهدَّام وأصحاب الغايات المنحرفة.

ألم يكن شهرُ الجهاد "رمضان" هو شهرَ تدريب أمة محمد ﷺ، لكي تعتاد على حمْل رسالتها بقوة وجِدٍّ، وتعيد تصحيحَ مسارها وتتولى قيادةَ الإنسانية إلى جادَّة الحق، وإلى عمارة الأرض كما يحبها اللهُ أن تعمر؟!.

هل أصبح الشهرُ بالنسبة لكثيرٍ من المسلمين كالذي لا يغتسل إلّا يومًا واحدًا كلّ اثني عشر يومًا ليخرج فيه نظيفًا ثمَّ يعود مرَّة أخرى إلى مَرتَعِهِ الذي كان فيه فيصيبُ فيه قذارة ونتنًا، أو كراعٍ خصَّص يومًا في كلّ اثني عشر يومًا يصوم فيه ويكثر الصلاةَ والقيام، فإذا جاء يومُ عبادته نسي غنمَه وغفل عن رعيته فسُرق منها ما سُرق وأكل الذئب منها ما أكل وهوَ يحسب أنَّه يُحسن صنعًا، فكيف إذا ظلَّ على أمره هذا ونقص قطيعُه وفني تدريجيًّا من حيث لا يدري، وهو لا يدرك أنَّه قد فرّط وأفسد من حيث أرادَ الإصلاح، ألا يدري أنَّ انكبابه على شعائره التعبدية ذلك اليوم مع تفريطِه في الأمانة التي وكلت إليه لنْ يشفع له عندَ خالقه يوم القيامة "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته(33)".

كم من شبابِ هذه الأمة وجيلها القادم يُسرق منَّا كلّ يوم من جرَّاء انكشاف الصفوف في أرض المعارك الميدانية والثغور

الحياتية، الإعلامية منها أو الاجتماعية أو التعليمية أو التربوية أو الاقتصادية أو غيرها ممّا نعلم وممّا لا نعلم، وممّا نرى وممّا لا نرى.

نريده شهراً يُخرج لنا من أبناء الأمة مئاتِ الرجال والنساء الذين يقفون على الثغور الحياتية ويدفعون عن الأمة مكائدَ الكائدين، ويحمون حمى الدين، ويُخرجون من الإنسانية خيرَ ما فيها، ويُعيدونها إلى ربها وخالقها، ويضربون الأمثلة والنماذج والقدوات، ويصبغون الحياة بالصبغة الربانية في كلّ مجالات الحياة.

فيكون بذلك شهرُ رمضان هو شهرَ تطبيق الجهاد العملي، وشهر التقوى والمغفرة بإذن الله، وشاهدًا لنا لا علينا يوم القيامة.

---

(35) جزء من حديث متفق عليه.

(34) سورة سبأ، من الآية 13.

(33) جزء من حديث صحيح، أورده البخارى، برقم 893.

الطَّلاقُ التّامُّ في
شعيرةِ الصّيام

إذا سُئلتُ أن أُلخِّص الصوم في بضع كلمات لم أزدْ على أن ألخِّصه في كلمتي: الصبر والتقوى، أمّا الصبر فهو الوسيلة.. وأمّا التقوى فهي الغاية.

يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (39).

وقد جعل الله شعيرةَ الصوم له سبحانه فهو الذي يجزي به، عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: "كلُّ عمل ابن آدم له إلّا الصوم فإنَّه لي وأنا أجزي عنه"(38). حيث إن في الصوم أسرارًا ليست في غيرِه من الشعائر والطاعات، ومِن هذه الأسرار أنَّ الصوم كفٌّ وتَرْك في حين غيرِه من الطاعات تكون بمشهدٍ من الخلق ومرأى، وبذلك فإنَّ سرَّ عظم هذه الشعيرة أنه ليس فيها عمل يُشَاهد، فالصوم لا يراه إلَّا الله، فهو عملُ الصبر في الباطن. ولتمام صوم الباطن آثارٌ ودلالات على البصر واللسان والسمع وبقية الجوارح، من: غضّ للبصر، وكفِّه عن الاتساع في النظر إلى كلّ ما يذمّ ويكره، وحفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصُومة والمراء، وكفِّ السمع عن الإصغاء إلى اللهو وكلِّ ما هو مكروه، وكفِّ بقية الجوارح من اليد والرجْل عن الآثام والأذى.

ومِن آثاره كذلك أنْ تَقوَى الإرادة في كسر الهوى والشهوات، ومنها شهوة البطن فلا يستكثر الصائم من الطعام والشراب الحلال وقتَ الإفطار، ففي هذا تقويةٌ لشهوة البطن، بمنع المعدة عن الطعام والشراب لتهيج شهوتها وتقوي رغبتها، ومن ثمَّ إطعامها

من اللَّذات ما يتجاوز الشبعَ إلى التخمة دون مراقبة أو محاسبة أو كفٍّ لجماحها، وفي ذلك مضاعفة لقوَّة الشهوة، ومعارضة لهدف الصيام من تضعيفِ القوى والرغبات التي هي من وسائل الشيطان لاستدراج الإنسان.

إنَّ هدف الصيام هو التقوى، ومِن صور التقوى أن يكون قلبُ الصائم بعد الإفطار مضطربًا بين الخوف والرجاء، أقُبل صيامه أم لم يُقبل؟!..

ومِن صورهِ كذلك أنْ يُرى أثرُ تقوى قلبه في كلّ أعماله، فتجد المؤمنَ قد تغير في هذا الشهر بالصبر والجدية في كلّ صور حياته.

وقد كتبتُ مقالًا من قبل عن الصوم وفلسفة الصيام بعنوان (هل تصوم الأمة.. أم تستبدل؟) (37) قلت فيه: "إنَّ شهر رمضان هو شهرُ الثورة على كلّ شهوات الحياة بمختلف صورها، وبذل للجهد والطاقة من أجل تحطيم القيود، وكسر العادات التي تحولُ بين إعلاء صوت الروح واستشراف ما وراء الحياة، وهل كتب اللهُ أن تكون معركا بدر وأحد أهمَّ معركتين في تاريخ الأمة وتاريخ الإنسانية إلَّا في شهر الثورة (شهر رمضان) تأكيدًا وتجسيدًا لأهم الدروس العملية لمعنى الصيام من إعلاءٍ لصوت الروح، وهل يعلو صوتُ الروح في الأرض إلَّا بإعلاء صوت الحقِّ والانتصار له، فكان انتصارُ معلِّم البشرية وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ للحقِّ في معركتي بدر وأحد ومعارك أخرى، واقتدى صحابتُه وتابعوهم بمثل هذا، فكانت معاركُ الإسلام الكبرى في هذا الشهر الفضيل، وهل تكتمل معاني الصيام لتحقيق المفهوم الشامل للعبادة إلّا بمثل هذا؟".

يمرُّ رمضان وراءَ رمضان ولا نكاد نرى تغيرًا جذريًّا في الفرد المسلم أو المجتمعات الإسلامية قبل وبعد رمضان، ولا نرى

تطبيقًا فعليًّا لدروس الصيام على الحياة من العمل الجادِّ والصبر والتقوى.. ولكنّ لسان حالنا يعلنُ ما يلي:

تصوم البطون ولا تصوم الجوارح.

صبرٌ على الجوع والعطش، وعجزٌ عن الصبر في نصرة الحق والدفاع عنه ومصارعة الظلم.

تسارعٌ وتنافس على الصفوف الأولى في صلوات القيام، وتقاعسٌ عن التسارع والتنافس على مقدمة الصفوف العاملة لعمارة الأرض وإعلاء كلمة لا إله إلا الله في كلّ مجالات الحياة، كلّ على حسب نطاق عمله.

الحرصُ على الاستواء في الصفوف والتراصِّ للصلاة ومحاذاة الكتف بالكتف والقدم بالقدم، وعجزٌ عن تفعيل روح هذا الدرس الشعائري على أرض الواقع لتحقيق وصفِ الرسول الكريم لعلاقة المسلم بأخيه: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا"(36).

الحرصُ على صحة ودقة الالتزام بوقت الإفطار والإمساك ودخول أوقات الصلوات، وعجزٌ في تطبيق ذلك في باقي الأعمال، فالوقت لا قيمة له عند كثيرين.

وغيره كثيرٌ وكثير من صور الطَّلاق التامّ بين شعيرة الصيام وآثارها ودلالات تحقيق مبتغاها في واقع حياتنا العملية.

نسأل الله أن يمدَّنا بالصبر حتَّى نحقق هدفَ الصوم فنكون من المتقين.

---

(39) سورة البقرة: 183.

(38) رواه البخاري، رقم "1904". ومسلم، رقم "1151". والنسائي، "4/ 163و164"؛ من حديث أبي هريرة.

(37) انظر كتابنا: نقوش في جدار الوعي.

(36) رواه أبو هريرة وأبو موسى الأشعري، صحيح الترمذي برقم 1928.

إنَّ الشَّقي مَن حُرم

رمضان هو شهرُ الرحمة، هكذا علمنا رسولُ الله بقوله: "إذا دخل رمضان فُتحت أبوابُ الرحمة وغُلّقت أبواب جهنم وسُلسلت الشياطين"(49).. رحمةُ الله لعباده في هذا الشهر الفضيل لا طريقَ لها إلَّا تلك الرحمة التي نتراحم بها فيما بيننا.. "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"(48).

فالصيامُ يُعلمنا التراحم، وتلك هي فلسفةُ الصوم كما نفهمها، وكما فهمَها، وفصّل فيها مصطفى صادق الرافعي رحمة الله عليه حيث يقول عن صوم رمضان(47): "فقرٌ إجباري يُراد به إشعارُ النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كلّ الوضوح؛ أنَّ الحياة الصحيحة وراءَ الحياة لا فيها، وإنها إنَّما تكون على أتمِّها حين يتساوى الناس في الشعور لا حينَ يختلفون، وحين يتعاطفونَ بإحساس الألم الواحد، لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة،... وبهذا يضع الإنسانيةَ كلها في حالةٍ نفسية واحدة تتلبَّس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوتَ الروح يعلِّم الرحمة ويدعو لها،... ومن قواعد النفس أنَّ الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السرِّ الاجتماعي العظيم في الصوم، إذْ يبالغ أشدَّ المبالغة ويدقق كلّ التدقيق في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدةً آخرها آخرُ الطاقة، فهذه طريقةٌ عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث، فهمَا طريقتان كما ترى: مبصرة وعمياء، وخاصَّة وعامَّة، وعلى نظام وعلى فجأة".

هذه الرحمةُ التي تجسَّدت في حديث رسول الله عن الثلاثة(46) الذين حُبسوا بصخرة في الغار، وقالوا إنّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلّا أنْ تدعوا الله بصالح أعمالكم.

فذكر الأولُ حاله مع والديه، وكيف أنه لبثَ والقدحُ بين يديه ينتظر استيقاظَ والديه حتَّى برق الفجر واستيقظا فشربَا غبوقَهما، ودعا اللهَ بنيَّة ذلك العمل.. اللهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة شيئًا..

وذكر الثاني حالَه مع ابنة عمّه التي كانت أحبَّ الناس إليه، وأرادها لنفسه فامتنعتْ حتَّى أَلَمَّت بها سنةٌ من السنين فأعطاها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بينها وبين نفسه، ففعلت، حتَّى إذا قدرَ عليها قالت: لا أحلُّ لك أن تفضَّ الخاتم إلّا بحقه، فتحرّج من الوقوع عليها وانصرفَ عنها وهي أحبُّ الناس إليه، وترك الذهب الذي أعطاها.. فدعا الله بنيَّة ذلك العمل.. اللهمَّ إنْ كنت فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج.

وذكرَ الثالثُ قصته معَ أجير له ترك الذي له وذهبَ، فثمّر أجره حتَّى كثرت منه الأموال، فجاء بعد حين قائلًا: يا عبد الله، أدَّ إلي أجري. فقال له: كلّ ما ترى من أجرك مِن الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال له: يا عبد الله، لا تستهزئ بي. فأجابه: إنّي لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه ولم يتركْ منه شيئًا. فدعا الله بنيَّة ذلك العمل قائلًا: اللهمّ إنْ كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة، وخرجوا يمشون".

وصدقَ الرافعي بقوله: "هذا هو النبيُّ يتكلم في الإنسانية وحقوقها بكلامٍ بيّن صريح لا فلسفة فيه يجعل ما بين الانسان والإنسان من النيَّة (اللهم إنْ كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك) هو ما بين الإنسان وربه من الدين"(45).

وها هو الحديثُ يقرر أنَّ الحقيقة الإنسانية العالية لن تكونَ فيما ينال الإنسان من لذته، ولا فيما ينجح من أغراضه، ولا

فيما يقنعه من منطقه، ولا فيما يلوح من خياله، ولا فيما ينتظم من قوانينه، بل هو السموُّ على هذه الحقائق الكائنة كلها، وهي الرحمةُ التي تغلب على الأثرة، فيسمّيها الناس برًّا (قصة الرجل مع والديه) والرحمة التي تغلب على الشهوة فيسمّيها الناس عفة (قصّة الرجل المحبِّ لابنة عمه) والرحمة التي تغلب على الطمع فيسمّيها الناس أمانة (قصة التاجر مع أجيره)".

وصدقَ الرافعي بقوله: "إنَّ الحديث كالنصِّ على أن هذه الرحمةَ في النفس هي الدينُ عند الله لا يصلح دين بغيرها، ولا يقبل اللهُ صرفًا ولا عدلًا من نفسٍ تخلو منها"(44).

•إنَّ هذه هذه الرحمة التي ينشئها الصومُ هي دليلُ نجاحه، وهي التي نريد أن نراها في هذا الشهر العظيم.

•رحمة بأنفسنا.. يقول النبي ﷺ: "لَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ"(43) إذًا فرحمةُ الناس رحمةٌ بأنفسنا؛ لأنَّنا بها نستحقُّ رحمة الله.

•رحمة بأسَرِنا.. بأزواجنا.. وأولادنا.. أليسوا أحقَّ الناس بها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(42) فلنتعهد هذه الرحمة هذا الشهر في بيوتنا ولنجعلها شعار هذا الشهر الكريم.

•رحمة في تعاملنا مع الناس.. مساعدتهم في قضاء حوائجهم، يتمثلها ويتعهدها كلّ مَن ترفع إليهم حوائج الناس سواء كانوا أطباءً أو تجارًا أو موظفين، يسهلون على الناس في رمضان ولا يعسرون، فقد جاء في الأثر "مَن قاد ضريرًا إلى المسجد أو إلى منزله أو إلى حاجة من حوائجه كتب الله له بكلِّ قدم رفعها أو وضعها عتق رقبة ولم يزلْ يخوض في الرحمة حتَّى يرجع، ومَن قام على مريض يومًا وليلة بعثه اللهُ مع خليله إبراهيم حتَّى يجوز على

الصِّراط كالبرق اللامع، ومَن سعى لمكروبٍ في حاجة خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه".

•رحمة لكلِّ مَن ولي أمرًا بمَن هُم في ولايته، ولكلِّ ذي سلطان لمَن هم تحت سلطانه، روى البيهقي عن ابن عمر "مَن كان وصلةً لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في مبلغ برٍّ أو تيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام"(41).

وعنْ عبادة بن الصامت أنَّ رسول الله ﷺ قال: "أتاكم شهر رمضان شهر بركة، فيه خير يغشّيكم الله، فيُنزل فيه الرحمةَ، ويَحُطُّ فيه الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، وينظر الله فيه إلى تنافسكم، ويباهي بكم ملائكته، فأروا اللهَ من أنفسكم خيرًا؛ فإن الشَّقِيّ من حُرم فيه رحمة الله"(40).

إنَّ هذا شهر رمضان.. شهر الرحمة.. وهذه بعضُ نفحاته.. فلنُرِ الله من أنفسنا خيرًا.

---

(49) رواه أبو هريرة، صحيح مسلم، برقم 1079.

(48) جزء من حديث، رواه عبد الله بن عمرو، صحيح الترمذي برقم 1924.

(47) مقال "شهر للثورة فلسفة الصيام"، وحي القلم، ج 2، 57: 58.

(46) الحديث بتمامه رواه عبد الله بن عمر، صحيح البخاري، برقم 3465.

(45) مقال السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية، وحي القلم، ج 3، ص 9.

(44) مرجع سابق، ص 10.

(43) رواه جرير بن عبد الله، صحيح البخاري، برقم 7376، وصححه الألباني

في الأدب المفرد برقم 71.

(42) سورة الروم: 21.

(41) رواه عبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين، وضعفه الألباني.

(40) رواه أبو هريرة، الترغيب والترهيب، وإسناده ضعيف.

ربُّ النَّهار والليل

استوحيتُ عنوان مقالي هذا، وبعضَ الأفكار فيه، من خطبةٍ لأحدِ الشيوخ الأفاضل الذي اعتادَ أنْ يُعيننا على أن نرى الأشياء كما لم نرها من قبل، يُعرِّيها من ثيابها المزيفة التي أُلْبِسَتْها وتبلدت أحاسيسنا تجاهها.

عندما ننظر للتناقض البيِّن بينَ نهار ومساء بعض المسلمين في رمضان فإنه لا يسعنا إلَّا أن نتعجب. أوهذا يقدِّم لربٍّ واحد؟!..

أصبح النهارُ وقتَ الامتناع عن كلّ شيء فعَّال، بل أصبح وقتَ الراحة والنوم والعمل الخفيف، وأصبح الليل وقتَ إشباع الرغبات والانغماس في أطايب الطعام والشراب، وأنواع المسليات التي تتميز بل وتنفرد بها ليالي رمضان.

يعرف أصحابُ الدعايات والإعلانات، وينصحون أصحابَ الأعمال الجادة البناءة أن لا يعلنوا في رمضان، فكلُّ شيء يذوب ويميع بين إعلانات السلع الاستهلاكية من أكلٍ وشرب وتسلية، فإنْ كنت في مجال التعليم أو الصحة أو الصناعة أو غيرها من الأعمال البناءة فإنك حتمًا ستذوبُ وتميع إنْ تجرأت وحاولت إيصالَ معلومة تخاطب شيئًا غيرَ تلبية وإشباع الملذات والسلع الاستهلاكية.

إذا كانت الشياطين مصفَّدة في رمضان.. فمن أين تأتي الشياطين؟

أم هي نفوسُنا التي جُبلت على الانغماس في الملذات؟

وكلُّه يعود إلى فلسفةِ العلاقة مع الشيطان.. هل هي علاقة مُدافعة أم مُراغمة؟! الله سبحانه وتعالى يريدها منا علاقةً مُراغمة.. أن نغزو الشيطانَ في عُقر داره.. أن نُذله، وهذه أحبُّ العبادات

إلى الله.. أن نتخذ الشيطانَ عدوًّا ﴿فاتخذوه عدوًّا﴾ (50) نحاربه ونغزوه ونحقق عليه الانتصارات في هذا الشهر الفضيل.

وكيف يكون ذلك وقد أصبح الشهرُ شهرَ الانغماس في النعم والملذات، فهو شهرُ الحوافز التسويقية، وشهر الاستهلاك اللامُرشَّد، وشهرُ عقود السبق والمسابقات التي أصبحت أشبهَ ما تكون باليانصيب، وتفاهة التسالي بعد الإفطار وبعدَ الصلاة، وكلُّها أنواع من التسالي التي لا تغيِّر مسار مجتمع ولا تصحِّح وجهته، وهذا مخالف لروح الشهر وغايته ومقصده الذي من أجله فُرض.

ضاعت سمةُ الجهاد والجديَّة، وهذا يُفرح الشيطان في أصفاده.

لَمْ يصبح الهمُّ هو كيف نغير السلوكَ في هذا الشهر بالانكباب على دراسة سننِ الله في التغيير وتفعيل آليات التغيير المناسبة لذلك، وإنما أصبح الهمُّ هو التسابقَ على كلّ صور الماديات.

وانتشرَ ما يمكن أن نطلق عليه "الفوضى الإصلاحية" في كلّ المجالات.

فنجد مَن كلّ همه أن يختمَ القرآن كلّ 3 أيام دون أن يكون للتدبرِ والتأمل في القرآن وتفسيره أو العمل به؛ رصيد.. فقط قراءة سطحية.

كَلٌّ مِهني.. وسبات نهاري.. وضجيج سمعي.. وتكالب على الملذات.. واختلال التوازن في الأداء العبادي.. وانشغال عن الثغور الحياتية.. وضياع سمة الجدية واستبدالها بالسمة الدعائية للسلع الاستهلاكية.

أوهكذا انتهى حالنا مع رمضان؟!

(50) سورة فاطر: 6.

اتَّخذي.. ثمَّ كُلي.. فاسْلكي

إنَّنا نتجرَّعُ سمومَ خروجنا عن النهج الإلهي.. بل نتسوَّغه ونُشْرَبُ في قلوبنا أمراضًا هي نتاج هذا الخروج.

علَّمني أستاذي ومعلمي تفسيرَ آية من كتاب الله سمعتها منه على مدى سنوات، ولكنَّ المعنى لم يكن ليأخذ بُعدَه المقصودَ منه في فهمي وإدراكي، ويستقرُّ في أعماق نفسي حتَّى كنتُ أنا نتاج تجربة خاصَّة جعلتني أقف أمام تفسيرِ الآية وقفةَ إجلال وتدبر وإدراك، واستشعار لحكمة الله في ضرب المثل من تلك الآية.

عندما كنَّا نتدارس في مسجد مدينة بوسطن، كان شيخُنا آنذاك يفسِّر لنا سورة النحل، وكان يحثنا كعادتِه أن نستشعر الآيات، وأن نحاولَ أن نقرأ ما وراءها من حِكم وعبر حتَّى وصلنا إلى قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ (55).

والآياتُ فيها دعوةٌ للإنسان أن يعتبرَ من سنة الله في النحل، فالنحلُ بادئ ذي بدء، استجابَ للوحي الإلهي ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ فأخذَ بالأسباب "أن اتَّخذي.. ثمَّ كُلي.. فاسْلكي" فمنها مَن اجتهد وأخذ بأصعبها وأعلاها قدرًا فلم يرضَ إلَّا أن يَتخذ من الجبال بيوتًا بالرغم من بُعدها ومشقة الوصول إليها، فخرج منه أجودُ أنواع العسل وأغلاه وأكثره صفاءً وشفاءً، ومنها مَن اتَّخذ من الشجر بيوتًا، ومنها مَن رضي بما دون ذلك مما يعرش الإنسان من الكروم وغيرها، فجاء العطاءُ الرباني سنة لا تحتاج لأمرٍ رباني خاصٍّ بها، فالأمر قد ضُمِّن في السنة الكونية الربانية، فلم تقلِ

الآية: "فأخرجي من بطُونك شرابًا" بالرغم من أنَّ سياق الآية يدعو إلى ذلك، ولكن الله يؤكد هنا المعنى بقوله سبحانه وتعالى "يَخْرُجُ من بطونها شراب". فهي نتيجة حتمية ضمنها الله بضمانه سبحانه بثبات سننه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (54).

أمّا الشراب الذي يخرج نتاجَ اتّباع الوحي والأخذ بالأسباب الربانية فهو مختلفُ الألوان فيه شفاء للناس، حيث تمت عمليةُ طهي ربانية داخلَ هذه النحلة في المعمل الإلهي جعلتْ من هذا الرحيق شهدًا مُصفًّى فيه شفاء للناس. وفي اختلاف ألوان الشراب وصفائه واختلافِ قدر ما فيه من الشِّفاء إشارة ربانية لطيفة، فعلى قدْر تنوع الثمرات التي يتذوَّق منها النحلُ، والسعي الحثيث لاختيار أفضلها؛ يكون تنوعُ ألوان الشراب الذي يخرج منها وما فيه من شفاء، وفي ذلك مجازاتٌ ربانية لجهد وعمل النحل، وعلى قدْر الاجتهاد في أخذ الأسباب الربّانية والمثابرة وتنوع الجهد والمشقة يكون الجزاء، وتكون العطاءات الربانية.

وكذلك حالُ الإنسان إذا ما تبع الوحي الرباني كمنهجِ حياة خالص ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وأخذ بالأسباب التي أمرَه اللهُ بها، وثابر واجتهد "اتَّخذي.. ثمَّ كلي.. فاسْلكي" وكانت نفسه طموحةً كالنحل الذي اتَّخذ من الجبال بيوتًا وإلّا فبالشجر ومما يعرشون.

فكانت نفسُه تتوق للعلا، فأخذَ من الأسباب ما هو أعلى قدرًا، فجرتْ فيه سنة الله نخرج منه شفاء للناس، فكلامه شفاء، وعمله شفاء، وأجرى اللهُ على يديه من الخير والشفاء صورًا وألوانًا تذهل عباد الله.

أمّا ذاك الذي لا يستجيب للوحي الإلهي، ولا يلتزم بأمر الله في الأخْذ بأسبابه الربانية المشروعة، فلن يخرج منه إلَّا حصادُ

الانحراف عن السنة الكونية الربانية، سمومٌ يُفسِد بها ويحسب أنَّه مُصلح، فيكون ممَّن قال المولى فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (53). ومازال يسعى في هذه الدنيا على هواه بعيدًا عن الوحي الإلهي والأخذ بالأسباب الربانية وهوَ يحسب أنه يحسن صُنعًا حتَّى يكون ممَّن قال المولى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾ (52). وينهي سبحانه الآياتِ بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (51) وفي هذا دعوةٌ لاستنباط ما وراء الآية من حكمٍ بليغة وعبر قيمة، وكيف لا يكون ذلك، وقد سمّيت السورةُ بأكملها "النحل" وفيها 128 آية لم يذكر النحلُ فيها إلَّا مرة واحدة، وفي آية واحدة!

ما من أمةٍ من البشر أو "النحل" تلتزم بنهْج الله عزَّ وجل، لا تنحرف عنه بجهل ولا هوى "فاسلكي" ولا تقصر دونه بكسلٍ أو تواكل "اتخذي"، ولا تزيد فيه بغلوٍّ وإفراط "ثمَّ كلي"؛ إلّا "خرج" من تجربتها هذه نموذجٌ فريد فيه "شفاء" للإنسانية في "مختلف ألوانه" ونشاطاتها العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بل وحياتها كلها.

إننا ندفع ثمنَ انحرافنا عن الوحي الإلهي وتوانينا في الأخذِ بالأسباب الربانية، سمومًا تنفثُ في قلوبنا وتنعكس على علاقاتنا ببعضنا بعضًا، فيمرض الفردُ والأسرة والمجتمع والأمة وتفسد الأرض.. وهل ما نعايشه ونراه في أيامنا هذه من مشارق الأرض إلى مغاربها إلَّا تجسيدٌ لهذا الانحراف، وتأكيدُ هذا الخروج عن المنهج الرباني؟!..

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ صدق الله العظيم.

(55) سورة النحل: 69 68.

(54) سورة الأحزاب، من الآية 62.

(53) سورة البقرة: 11.

(52) سورة الكهف: 103-104.

(51) سورة النحل: 169.

سموُّ الفقرِ لدى المعلِّم القدْوة

لكلٍّ منّا شاء أم أبى مثلٌ أعلى يقتدي به. وهذا المثلُ أو هذه القدوة تعمل في النفس أعمالها في الوعي واللاوعي ليصبح الإنسان مُنصَاعًا لهذه القدوة يتلمَّس خُطاها في كلّ أعماله وتصرُّفاته. وتصبح رؤيتُه وقراءته لهذه القدوة هي المرآة التي يُقيِّم نفسَه من خلالها. وقد يكون للشخص أكثرُ من قدوة في أكثر من مجال من مجالات الحياة فتصبح له مرآة لكلِّ جانبٍ من جوانب حياته يُقيم بها نفسَه، ويبني بذلك ما يسمَّى في علم النفس (Self Image) أو "كيفية رؤية الذات".

وعندما تتعدَّد القدوات في الشخص نفسه دون أن يكون هناك رابطٌ أو تناغم أو انسجام وتكامل بين هذه القدوات يصبح الشخصُ كالذي فيه أشخاص عدَّة متشاكسون متضاربون، وينعكسُ ذلك على شخصه، ويصبح كالذي ضُرب لنا مثلًا في القرآن من سورة الزمرَّ في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٩ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ (56). ولم يترك الله عباده يتخبطون في اختيارِ قدوتهم فأرسل آخرَ الأنبياء يحمل آخرَ الرسالات السماوية للأرض وجعله إمامًا لمَن سبقه من الأنبياء، وتجسَّدت هذه الإمامة في قصة الإسراء والمعراج في صلاته ﷺ بالأنبياء جميعًا، كما تجسَّدت الإمامةُ كذلك في اصطفائه للشفاعه يوم القيامة.

وقد جعل اللهُ أنبياءه بشرًا، فهذا الشرع لا يحيا إلَّا أن يختلطَ بلحم ودم، ويمشي على الأرض، ومشى الشرعُ على الأرض فترةً من الزمن، وتجسَّد في أكمل صُوَرِهِ في شخص قدوتنا سيدنا محمد ﷺ ليسجَّل هذا التاريخ ويُحفَظ بأدقِّ تفاصيله، ويصبح مرجعية وقدوة ومثلًا لمَن أراد أن يهتدي بهدي السماء، ومات جسد

سيدنا محمد ﷺ لتجري فيه سنة الله في خلقه، وجاءت الآيةُ التي تليها لتؤكد هذه السنة في قوله تعالى ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ وذلك أوقع لتحقيق الهدف والغاية من بعثته ﷺ، وهو أن يكون قدوة لبني الإنسان، فلا بدَّ أن يشترك معهم في خصائص البشرية حتَّى لا يُنظر إليه بغير صورة القدوة التي يجب أن تحتذى، والمثل الأعلى لكلِّ إنسان منذ بعثته إلى قيام الساعة.

ومِن أعظم الدروس التي تركها لنا صلواتُ الله وسلامه عليه نظرتُه للمال الذي هو عصب الحياة، وقد كان أجمل ما قرأتُ في ذلك مقالين للكاتب الإسلامي العظيم مصطفى صادق الرافعي بعنوان "سموُّ الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم" وممّا كتب في المقال ما يلي:

"كان النبيُّ ﷺ على ما يصفُ التاريخ من الفقر والقلَّة، ولكنه كان بطبيعته فوقَ الاستغناء، فهو فقيرٌ لا يجوز أن يوصَف بالفقر، ولا تناله المعاني النفسيةُ التي تعلو بعَرض من الدنيا وتنزلُ بعرض، ولا استقرَّ في قلبه العظيم ما يجعلُ للدينار معنى الدينار، ولا للدرهم معنى الدرهم، قالت عائشة رضى الله عنها: لم يمتلئ جوفُ النبي ﷺ شبعًا قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهَّاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقَوْه شَربِ. وعنها: كنّا آل محمد نمكث شهرًا ما نستوقد بنار، إن هو إلّا التمر والماء. وقالت: ما رَفع رسول الله ﷺ قَط غداء لعَشاء، ولا عَشاء لغداء، ولا اتَّخذ من شيء زَوجين، لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال. وقالت: توفي رسولُ الله ﷺ ودرْعُه مرهونة عندَ يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير. هذا هو سيدُ الأمة، وكأنما أشرق صفاءُ نفسه على تراب الأرض فردَّه أشعة نور، على حين يُلقي الناس على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يبْقى ترابًا بل يرجعُ ظلامًا، وأنَّه لم يجعل

نفسَه في همّ المال، ولا جعلته نفسهُ في همِّ الفقر، وأنه لقي الحياة حاملًا لا محمولًا، واستقر فيها هادئًا لا مضطربًا كلّ ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خُلق وبُعث وعاش ليكون درسًا عمليًّا في حلِّ المشكلات الاجتماعية، يعلِّم الناسَ أنها لا تتعقَّد بطبيعتها، ولكن بطبائعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوتها، ولكن بإمدادِ قواهم لها، ولا تَغْلبُ بصَوْلتها، ولكنْ بجزعهم منها، ولا تُعْضل من ذات نفسها، ولكن مِن سوء أثرهم عليها، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها. ولقد كان ﷺ يملك المالَ ويَجدهُ، وكان أجودَ به من الريح المرسَلة، ولكنه لا يدعُه يتناسل عنده، ولا يتركه يُنبتُ في عمله، وإنما كان عملُه ترجمةً لإحساسه الروحي، فهو رسولٌ تعليمي، قلبُه العظيمُ في القوانين الكثيرة من واجباته، وهو يريد إثباتَ وحدة الإنسانية، وأنَّ هذا الإنسان مع المادة الصامتة العمياء مادة مفكرةٌ مُمَيِّزة، وأن الدين قوةٌ روحية يلقى بها المؤمن أحوالَ الحياة فلا يثبت بإزائها شيء على شيئيَّته، إذ الروح خلود وبقاء، والمادة فناء وتحوُّل، ومن ثمَّ تخضع الحوادثُ للروحِ المؤمنة وتتغيَّر معها، فإن لم تخضَع لم تُخْضعْها، وإن لم تتغير الروحُ بها، وأساسُ الإيمان أنَّ ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرَّف بما لا ينتهي".

إنَّ معايير تقدير الإنسان إنما تكون على قدْر اقترابها من القدوة المنشودة. ومَن كان دينه الإسلامَ، ونبيُّه محمدًا ﷺ، فقدوته هو ذاك النبي الذي نراه حيًّا في سيرته عندما تجسد الشرع السماوي فيه، واختلط بلحمه ودمه فدبَّت فيه الحياة، ومشى على الأرض يعْمرها كما يحبُّ الله أن تعمر، ويحييها الحياة الطيبة.

أمّا الذين يُمجِّدون لغير ذلك فيتحكَّم فيهم ما ينتهي بما لا ينتهي، وتستعبدهم المادة وتملكهم أرصدتهم في البنوك، وتفقر أرواحهم بقدر تناسلِ المال في أرصدتهم وتكاثره، وهُم لا يبالون مِن أين اكتسبوها ولا كيف أنفقوها.. هؤلاء يموتُ الواحد منهم ولا

يدري أقربَ الأقربين منه كم من أرصدة المال مَلكْ، ولا في أي البنوك حول العالم وضعت، ويموتُ معه حقُّ التصرف في المال ليذهب إلى أيدٍ لا يعلم إلَّا اللهُ كيف تستخدمها، وتبقى هذه الأموال أمانة في أعناق هؤلاء الأموات يُسألون عنها يومَ القيامة لتصبح عليهم حسراتٍ وندمًا حين لا ينفع مالٌ ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلبٍ سليم.

---

(56) سورة الزمر 30-29.

كيف نصنعُ الحياة؟!

لقد سمعت أولَ ما سمعت عنْ هذا المصطلح "صناعة الحياة" قبلَ عقود، إذْ وقع بين يدي كتابٌ للشيخ العراقي والفقيهِ الإسلامي الكبير محمد أحمد راشد، بعنوان "صناعة الحياة"، وكان له ومازال أكبرُ الأثر فيَّ، وفي كثير من صناع الحياة.

يقول الشيخ عنْ نظرية صناعة الحياة: "و "نظرية صناعة الحياة" دعوةٌ لمراجعة الرصيد، والجري مع الفهم الجديد الذي بدأنا نفهمُ به العلاقات الحيوية، وعوامل التأثير فيها، وكيفية تقلبها في مجاريها ومساريها، وهي استثمارٌ لحقائق عملية تعلَّمناها من بعدِ جهل، واستعمال لمَفادِ أسرارٍ اكتشفناها عبرَ انفتاح اجتماعي عالمي طرأ على سلوكنا من بعْد عزلةٍ حجبتنا، كما أنها نتائجُ لمقدِّمات غرستها الطريقةُ المنهجية التي ارتضيناها، والتي أحيينا بها سمتًا توصلَ له كبارُ علماء السلف من أمتنا وقادة السياسة فيها لم نكنْ نحيط بمعناه يومَ كانَ نهلُنا من مدوَّناتهم وسِيرَتهم هامشيًّا، ثمَّ انجلى لنا معَ التعمق وطول اللبث معَ كلامهم والتأمل في أفعالهم، وازداد وضوحًا باقتباسٍ من المنهجية العملية التي توجه التطور المدني العالمي الحالي".

ويقول: "وما يزال الدعاةُ بخير ما أذعنوا للمنطق، ودفعهم الاجتهادُ الحرُّ إلى السير في دروب الإبداع والتنويع".

ويقول: "وأولُ مكوِّنات نظرية صناعة الحياة إنما تشيرُ لها ظاهرة الوحدة والتناسق والتماثل في سلوكيات المخلوقات وعلاقاتها. وهذه الظاهرةُ الحيوية تتجلى في صورٍ كثيرة: بعضها مكشوف لكل ذي عينين يراه واضحًا في سلوك النبات والحيوان، وبعضها لا ينكشف إلّا لذي علم أو ذي آلةٍ ومختبر. ويليق للداعية هنا أن يصبر قليلًا على جولتنا معه في الرحاب العلمية ليقرأ في سطور التخليق أحرف

التخطيط.

ومِن أبرز ما تظهره هذه السلوكياتُ المتماثلة: ظاهرةٌ متفرعة منها يمكنني أن أسمّيها: "ظاهرة الولاء"، أو: التبعية أو: الانتساب، أو: التلازم، أو ما قاربَ هذه الألفاظ. وخلاصتُها: دوران بعض الخلق في فلك خلقٍ آخر مصطفًى وأقوى منه، بحيث يكون هذا الأقوى مركزًا للدوران، ومحورًا، أو بؤرةً تتجمَّع حولها مخلوقات أخرى، ويكون مؤهَّلًا لأَسر الأضعف وربطه به ومنعه من التفلت والاختيار".

ويقول: "باستثمار الولاء، وبمعرفة دور القَدَر في معركة الحياة والتصدي لقدر الخيرات، وبتحديد المستقبل والسعي الهادف له؛ نصنع الحياة. وكلُّ قضية تتلخَّص في سؤال صيغته: أنا مسلم، فلم لا أكون بؤرة ومحورًا ومركزًا؟ ولمَ لا أستقطب الناسَ حولي؟.. ولمَ لا أكون بين الرَّواحل المذكورين في حديث: الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة؟.." انتهى كلام الشيخ.

إنَّنا في أمسِّ الحاجة لصنَّاع حياة في كلّ مجال من مجالات الحياة، وهؤلاء يحملون عبء حمل الرسالة والدعوة لتصبغَ الحياةُ بالصبغة الربانية التي ما خلق الإنسانُ إلَّا ليبتلى في تحقيق هذه الغاية بالتخيير بين عبادة الله وحده أو عبادة غيره.

وعلى كلّ داعيةٍ إلى الله وصانعٍ من صناع الحياة أن يُعمل فكرَه، ويسخِّر طاقاته ليصنع الحياة في دائرته التي يعمل فيها، وأضربُ مثلًا لذلك في المجال الذي أعرفه ألا وهو الطب: على صنّاع الحياة في هذا المجال أن يعملوا لوضع معايير إسلامية ربانية للرعايةِ الصِّحية، معايير أكثر شمولية من المعايير الدولية للرعاية الصحية حيث إنها تتعامل معَ الإنسان بشمولية كجسدٍ وعقل وروح، وتستند في سعيها هذا إلى ما تعلَّمته من الهدى السماوي

والصبغة الربانية الخيرة بمكوِّنات الإنسان واحتياجاته النفسية والعقلية والروحية، وتأصيل كلّ ذلك، وإسقاطه على الحياة ممارسة وفعلًا لا قولًا، ودراسة تأثير كلّ ذلك على الإنسان وصحَّته والحياة وسلاماتها لتصبح هذه المعايير وهذه التجربة هي الدعوةَ الحية الناطقة التي لا تكذبُ ولا تدحض، ويُشار لهذه المعايير الممارسة والتجربة الإنسانية الناجحة بالبنان، وبهذا يحيا الشرع، وتمشي الدعوة على الأرض كما قال الرافعي: "إنّ هذا الشرع لا يحيا إلَّا أن يختلط بلحم ودم، ويمشي على الأرض".

وحاملوا هذه التبعة والمسئولية العظيمة يسألون أنفسهم كلّ يوم سؤالًا يُخجلهم ويُؤلمهم: "كيف يكون هناك معايير عدَّة دولية عالمية للرعاية الصحية تلهث وراءها المراكزُ الطبية العالمية للحصول على اعتراف منها وشهادتها وتصديقها منها المعايير الأمريكية، والأوروبية والكندية وغيرها؛ ولا يكون هناك معاييرُ إسلامية للرعاية الصحية!؟ كيف لا يكون لآخر أمةٍ تحمل رسالةَ السماء للأرض، وخير أمة أخرجت للناس معاييرُ أبعد، وأعمقُ وأشمل من المعايير الوضعية؟.. وما العذرُ في هذا التخلف؟

وكذلك الحالُ في كلّ مجالٍ من مجالات الحياة يصنعها نفرٌ من عباد الله يحملونَ هذه الراية ويدور في فلكهم مئاتٌ وآلاف مؤلَّفة يصنعونَ الحياة في دوائرهم لتكبر الدوائرُ يومًا بعد يوم، وتلتقي بإذن الله تعالى شيئًا فشيئًا، عندها نصبح خيرَ أمةٍ أخرجت للناس نأمرُ بالمعروف وننهى عن المنكر بتقديم المثال والقدوة الحية الناطقة العاملة، وصناعة أنموذج رباني في كلّ مجال من مجالات الحياة.

لقد أنهى الشيخُ كتابه بوصيةٍ شرعية إلى رعاة الإسلام أجمعين يقول فيها: "أوصيكم بتقوى الله تعالى، وبصناعة الحياة".

كمال أبو المجد..

حوار لا مواجهة (1)

وأخيرًا، وبعدَ مرور عقودٍ عديدة من زمن الكبت وأحادية الفكر، بدأتِ المجتمعات العربية تدرك أهمية الحوار وضرورةَ ضمان حريةِ إبداء الرأي واحترام الإنسان وفكره من أجل تحقيق السلام والرخاء في مجتمعاتها.

وبالرغم من أنَّ كثيرًا من المفكرين ورجالَ القانون وأصحابَ الأقلام الواعية قد نادوا بذلك على مدى عقود مضت، إلَّا أن أصواتهم كانت تضيعُ ولا تكاد تسمَع وسطَ ضجيج العوام وسطوة أصحاب التفرد في الرأي وإلغاء كلّ رأي مخالف. ولقد كان من أهمِّ وأفضل المقالاتِ التي تناولت موضوعَ الحوار عدة مقالات قديمة مازلت أحتفظ بها لأستاذ القانون الدولي الدكتور كمال أبو المجد.. والتي انتقيت من بينها مقالًا بعنوان (أدب الحوار الديني)..

يبدأ الدكتور أبو المجد مقاله بقوله: "في غياب روح الحرية واحترام الإنسان نجد أنَّ قضية أدب الحوار تتخذ أبعادًا خاصَّة حين تتصلُ بالحوار حولَ الدين وقضاياه. ليس أمرًا هينًا على ضمير المسلم المعاصر أن يتأمل فيما يدور حوله مِن حوارٍ حول قضايا الإسلام والمسلمين، فإنَّ هذا الحوار لا يكاد يبدأ جدالًا بالتي هي أحْسن.. حتَّى تتسلل إليه الحدةُ والشدة، وتستولي على بعض أطرافه روحُ الضيق بالمخالفين.. والمسارعة إلى اتِّهامهم في أفكارهم ونيّاتهم، وأخذهم بالشبهة وسوءِ الظن، واستثارتهم باللفظ الجارح والعبارة القاسية.. فيترك بعضهم ساحة الحوار إيثارًا للسلامة، وضنًّا بالسمعة والكرامة.. ويختار بعضُهم أن يدفعَ السيئة، فيردُّ على الصيحة بأعلى منها ويتلقى التهمةَ فيوجِّه مثلها أو

أشد، ويتخيَّر في ذلك كله أشدَّ التهم إيلامًا.. وأكثر العبارات جرحًا للكرامة.. وإيغارًا للصدر.. وزراية بالخصم عند جمهوره.. ثمَّ لا تلبث "القضايا" و "الهموم" التي بدأ الحوار حين بدأ بقصد خدمتها والاهتداء إلى الرشد والصواب في شأنها؛ أن تضيعَ وسط الصيحات العالية.. والاتهامات المتبادلة.. ولا يبقى في الساحة إلَّا خصومٌ يتبارزون ويتناطحون.. غاية كلّ منهم أن "ينتصر" على خَصْمِه.. وأن تخلو الساحة من كلّ أحد سواه، ومن كلّ رأي سوى رأيه. وفي مبارزات "الأقلام" و "الإعلام" تُستباح الحقيقة: بُزيَّف الواقع، وتنتهك الكرامة، ويُرجم أصحابُ الرأي المخالف".

ثمَّ ينتقل المقال ليعالج تصورًا سائدًا عند الكثيرين، ألا وهو أنَّ الحقيقة لها وجهٌ واحد.. يقول الدكتور أبو المجد: "وفي مجال الدين وقضاياه تصورَ كثيرٌ من الناس أنَّ الحقيقة لا يمكن أن تتعدَّد وجوهُها، لأن الحَقَّ (واحد) لا يتعدَّد، ولأنَّ الصراط المستقيم واحد.. والسبل المعوجَّة هي التي تتعدد.. ويردِّدون في هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ..﴾ (59) وقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ﴾ (58) كما يتعلقون بالأحاديث النبوية التي تتحدث عن الفرقة "الناجية" وهي فرقة واحدة، ومن ورائها اثنتان وسبعون فرقة هالكة.. ومن شأن التفسير الحرفي لهذه النصوص، وعزلها عن سياقها المقصود؛ أن تُضيق في نظر أطراف الحوار دائرة ما يجوز فيه النظرُ والاجتهاد.. والتأملُ الهادئ والتأني في هذه النصوص، والجمع بينها وبين نصوص أخرى عديدة تحثُّ على النظر، وتدعو إلى الاجتهاد في البحث طلبًا للحق والصواب.. كلّ ذلك يؤدي إلى موقفٍ مختلف تمامًا.. يتَّسع فيه صدرُ (الإسلام) لاختلاف الآراء.. ولا يضيق عن الاجتهاد ولو انتهى صاحبه إلى الخطأ ومجانبة الصواب. وإنَّ أطراف الحوار

حول قضايا الإسلام والمسلمين جديرون جميعًا بأن يذكروا أن وحدة (الحقيقة) لا تنفي تعددَ زواياها، واختلاف العقول في تفسيرها.. ولو استقام ما يتوهمونه من ضرورة (إجماع) الناس واتّفاقهم على فهْم واحد؛ لما نشأت بين المسلمين علوم التفسير والكلام (أصول الدين والعقائد) وأصول الفقه.. ولما سجَّل التاريخ اختلافَ التابعين وتابعي التابعين والأئمة أصحاب المذاهب من بعدهم..".

ثمَّ يتطرق المقالُ إلى معالجة ظاهرة (غياب المنهج النقدي) و(الحوار الموضوعي) حولَ كثير من قضايا الأمة، يقول: "إنَّ المبالغة الهائلة في التخويف من تفسير القرآن الكريم، ومن التصدي لتمحيص أسانيد بعض الأحاديث، فضلًا عن تفسير نُصُوصها.. ومن محاولة التجديد في بعض ما انتهى إليه علماء أصول الفقه؛ كلّ ذلك قد أفضى بأجيالٍ من المسلمين إلى ترك فجواتٍ غير مضيئة في عقل المسلم المعاصر.. ولا يملك أن يطمئنَّ ويستريح مع وجودها، ولا تواتيه الجسارةُ على التصدي لها.. ومن المحاولات التي تستحقُّ التسجيل والتنويه في هذا المقام حرصُ علماء الأصول على التمييز في نصوص القرآن الكريم بينَ النصوص قطعية الدلالة وتلك التي تحتمل التأويلَ واختلاف النظر، وتفرقتهم في أقوال الرسول ﷺ وأفعاله بين ما هو (تشريع) صادر في نطاق قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (57) وما هو اجتهاد يحتمل الصواب والخطأ.

وينتهي المقالُ بعرض صورةٍ من صور الحوارِ الإسلامي بين العلماء في حوارٍ رائع مكتوب حول عديد من قضايا الإسلام تبادله في رسالتين مشهورتين عالمان جليلان هما: إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وإمام مصر وعالمها الكبير الليث بن سعد.. وبالرغم ممّا اشتملت عليه الرسالتان من عرضٍ لآراء ومواقف

مختلفة في أمور عديدة بين هذيْن العالمين الجليلين، فقد جاءتا آيةً مشرقة من آياتِ الحوار العفِّ، الذي نحتاج إلى مثله في أيامنا هذه.

وينهي الدكتور أبو المجد مقاله بقوله: "إنَّنا نسوق هذه النماذج، وغيرها في تراثنا القريب والبعيد كثير، حتَّى يفيء إلى أدبِ الإسلام في الحوار أولئك الذين ينصبون أنفسهم أوصياءَ على عقول الناس وما تخفي صدورهم، يتهمون هذا.. ويفسِّقون ذاك.. ويشيعون بين المسلمين روحَ التردُّد في الاجتهاد والمشاركة بالرأي مخافة أن تناوشهم في الصُّدور والظهور سهامُ أولئك المتربِّصين، لقد ساد بسبب ذلك كله فقهٌ يحاصره الخوفُ من هذا الإرهاب.. جوهرُه التَّشدد، وأساسُه التوسُّع في سدِّ الذرائع، والإفراط الشديد في التحذير من البدع، ومن كلّ فكر جديد أو نظام مجلوب، حتَّى جمدَ المسلمون على الموجود، وتجمد العلماءُ عن الخوض في كثيرٍ مما يحتاج الناس فيه إلى اجتهاد جديد، ولقد ماتَ بسبب ذلك كثيرٌ من الأفكار حبيسة في الصدور.. وتراجعتْ كلمات هداية نافعة بعد أن كانت على أطرافِ اللسان.. وأقفلت بذلك أبوابُ الحوار بالتي هي أحسن.. لتفتح بدلًا منها ساحات صراع وشغب ومبارزة.. ظاهرها الرحمة وباطنُها الضياع والعذاب".

---

(59) سورة الأنعام من الآية 153.

(58) سورة يونس، من الآية 32.

(57) سورة النجم: 3.

كمال أبو المجد..

حوار لا مواجهة (2)

هذا مقالٌ آخر بعنوان "مواجهة مع عناصر الجمود" لأستاذ القانون الدولي الدكتور كمال أبو المجد، ففي مقاله هذا يلقي الكاتبُ نظرة سريعة على أهمِّ التيارات المعاصرة، ثمَّ ينتقل إلى قضايا مهمَّة اخترنا واحدة منها للمناقشة لأهميتها في أيامنا هذه، حيث إنها أحدُ المداخل الرئيسية لانحرافات جماعات عديدة من الشباب.

يقول الكاتب: "إنَّ الإسلام لا يضع أصحابَه في صراعٍ مع الحياة، والمسلم الحقَّ لا يكره الناس والدنيا، ولا يقضي عمرَه في معركة وهمية معَ قواها ونواميسها، وأنَّى له ذلك وهي صنعُ الله الذي أحسن كلّ شيء خلقه ثمَّ هدى، أنى له ذلك وهي دون الآخرة دارُ العمل، وأرضُ الابتلاء.. ثمَّ كيف يكون هذا موقف المسلم فيها وقد أسبغ الله عليه فيها نعمَه ظاهرة وباطنة.. وخلق له ما فيها جميعًا، ثمَّ دعاه إلى تعميرها.. وأحبَّ منه بين ذلك أن يرى أثر نعمته عليه، وعلَّمه أنَّ دعاء المسلمين الصالحين أن يقولوا ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (60) ثمَّ إن هذه الدنيا قبلَ ذلك كله هي أرضُ النبوات، ومهبطُ الرسالات، وطريقُ الأبرار والصالحين والشهداء والصديقين، ثمَّ لماذا والتزامًا بأية شريعة يعيش المسلمُ عمره فيها منغَّصًا معقدًا محزونًا مُعسرًا على نفسه وعلى الناس، تملؤه الشكوك والريب والمخاوف والظنُّ السيئ بالنفس وبالناس، وبالحياة كلها؟.. وأين هذا السمت المريض النكير من سمتِ النبي ﷺ الذي وصفته أمُّ المؤمنين عائشة أنَّه كان إذا خلا بنسائِه أَلْيَنَ الناسِ، وأكرمَ الناسِ، ضَحَّاكًا بَسَّامًا.

وأينَ هذا الموقف العدواني الحاقدُ الذي تضيق به صدورُ كثير

من الشباب من حولنا من مواقف النبي ﷺ الذي كان من دعائه المأثور: "اللهم إنّي أعوذ بك من الهم والحزن".

إنَّ مواقف المسلم من الدنيا قضية هامَّة في أيامنا هذه.. وهي البابُ الأول لما نراه من انحراف جماعات عديدة من الشباب.. فهم يبدؤون بالعزلة، وفي العزلة يلقنون كراهة الحياة، وكراهة الناس.. ويقيمون في أنفسهم حربًا باردة معَ مخالفيهم، وبعيدًا عن نور المعرفة وإشراقات السماحة تصدر الاتهاماتُ السهلة بالتكفير على مخالفيهم.. وقد تتحوَّل الحرب الباردة مع هؤلاء إلى حروبٍ ساخنة.. تنطلق فيها فتنة مدمرة.

إنَّ الموقف النفسي من الحياة هو المدخلُ لهذه المشكلة كلها، وإن كان ينطوي كذلك على عنصر فكري يتمثل في فسادِ التأويل للنصوص، وهو فسادٌ ظهر مثله في صدر الإسلام، ووصفه الإمام الجليل ابنُ القيم بقوله "من سوء فهمِهم للقرآن ظنوا أنَّه يوجب تكفيرَ المسلمين بالذنوب" "ولهذا يجبُ الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا فإنه أولُ بدعة ظهرتْ في الإسلام، فكفر أهلها المسلمين واستحلّوا دماءهم وأموالهم..." ثمَّ يقول: "وسموا دارهم دار هجرة، وجعلوا دارَ المسلمين دارَ كفر وحرب".

ومن العجيب المؤسف أنَّ جماعات من حولنا تجمع مئاتٍ من الشباب على هذه الجهالات المدمرة، وتستخدمهم وقودًا للوْثات في العقول أو أمراضٍ في الصدور، والدولُ الإسلامية تكتفي بأنْ تسلط عليهم أجهزة الأمن والنظام تتعقَّب ثمرات انحرافهم دون أن تعالج الأمرَ من منبعه وأصله بتصحيح الموقفِ النفسي للشباب المسلم من الدنيا التي تحيط به".

إنَّ هذا الموقف النفسي عندَ الشباب يمكن تصحيحُه من زوايا عدة:

•ما تحدَّثنا عنه في مقالنا السابق من الخروجِ من دائرة فقهِ أنصاف الفقهاء وأنصاف العلماء الذين ينصبون أنفسَهم أوصياءَ على عقول الناس، وما تخفي صدورهم، يتَّهمون هذا.. ويفسِّقون ذاك.. ويشيعون بين المسلمين روحَ التردد في الاجتهاد والمشاركة بالرأي، مخافة أن تناوشهم في الصدور والظهور سهامُ أولئك المتربصين، والذي ساد بسببه فقهٌ يحاصره الخوف من هذا الإرهاب.. جوهره التشديد، وأساسه التوسُّع في سدِّ الذرائع، والإفراط الشديد في التحذير من البدع، ومن كلّ فكر جديد أو نظام مجلوب، حتَّى جمد المسلمون على الموجود، وتجمد العلماء عن الخوض في كثير مما يحتاج الناس والشباب فيه إلى اجتهاد جديد، فأقفلت بذلك أبواب الحوار بالتي هي أحسن.. لتفتح بدلًا منها ساحات صراع وشغب ومبارزة.

ولا يتمُّ الخروج من دائرةِ هذا الفقه الذي يحاصره الخوفُ وتصحيح العنصر الفكري عند الشباب من فساد التأويل للنُّصوص ومعالجة موقفهم النَّفسي من الحياة والناس إلّا بأن يفتح الباب على مصراعيه في حوار متكافئ وحرٍّ بين علماء الأمة وفقهائها ودعاتها ومُصلحيها ومفكِّريها فلا يطرد الدعاة ويُهدَّدُوا وتلجم الأفواه وتصادر وتمنع الكتب.. كلّ ذلك بدون وجهِ حق.

•فتحُ باب الحوار الحرِّ مع الشباب أنفسهم وإشراكهم في الرأي، وصنع القرار في الأمور المتعلقة بهم، وتفهُّم احتياجاتهم لتلبيتها وعلاج المشاكل التي تؤثر على فكرهم ونفسيّاتهم سلبيًّا مثل البطالة والفقر والمرض، وليعيش المجتمع همومَهم، ويسعي لتحقيق ما يُعيد لهم كرامتهم من: عمل ومسكن وزوجة وعلاج وتكافؤ في فرص التعليم والعمل، وكلّ ما يعينهم على الأخذ بدوْرهم الفعَّال في البناء والعطاء لأنفسهم ولمجتمعاتهم.

•فتحُ باب الحوار الحرِّ مع الشباب، والمجتمع عامة، لمناقشة

قضايا الأمة الكبرى والدور الذي في وسعنا القيام به في المرحلة الحالية، وإيجاد توجهٍ موحدٍ أو على الأقلّ تفهُّم جيد للتوجهات المطروحة والخيارات المتاحة والظروف المحيطة بالقضايا، ومن هذه القضايا قضيةُ المسجد الأقصى حتَّى لا تترك القضية مبهمةً عند كثير من الشباب فيُخَوَّن من يُخَوِّن، ويكفِّر من يكفِّر، وتمزق المجتمعات من داخلها.

•إعادةُ النّظر في المناهج التعليمية، وإشراك عقول العالم الإسلامي والعربي في تقديم مناهج جديدة تساعد على إخراج جيلٍ قادر على أن يواكبَ هذا العصر "المدهش" الذي نعيش فيه لا كأمة "مندهشة"، ولكنْ كأمَّة نتفاعل مع باقي الأممِ والشعوب، وتنافسها في الخير، وكلّ ما ينفع البشرية، ويعمر الأرض، ويهدي إلى مكارم الأخلاق.

---

(60) سورة البقرة: 201

كمال أبو المجد..

حوار لا مواجهة (3)

نُكمل سلسلةَ مقالاتنا عنِ الحوار، ونتحدّث عن مقال آخر لأستاذ القانون الدولي الدكتور كمال أبو المجد، وعنوانُ المقال (التجديد في الإسلام)، يقول الكاتب: "إنَّ خطرَ الجمود والعقم هو الخطر الأكبر الذي ينبغي أن نبدأ بالتنبيه إليه، وإنَّ تحريك المسلمين عامتهم وعلمائهم إلى خوْض معركة التجديد والاجتهاد وتحمل تبعاتها يحتاج من الشجاعة والصبر إلى أضعافِ ما يحتاج إليه التذكيرُ بالمحاذير. لهذا وإشفاقًا على دعوة التجديد أن تقتلها في مهْدها صيحات التذكير بالمحاذير رأيت أنَّ الدعوة إلى مواجهة عناصر الجمود في الفكر المعاصر لا تكتمل إلّا بأمرين: أوّلُهما: أن نضع المحاذير التي تُذكر كلما ارتفعت دعوة التجديد في إطارها الصحيح، وأن ننبِّه إليها مع المنبِّهين، حتَّى يظلَّ التجديد تجديدًا في فكر المسلمين وتطويرًا له.. لا خروجًا على الإسلام ولا تحريفًا لأحكامه ومبادئه.

الآخر: أن نضعَ أمام القارئ بعد ذلك كفتي الميزان، مؤكدين مرةً أخرى حاجتنا إلى ممارسة الاجتهاد، رغم كلّ المحاذير، وحسبنا أن نتنبَّه جميعًا إليها".

ثمَّ يتطرق الكاتبُ إلى مفهوم التجديد، وأنه ليس دعوةَ تغيير في الإسلام، وهذا هو المعنى الدقيق القائم وراء عبارة الحديث النبوي الشريف في رواية أبي داوود، الذي يقرّر أنَّ الله يبعث لهذه الأمة على كلّ مائة سنة مَن يجدد لها أمرَ دينها. يقول: "فالتجديد إذًا تجديدٌ لأمر الدين ومكانته وسلطانه، وليس تجديدًا للدين نفسه، إن الخيط الرفيع الذي يفصل بين التجديد في الإسلام، وهو ضروريٌّ ولازم، وبين الخروج عن دائرته

والانفلات من أحكامه له جانبه المتصل بالعقل والاجتهاد وحدودهما، والجانب العقلي والفقهي؛ يكمُن في هذه الحدود الدقيقة بين الإلهي والبشري فيما يصل إلينا من تراث الإسلام، ويكمن تبعًا لذلك في الحدود الفاصلة بين الثابت والمتغير فيما ينقل إلينا من ذلك كله".

ثمَّ يتطرق الكاتبُ إلى خمسِ مسائل أساسية يبني عليها محاولة التفرقة بين الاثنين (الثابت والمتغير). نذكرها هنا بإيجاز: المسألة الأولى: التحققُ من قطعية ورود النص أو الدليل الذي يُراد استمداد الحكم منه. المسألة الثانية: تحديد ما يعدُّ تشريعًا وما لا يعدُّ تشريعًا من أقوال النبي ﷺ وأفعاله، يقول الكاتب: "وأساس الحاجة إلى هذا التحديد ما قرَّرناه، وأجمعَ عليه المسلمون، وشهد له القرآنُ الكريم من أن النبي ﷺ (بشر يوحى إليه)، وأنَّ بشريَّته حاضرة في حياته حضورَ نبوَّته، وإنَّ كثيرًا من أقواله وأفعاله قد صدرت عنه بحُكم تلك البشرية دون أن يكون المقصودُ منها التشريعَ وتقرير الأحكام الملزمة للناس من بعده، وقد يصرح النبي ﷺ بأنَّ فعله للتشريع، أو أنَّه من خاصَّة أمره البشري، وقد لا يصرِّح بذلك فيستعين العلماءُ بطبيعة الموضوع الذي وردَ فيه الحديث، وملابساته، وما يحيط به من قرائن".

المسألة الثالثة: تحديدُ ما يمكن أن يتغيَّر من الأحكام لتغيُّر الزمان، وهذا هو أدقُّ أبواب الاجتهاد وأصعبها وأقربها إلى مواطن الزلل، وهذا لا يكون في الأمر الذي فيه نصٌّ قرآني أو نبويٌّ لا يحتمل التأويل، ولكن في الأمور التي تقوم القرينةُ على ارتباطها بواقعة معينة هي سببُ نزوله ووروده، فيفتح الباب عندئذٍ لمناقشة مدى الارتباط بين الحكم وسبب نزوله.

المسألة الرابعة: مدى اعتبار "المصلحة" دليلًا شرعيًا يتمِّم النصوص أو يعارض بعضها. ويطالب الكاتب علماءَ المسلمين

بإطالةِ النظر في المصالح التي تحققها الأحكام؛ لأنَّ المصالح هي غاية التشريع، وهي أساسُ العلة التي يرتبط بها كلّ حكمٍ شرعي، والتي إذا تغيَّرت تغير معها، وهذا هو الفهمُ الرشيد للتشريع الإسلامي في جملته وتفصيله، والذي عناه ابنُ القيم في قوله من أنَّ كلّ مسألة خرجتْ عن العدل إلى الظلم، ومِن القسط إلى الجور، ومِن الرحمة إلى ضدِّها؛ فليست من الشريعة، وإنْ دخلت فيها بالتأويل.

ويسجِّل أستاذ القانون في مقاله هذا وجهةَ نظره في أنَّ أكثر المعاصرين الذين كتبوا عن المصلحة قد غلب عليهم الاحتياطُ الشديد والخوفُ من المحاذير، فربطوها بالنصوص ربطًا شديدًا يكاد يلغي دورَها كمصدر مستقلٍّ من مصادر الأحكام.

المسألة الخامسة: ضوابطُ تفسير النصوص، ويقول الكاتب: "ذلك أنَّ القاضي أو المفتي، والمجتهد بصفة عامة يملك عن طريق التفسير دورًا كبيرًا في تحديد مضمون الأحكام الشرعية المستمدة من أدلتها الجزئية، سواء أعلن ذلك أم لم يعلنْه، وسواء عرفَ ذلك هو أو لم يعرفه.. وكثيرًا ما يكون هذا الباب أوسعَ أبواب التجديد لأنه يلزم أساسًا بالنَّص، ولا يحاول معارضته بدليلٍ آخر، ولكنه يحمله مع ذلك كلّ ما يريد مِمَّا قد لا يكون مقصودًا به أصلًا، أو يختار مِن معانيه المختلفة أكثرها اتفاقًا مع ميله واجتهاده واختياره. ولهذا كان الاهتمام بضبط أصول التفسير وقواعده مدخلًا هامًّا لوضْع الحدود الفاصلة بينَ التفسير الذي تحتمله النصوص، والتأويل الذي يلوي ذراعَ النصوص ويُحمِّلها ما لا تحتمل".

وينهي الكاتبُ مقاله بتأكيد أنَّ من أهمِّ ضمانات الاجتهاد توافرَ شروطه عند مَن يتصدى له، وأنْ لا يكون اجتهادًا فرديًّا ينقض بعضه بعضًا، فيقول: "كما أنَّ الاجتهاد الذي يتمُّ عن طريق تجديد

الفكر الإسلامي لا يمكن أن يظلَّ اجتهادًا فرديًّا ينقض بعضه بعضًا، ومِن هنا وجب تنظيمُ الاجتهاد من خلال مؤسسات يمارس العلماء فيها هذا الاجتهادَ، وبطريقة جماعية منظمة، تيسِّر اطِّلاعهم على مصادر معرفة الحق ومعرفة الواقع على السواء".

إنَّ الحوار الذي أدركت مجتمعاتُنا أهميته في تحقيق السلام والرخاء لا بدَّ أن ينطلق بين كافة فئات المجتمع، وإنني أؤمن بأنَّ أجدى حوارٍ سيكون الحوارَ بين العلماء المسلمين، والذي من خلاله يستطيع العالم الإسلامي أن ينطلق من عصر الجمود إلى عصرِ الاجتهاد الجماعي المنظم من خلال المؤسسات التي تجمع علماء الأمة ومفكريها وعقولها في جميع التخصصات دونَ إهمال أيٍّ من هذه التخصُّصات ليصبح الإسلام جزءًا لا يتجزأ من الحياة، وبذلك يصبح نظامًا للحياة. وهذا ما تطرَّقنا إليه في مقالٍ سابق بأن مِن حق كلّ جيل بل من واجبه أن تكون له تجربة، وأن يثري بها النصوص، ويثريها بالنصوص، غير مقلِّد وهو قادرٌ على الاجتهاد، فإقامة أحكام الإسلام في عصرنا تحتاج إلى اجتهادٍ عقلي كبير، وبدون هذا الاجتهاد يصبح الإسلام منعزلًا عن الدنيا والحياة بعد أن كان نظامًا للحياة، فلا يعتبر المصالح والتي هي غايةُ التشريع فيعارضها عندما لا يكون للمعارضة وجهُ حقٍّ شرعي واضح اللهمَّ إلَّا تفسير الرجال وقراءتهم "الفقه" للجزء الثابت المستمدّ مباشرة من النصوص القطعية، ولا يعتبر تغير الظروف والواقع والزمن فيفرز لنا أحكامًا لا تمتُّ للواقع والزمن والظروف بصلةٍ فيصبح غريبًا غير قابل للتطبيق، ويفرز لنا أجيالًا من الشباب كلما ازدادَ الواحد منهم قربًا من هذا الفقه؛ ازداد انطواءً وتقوقعًا وعزلة وكرهًا للحياة وكرهًا للناس، وهذا ما نراه في أيامنا هذه من انحرافِ جماعات عديدة من الشباب، هذا الانحراف الذي فصلنا فيه في مقالنا السابق، والذي يعكس خللَ الموقف النفسي

وانحرافه وتشويهَه للمسلم من الدنيا ومن الناس.

فصلُ الدِّين عنِ الحياة

إنَّ أعظم ما ابتُليت به أمتُنا في عصرنا هذا فَذَلَّت، هو فصلُ الدين عن الحياة، فنحن أمةٌ أعزَّها الله بالإسلام، ومهما ابتغيْنا العزة في غيره أذلَّنا الله. ويتجسَّد هذا الفصلُ في صورة الملتزم بشعائر الدين التعبدية دون أن يكون لهذه الشعائر رصيدٌ من مصداقية على الواقع، وفي الحياة العملية، فلا تهذب هذه الشعائر فيه خلقًا ولا تروِّض له طبعًا، ولا تجد لها في قوله وعمله روحًا، وكأنَّ لسان حاله يقول "هذا لله وهذا لنفسي" وهو يتلو كتابَ الله، وفيه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (66).

ومِن صور هذا الفصل تهميشُ المسجد واختزالُ دوره في الصلاة وتحفيظ القرآن الكريم. وقد كتبت مقالين في شهر رمضان من فترةٍ ليست بالقريبة تحدَّثت فيهما عن دور المسجدِ في بناء الحضارة، وقد نُشرت المقالتان في كتابي "نقوش في جدار الوعي"، وعدت فيهما إلى المدرسة الأولى؛ مدرسة سيدنا محمد ﷺ، ودور المسجد الأول، وما تلاه من مساجدَ في إرساء الحضارة الإسلامية وتحقيق الإبداع في شتى ميادين الحياة. وبالطبع فإنني عندما أتحدَّث عن المسجد فإنَّ ذهن القارئ الكريم سيذهب إلى المفهوم التقليدي الدارج للمسجد، والذي تمارس فيه شعيرة الصلاة وتحفيظ القرآن فحسب؛ ولكن الذي أقصدُ هنا هو المسجد بمفهومة الشامل المتعمق الذي يمثل نقطة التقاء الأمة وتوحُّدها، والمظهر العملي لوحدتها، وإعلان العبودية الخالصة لخالقها ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (65) وبما أنَّ العبادة في المفهوم الإسلامي شاملة جامعة لحياة الإنسان العابد لله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

﴿١٦٣﴾ (64)، فإن دور المسجد الحقيقي هو تحقيقُ العبودية الخالصة في حياتنا كلها، في بيوتنا ومدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا ومصانعنا وشركاتنا ومؤسساتنا ومتاجرنا ومستشفياتنا، وفي كلّ ميدان من ميادين الحياة.

انَّ ما نراه من التنافس على بناءِ المساجد حتَّى إنك لترى عشراتِ المساجد في شارعٍ واحد دون أن نرى تنافسًا مماثلًا في صبْغ ميادين الحياة بروح المسجدِ في إعلانها للعبودية الخالصة للخالق؛ لهوَ صورة جلية من صور فصل الدين عن الحياة.

إنَّ صبغَ الحياة بروح المسجد، وتعاليم المسجد، وأخلاق المسجد، وإعلانها العبودية الخالصة لله؛ هو أكبرُ تحديات الأمة في سبيلِ إحياء الشرع. فهذا الشرعُ لا يحيا إلَّا بأن يختلطَ بلحم ودم ويمشي على الأرض. وإن دور الأمة التي وكِّلت لها أمانةُ حمل آخر الرسالات السماوية ونشرها يُوجب ويُحتم عليها أن تُري العالمَ كيف تكون الحياة بشتَّى ميادينها عندما تصبغ بالصبغة الربانية وروح المسجد.

نريد أن نرى الحياةَ تعلن العبودية وتحققها.. ونُريد أن نُري العالمَ قاطبة جمال وكمال كلّ جزئية من جزيئات الحياة، وكلَّ نشاط من أنشطة الحياة عندما تحوي روح السماء وتعاليم السماء وتعلن عبوديتها لخالقها.

والسبيلُ لتحقيق ذلك قد بيَّنه لنا كتابُ الله في قَصَصٍ رائع يَحكي جزءًا من سيرة أنبياء الله وخطَّه لنا سيدنا محمد ﷺ قدوة قولًا وفعلًا في سيرته الزكية الطاهرة.. فلا طريق لتحقيق ذلك إلَّا بالقدوة الحية الناطقة العاملة التي تَدبُّ على الأرض، كما كان الأنبياءُ يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق يحيون الشرع من خلال كلّ فعلٍ وعمل يقومون به.

إنَّنا في حاجة إلى صُنّاع حياة وقيادات من رجال ونساء في كلّ ميادين الحياة من رؤساء لشركات ومؤسسات ومدارس وجامعات ومصانع ومتاجر ومستشفيات؛ ليُعيدوا الحياةَ للحياةِ، وأعني بذلك ليحيوا الحياة الميتة في الأرض بإضفاء روح السماء وتعاليم السماء، والتي بُعث رسول البشرية لإرسائها وإتمامها، وقد جمعها في جملة واحدةٍ في قوله "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(63). نريد إحياءَ الأخلاق في كلّ ميادين الحياة.. ونريد أن نرسخ معنى ثبات الأخلاق. يقول الرافعي في مقالٍ بعنوان ثبات الأخلاق(62): "لو أنَّني سُئلت أن أُجمل فلسفة الدين الإسلامي كلَّها في لفظين؛ لقلتُ إنَّها ثبات الأخلاق. ولو سُئل أكبر فلاسفة الدنيا أن يُوجِزَ علاجَ الإنسانية كله في حرفين؛ لما زادَ عنِ القول: إنَّه ثبات الأخلاق. إنَّ كلّ العبادات الإسلامية هي وسائل عملية تمنع الأخلاق الإنسانية أن تتبدَّل في الحي فيخلع منها ويلبس، إذا تبدَّلت أحوال الحياة فصعدت بإنسانها أو نزلت، والإسلام يأبى على كلّ مسلم أن يكون إنسانَ حالته التي هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضَّعة، ومن خمول المنزلة أو نباهتها، ويوجب على كلّ مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التي انتهى إليها الكونُ في سموِّه وكماله، وفي تقلبه على منازله بعد أن صُفّي في شريعة بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم".

نريد أن نمارس ثباتَ الأخلاق هذا، ونحمي الأخلاقَ أن تتجزأ فنصبح بهذا التجزؤ مجتمعات منفصمة الشخصية تتبدَّل أخلاقها من مكان لآخر، ووقت وآخر، فذاك الذي نراه في المسجد غير الذي نراه على مَكتبِه أو في مصنعه أو مؤسَّسته أو مستشفاه وكأنك ترى شخصًا آخر غير ذاك.

نريد الصدقَ والأمانة والإخلاص في القول والعمل، ونعيش

حقيقة أنَّ المسلم لا يكذب، وأنه مَن غشَّنا فليس منا. نريد أن نُحيي معاني الإيمان الغائبةَ عن ممارسات المسلمين، مثل قوله ﷺ: "والله لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه"، نريد أن نفقه أنَّ أحد معايير محبة الله لعبده هي إتقانه لعمله لقوله ﷺ: "إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه"، نريد أن ندركَ بركة العمل الجماعي ونمارس إخضاع الأنا وتطويعها للحق، ولخير الجماعة، ونؤمن أنَّ يدَ الله مع الجماعة.

نريد أن نعظِّم الله بامتثال أوامره في تعظيم حقوق العباد وعدم التهاون أو التساهل بها.

نريدُ من مؤسساتنا وشركاتنا ومصانعنا ومستشفياتنا أن تسودَها الشفقة والرحمة والحب في الله.

نريد إعادةَ كتابة العلوم الإدارية والاجتماعية بمنظور إسلامي، وأنْ يكون لنا معايير إسلامية يقتدى بها عالميًّا. أوَلا نخجلُ من أنفسنا أنْ يكون هناك معاييرُ جودة وإتقان وضْعِيَّة عالمية "باجتهاد البشر" تلهث المؤسسات والشركات باختلاف تخصُّصاتها للحصول على شهاداتها، ولا يكون للأمة التي تحمل آخرَ الرسالات السماوية للبشرية جمعاء معاييرُ ربانية عالمية؟

أين المعاييرُ الإسلامية في الرعاية الصحية؟ وأين المعاييرُ الإسلامية في التجارة والصناعة والتعليم والإعلام؟

أين الإسلامُ من حياتنا؟ لقد بنينا له المساجد وأغلقنا عليه الأبواب بعد كلّ صلاة، فلا يكاد يُعرف الإسلام خارج المسجد إلَّا تاريخًا يسرَد أو قالبًا مُفرغًا من روحه، أو صورة مسخ من أصل. ندخل المساجد ونخرج منها وكأنَّ لسانَ حالنا يقول: هذا مكانُ العبادة يرفع فيه اسمُ الله، أمّا الأرض والحياة فلها قوانينها التي تخضع لها، وننسى قول الرسول الكريم: ".. وجُعلت لي

الأرض مسجدًا وطهورًا" (61).

إنَّ الامتثالَ بالمعايير الربانية من شأنه أن يجعلَ مؤسساتنا وشركاتنا ومتاجرنا ومستشفياتنا قرآنًا يدبُّ على الأرض، وترتفع بذلك كلمةُ لا إله إلا الله فعلًا لا قولًا، وبذلك نسبّح بأعمالنا تصديقًا لتسبيح ألسنتنا، وتسجد قلوبنا تصديقًا لسجودنا في صلواتنا.

هذا هو دورُ كلّ رئيس شركةٍ أو مؤسسة لإحياء هذا الفكر بالوسائل الحديثة والبرامج التدريبية وتحديد رسالة المؤسسة وإرساء الأخلاق الإسلامية والعمل على ثباتها، وبغير هذا فإننا عابثون، فهذا الشرع لا يحيا إلَّا بأن يختلط بلحمٍ ودم، ويمشي على الأرض، ولم يتنزل لكي تبنَى له المساجد وتوصَد عليه الأبواب، وإنْ كثرت المساجد وتفنن الناسُ في بنائها وزخرفتها وتجميلها فهذا صنيعُ النصارى، وحاشَا لدين الله وشرعه أن يُختزلَ بهذه الصورة ويسجن بين أربعة جدر.

---

(66) سورة الأنعام: 162.

(65) سورة الجن: 18.

(64) سبق تخريجها.

(63) رواه أحمد والحاكم، والبيهقي، واللفظ له.

(62) وحي القلم، ج 2، ص 62.

(61) جزء من حديث متفق عليه.

ولِتُصنعَ على عيني (1)

عجيبٌ أمرُ هذه الدنيا.. لا تصفو على حال، ومَن نظر إليها بعينٍ غير عينَ الابتلاء عجزَ عن فهم المراد من خلقها، وفاته جلُّ خيرها.

فالحياة كما وصفها أحدُ الحكماء لا تعدو في أزهى وأطول حالاتها أنْ تكون أكثرَ من "ومضة بين أبدين" أو كما وصفَها الرافعي بقوله "أما والله إنَّه ليس أعجبُ في السخرية بهذه الدنيا من أن يعطى الناس ما يملكونه فيها لإثبات أنَّ أحدًا منهم لا يملك منها شيئًا"(71). والسرُّ فيها أن تملكها بيدك ولا يكون لها من نصيب في قلبك، وأن تسخرها لكلِّ ما يعينك على العلوِّ والارتقاء ويعينك ليوم اللقاء. وهل لأسبابِ السعادة من قيمة إن لم تحقق غاية وجودها، وهل يغني المرء أنْ يمتلك أسبابها ويفتقد غايتها. ولله حكمةٌ بالغة في تصريف الأمور، إنْ أحبَّ عبدًا لم يتركه يترهَّل في حال من أحوال الدنيا، بل قلَّبه بينَ أحوالها لينظر ما يفعل عبده، وهو في ذلك سبحانه إنَّما يصنعه على عينه، والعبدُ عن ذلك غافل، واللهُ يغار على أوليائه من الدنيا أن تملك قلوبهم، أو أن يكون لها نصيبٌ يحب الله أن يكون له خالصًا لا لغيره. وتاريخُ الأنبياء والصالحين مليء بقَصص يكشف صورًا من حِكم الله البالغة في طرق اصطفائه لأوليائه وتربيته لهم.

فمِن الأنبياء مَن سُجن ومنهم مَن ضُرب ومنهم مَن أُوذي في الله. وهل كان سجنُ يوسف إلَّا تمكينًا له في الأرض وليُجعل على خزائنها، فشاءتْ حكمة الله أن يكون طريقُ التمكين في الأرض "أوقع صور ابتلاء السعة والعطاء" هو السجن "أوقع صور ابتلاء الضيق والمَنع".

وهل خَرْق الخضر للسفينة إلّا لإنقاذها، فشاءت حكمةُ الله أن تكون وسيلة رعاية سفينة المساكين الذين يعملون في البحر هو في

خَرقها وإعابتها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (70).

ثمَّ انظر كيف جعلَ المولى عزَّ وجل نجاة موسى، عليه السلام، وهو رضيع من الذبح على أيدي زبانية فرعون من خلال إلقائه في اليمِّ حيث الهلاكُ المحقق، كما كفلَ استمرار حياته والعناية بأمره بتنشئته في قلب بيت فرعون وهو أعدى أعدائه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ﴾ (69)، وقوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ (68)، ثمَّ تأمل أيضًا كيف يخاطب المولى جلَّ شأنه أمًّا مفجوعةً بالخوف على حياة وليدها بأن يطلبَ منها إلقاءه في النهر ليحمله النهرُ إلى ذابحيه، سبحانه لا أحد سواه يجعل الحياة حيث الموت المُحقق، ويجعل الموت حيث الحياة، ويصنع على عينه مَن يشاء من عباده.

وليس أجمع مِن مقولة سيدنا الحسن في قوله: "ليس الزهدُ في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكونَ بما في يد الله أوثقَ منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغبَ منك فيها لو لم تصبك"(67).

إنَّ المؤمن في هذه الدنيا هو المعنى الذي يحاول أن يصحّح مائة ألف معنى، وهو في جهاده ماضٍ يسير بقلبه وبدنه في كلّ حال من أحوال الدنيا، يضعه اللهُ أينما شاء متى شاء كيفما شاء، لا يجزع ولا يضطرب قلبه على تَقلبه من حالٍ إلى حال، بل ينظرُ إلى كلّ حالٍ بعين الابتلاء.. أيصبر ويشكر.. أم يجزع ويكفر!

والمؤمن في كلّ حالٍ من أحوال الدنيا مشمِّر عن ساعديه، والدنيا في إحدى يديه، والأخرى تدافعها وتوجهها خشية أن

تدخلَ قلبه، وعيناه متيقِّظتان خشية أن تخدعَا، وقلبه وجلٌ معلَّق بخالقه يطلب منه مددًا متلهفًا أن يلقاه.. وهو في صراعه هذا منصورٌ وإن كان وحيدًا غريبًا على الدنيا تَحُفُّه عناية الله مادام عادلًا فيها فقيهًا بكلِّ أحوالها إلى أن يواريه الترابُ ويلقى الأحباب.

---

(71) وحي القلم، وحي القبور، ج 2، ص 122.

(70) سورة الكهف، من الآية 79.

(69) سورة القصص، من الآية 7.

(68) سورة طه، من الآية 39.

(67) مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ج 2، ص 16.

ولتُصنعَ على عيني (2)

صناعةُ القادة الربانيّين هي من أعقدِ الصناعات على وجه الأرض. فالإنسانُ بطبيعته التي خُلق عليها وركب بها هو نتاجُ الظروف التي تحيط به، والتجاربُ التي يمرُّ بها، والأشخاص الذين يلتقي بهم، والأفكار التي يقرؤها، والمشاهد التي يستقبلها ممَّن حوله. عقل يزن المعطيات، وقلب ووجدان يستقبل الأحاسيس والمشاعر التي يزنها العقل على شكل معطيات.

ولكنْ أيُّ معطيات تلك التي تصل إلى العقل؟ فقط تلك التي كُتب لعينه أن تراها، وتلك التي كُتب لأذنه أن تسمعها. فهي عينٌ ترى ما كُتب لها أن ترى.. ثمَّ يُترجم العقل ما يرى بالأدوات التي اكتسبَها الإنسان في حياته من دراسة وعلمٍ وتجارب في تحليل المرئيّات، وتكون ترجمة ما يرى في تلك اللحظة وذلك المكان على حسب الحالة النفسية والعقلية للإنسان.. بمحدوديتي الزمان والمكان.

وهي كذلك أذنٌ تسمع ما كُتب لها أنْ تسمع، ويترجمها العقل كذلك بالأدواتِ التي اكتسبها الإنسان في حياته من دراسةٍ وعلم وتجارب في تحليل السمعيات، وتكون ترجمة ما يسمع في تلك اللحظة وذلك المكان على حسب الحالة النفسية والعقلية للإنسان بمحدوديتي الزمان والمكان.

ثمَّ يأتي العقل ليزن المعطياتِ التي تستقبلها الحواسُّ الخمس "والسادسة كذلك"، ليضع العقل ميزانه المعقد كذلك متأثرًا في تلك اللحظة بعاملي الزمان والمكان والحالة النفسية والعقلية والفسيولوجية "العضوية" التي يكون عليها.

بل إنَّ أهمَّ أداة لصُنع القرار هي ذلك الميزانُ المعقد الذي يملكه كلّ إنسان، ومن خلاله يحكم على الأشياء، وهذا الميزانُ في

حدِّ ذاته هو كذلك نتاجُ ما اكتسب الإنسانُ طوال عمره من علم وفكر وتربية وخلق وتجارب صقلت صنعَ هذا الميزان. فإن أُحكم صنعه من خلال كلّ هذه المعطيات الزمانية والمكانية كان ميزانًا أقرب للصواب والدقة والحكم العادل، وإلّا فلا. بل ويذهب كثيرون ومنهم أنا أنَّ هناك كذلك عاملًا وراثيًّا يدخل في صناعة هذا الميزان مثلَ بصمة الجينات، فالعرق دَسَّاس ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (73)، بل وما يزيد الأمر تعقيدًا هو أن المعطيات التي تستقبلها الحواس لا تذهب مباشرةً إلى ميزان العقل، وإنَّما يستقبلها القلبُ أولًا فيضفي عليها روحها.. فيثقلها أو يخفِّفها فتصبح للكلمة التي تسمعها الأذن روحها بناءً على تقدير قلب ذلك الإنسان فتثقل في ميزان ذلك العقل، أو روحًا تخفُّ في الميزان، وليس بالضرورة أنَّ ما أضفى القلب عليها صحيحًا، فقد يخفف ما كان أحق أن يثقل، وقد يثقل ما قد كان أحقّ أن يخفف، والقلب بين يدي الرحمن يقلبه كيف يشاء، ويحول بين المرء وقلبه، ويلقي في قلب المؤمن من المعاني الربانية ما يشاء.

وما بينَ القلب والعقل يصنع القرار، وما بينَ القرار والقرار تصنع الأحداث، وما بين الحدث والآخر على قدر صوابِ القرار وسلامته تُعاد صناعةُ عقل وقلب الإنسان، بل تُعاد معايرة الميزان الذي به ترجح الأمور ويصنع القرار المستقبلي.. فكلُّ قرار يُقدم عليه الإنسان يُعيد صياغة الإنسان وصناعة ميزانه. فالإنسان متغير كلّ دقيقة فهو في هذه الساعة غيرُ الإنسان الذي كان قبلَ ساعة فسيولوجيًّا وعقليًّا ونفسيًّا، بل إنَّ ميزانه قد أعيد معايرته فقراره قد يختلف الساعة لنفس معطيات الساعة السابقة.

وما بين التجربة والأخرى يُصنع الإنسان ويُصنع القادة..

فَمَن بربك ذاك الذي يدَّعي أنَّ هناك صناعة أعقد وأدق من صناعة القيادة الربانية في الإنسان؟ ومَن ذاك الذي يدَّعي أنه

يستطيع أن يصنعَ القادة غير صانع وخالق الإنسان؟

إنَّها ليست نظريات تدرس في الجامعات.. بل هي هبة ورزق ورعاية ربانية.

قرأتُ الكثير من مراجع الكتب في الإدارة والقيادة، ودرستُها على يدِ أعظم الأساتذة في أفضل الجامعات في العالم، ولكني لم أقرأ أجملَ ولا أدقَّ ولا أعظم ولا أصدقَ من حقيقة "ولا أقول نظرية" لا بدَّ أن يستخرج منها منهج لتخريج القادة متجسدة في ثلاثِ كلمات للحق تعالى في قوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (72).

ليتنا ندرس في جامعاتنا منهجًا مستوحًى من هذه الحقيقة الربانية الأزلية، ونستخرج منها الشروطَ التي تجعل أي إنسان أهلًا لأن يُصنع على عينِ الله، وما المؤهلاتُ النفسية والفسيولوجية الفعلية والروحية التي تجعل الإنسان أهلًا لرعاية الله فتصقله العنايةُ الربانية وتصنعُ له الظروف والمكان والزمان، ويرى بنور الله، ويسمع بأذن الله، ويبطش بيدِ الله.

ليتنا نُدرِّس في جامعاتنا كيف نصلح النية ونجعلها متجرِّدة، وكيف نغوص في أعماق أنفسنا لنطهِّر النيات ونجعلها خالصةً لله، وكيف نحدِّد الغايات والأهداف النبيلة السامية، ونفاضل ونوازن بين هذه الأولويات وننتقي بها أطهرَ الوسائل والأدوات لتحقيقها.

إنَّني أعتقد أنَّ مَن ظنَّ أنَّ هناك مَن يصنع القادة غير خالق الإنسان فقد أخطأ.. وأكثرُ ما يمكن أن نقول إنَّ هناك برامج ودورات تساعد في تأهيل القادة وتعليمهم بعضَ الأدوات التي تساعدهم على القيادة.. وشتان ما بين صُنع الرحمن وصُنع الإنسان.

(73) سورة الكهف: 82

(72) سورة طه، من الآية 39.

المُقوِّماتُ الأربعةُ للنَّجاح

دُعيت ذاتَ مرَّة لإلقاء محاضرةٍ بعنوان "تعميق مفهوم العميل ومقدم الخدمة"، وفي اليوم المقرَّر لإلقاء المحاضرة جلستُ من بعد صلاةِ الفجر أتأمَّل قليلًا فيما سأقول، وفيما حضَّرت، فأدركت أنني في حاجةٍ لتسليط الضوء على بعضِ المفاهيم الإدارية المختبئة في أعظم كنزٍ عرفته البشرية، وآخر كتب السماء للأرض، وإسقاط هذه المفاهيم على العلوم الإدارية الحديثة والحياة؛ فاتَّصلت بأحد أصدقائي وأساتذتي الذي كان، ومازال، مصدرَ إلهامٍ لي ولكلِّ مَن يدور في دائرته، وفي خلال أقلّ من خمس دقائق على الهاتف استعرضنا معًا آية واحدة من آياتِ القرآن الحكيم فيها المقوماتُ الأربعة الرئيسية لنجاح أيِّ عمل صغيرًا كان أو كبيرًا على مستوى الفرد والعائلة، أو مستوى المؤسسات والشركات والدول.

أربعُ مقوِّمات يلقنها الله نبيه داود عليه السلام، ومن ورائه أنبياء الله والبشرية جمعاء، ومنذ ذلك اليوم ما ذكرت هذه الآية وإسقاطها إلَّا دعاني مَن سمعها بأن أكتبها وأنشرها حتَّى تعمَّ بها الفائدة، وها أنا ذا أفعل.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١﴾ (75).

وأمَّا المقومُ الأوَّل ففي قوله سبحانه وتعالى:

﴿اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾: والسابغاتُ هي الدروع، وقد روي أنها كانت تعمل قبلَ داود عليه السلام صفائح. الدرع صفيحة واحدة، فكانت تُصَلِّب الجسم وتثقله، فألهمَ اللهُ نبيه داود عليه

السلام، ووفَّقه بأن جاء بشيء جديد فيه إضافة وإبداع وفائدة، وذلك بأنْ يصنع الدروع رقائق متداخلة متموِّجة ليِّنة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم، وفي هذا تأكيدٌ وتأصيل لأحد أهمِّ مقومات نجاح أيِّ مشروع أو عملٍ على أيِّ مستوى من المستويات؛ وهو أن يكون في العمل إضافة حقيقية وفائدة ملموسة "Add Value".

وأمّا المقوم الثاني ففي قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾: والأمرُ بالتقدير في السرد هو الأمرُ بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون محكمة لا تنفذ منها الرماح، وكذلك تقديرُ المواد التي تدخل في صناعة الدِّرع فلا إفراط ولا تقتير، ففي الزيادة في المواد التي تدخل صناعة الدرع إهدارٌ وإسراف للمواد، وفي هذا تعارضٌ مع تعاليم السماء التي تهذِّب المسلم وتعلمه وتدربه على عدم الإسراف في أي شيء وإنْ كان كثيرًا، وضرب للمسلم أكبر مثلٍ في النهي عن الإسراف في استخدام ماء الوضوء وإنْ كان من نهر جارٍ "وهي طهارة تسبق أعظمَ العبادات وهي الوقوفُ أمام الخالق في الصلاة"، وربط هذا الحرص والبعد عن الإسراف والإهدار برضاه وإضفاء بركته على العمل وحرمانه لما دون ذلك. ففي زيادة المواد التي تدخل في صناعةِ الدرع فوقَ المطلوب تثقيل للدرع، وفي هذا تعارضٌ مع أهمِّ خصائص صناعة الدرع المثالي الفعَّال الأقرب للكمال، وأمّا التقتيرُ في استخدام المواد التي تدخل في صناعة الدرع إمّا لجهلٍ أو عدم إخلاص وغشّ، فإنَّ ذلك يضعف ويوهن من قوة الدرع، وفي هذا ضياعٌ للهدف من صناعة الدرع "الحماية والوقاية"، وبذلك فإنَّ الأمر في التقدير في السَّرد هو الأمرُ بتحقيق التوازن الدقيق بين الإفراط والتقتير وهو ما يسمّى في علم الإدارة والصناعة بالفاعلية أو الكفاية، أو جعل الشيء أقربَ ما يكون

للكمال والفعَالية "Efficiency" & "Optimization".

وأمّا المقوم الثالث ففي في قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَاعمَلُوا صَالِحًا﴾: وهي أنْ يكون العمل صالحًا نوعيًّا وكيفيًّا، ومن أهمِّ معايير صلاح العمل هو جودته أو جودة المنتوج "سواء كان ملموسًا أو غيرَ ملموس في أي من مجالات الحياة"، فالجودة هي ترجمة كلّ الكلمات التي تكون منها العمل، فلا تستوي الكلمة الطيبة "بمفهومها الشامل لأيِّ عمل" بالكلمة الخبيثة، وهو ما يسمَّى في علم الإدارة بالجودة والإتقان "Quality" "إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملًا أن يتقنه"(74). وهناك مؤسسات وهيئات دولية تضع معاييرَ للجودة في كلّ من مجالات الحياة وتقدم شهادات ضمان للجودة، وتتسارع المؤسسات والصناعات بأنواعها في كلّ مجالات الحياة لتطبيق هذه المعايير والحصول على هذه الشهادات، واللهُ من فوق سبع سموات يأمر الأمة التي حَملت هذه المسؤلية إلى قيام الساعة؛ أن تتقنَ العمل.

وأمّا المقوم الرابع ففي في قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنِّي بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: وبدون هذه المقومة لا يمكن أن تتحقق المقوماتُ الثلاث الأولى بشكل مستمر، وهي ما يسمَّى في علم الإدارة بالمراقبة والمتابعة "Monitoring" وهناك علوم متخصِّصة في كيفية مراقبة العمل، والتأكد من سيْره وفقَ الأنظمة التي وضعتْ له لتحقيق الرسالة والهدف والغاية، وتصحيح العمل إذا انحرف عن المسار، وهناك اليوم آلياتٌ متقدّمة ومعقدة للمراقبة تختلفُ على حسب العمل صناعيًّا كان أم تجاريًّا أم اجتماعيًّا أم تعليميًّا أم صحيًّا... إلخ؛ للتأكد من تحقيق أهداف العمل بأقرب ما يكون من الكمال والفعَالية والإتقان والجودة. والله يدعونا ويعلمنا أن نضعَ الآليات المناسبة لمراقبة

العمل لأنَّ ذلك من مقومات نجاح العمل وقبوله، وكذلك يؤكد علينا أنه فوقَ كلّ ذلك هو البصيرُ الرقيب على العمل، أَوَبَعد كلّ هذا ألَا نتوقع من المسلم أن يضرب المثل في:

•تشجيع الإبداع وابتكار الجديد لإتمام الفائدة وتحقيق المنفعة "Add Value".

•إحسان التقدير والتخطيط لإدراك الكمال والفعَالية "Optimization & Efficiency".

•إصلاح الوسائل وطرق الإنتاج للوصول إلى الجودة والإتقان "Quality".

•أن يضع الآليات المناسبة للمراقبة إذعانًا لأمر السماء، ويعلم ويدرك ويتيقن قبلَ ذلك بأن الله على كلّ شيء رقيب "Monitoring".

لقد كتب اللهُ على نفسه الزيادةَ والمعونة والبركة للشاكرين في قوله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وعلَّمنا كيف يكون الشكر قيامًا بما علمنا وعملنا به، فقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ فلم يقلْ سبحانه اعبدوا أو اركعوا أو اسجدوا آل داود شكرًا، وإنما قال اعملوا آل داود شكرًا.

وبيَّن لنا المقومات الأربع لقبول العمل ونجاحه في الدنيا والآخرة قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا. ندعو الله أن نكون ممَّن يستجيبون لنهجه، ويمتثلون لأمره وينقادون لهديِ نبيه حتَّى نكون بحقٍ خيرَ أمة أُخرجت للناس.

---

(75) سورة سبأ: 11-10.

(74) الجامع الصغير للسيوطي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

ثباتُ الأخلاق

كتب الرافعي مقالًا قبلَ بضعة عقود بعنوان "ثبات الأخلاق"(78) ونشرَ في كتابه "وحي القلم"، ومما قال رحمةُ الله عليه: "لو أنَّني سُئلت أن أُجمل فلسفةَ الدين الإسلامي كلَّها في لفظين؛ لقلت: إنّها ثبات الأخلاق، ولو سُئل أكبرُ فلاسفة الدنيا أن يوجزَ علاج الإنسانية كله في حرفين؛ لما زاد عنِ القول: إنه ثبات الأخلاق. فليس ينتظر العالم أنبياء ولا فلاسفة ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بدعًا جديداً، وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسر له الإسلام هذا التفسير ويثبت للدنيا أن كلّ العبادات الإسلامية هي وسائل عملية تمنع الأخلاق الإنسانية أن تتبدل في الحي فيخلع منها ويلبس، إذا تبدلت أحوال الحياة فصعدت بإنسانيتها أو نزلت، وأن الإسلام يأبى على كلّ مسلم أن يكون إنسان حالته التي هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضعة، ومن خمول المنزلة أو نباهتها، ويوجب على كلّ مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التي انتهى إليها الكون في سموه وكماله، وفي تقلبه على منازله بعد أن صُفِّي في شريعة بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم. انتّهت المدنية إلى تبدل الأخلاق بتبدل أحوال الحياة، فمن كان تقيًّا على الفقر والإملاق وحرمهُ الإعسار فنونَ اللذة، ثمَّ أيسر من بعدُ؛ جاز له أن يكون فاجرًا على الغنى، وأن يتسمَّح لفجوره على مَدِّ ما يتطوَّح به المال، وإن أصبح في كلّ دينار من ماله شقاء نفس إنسانية أو فسادها".

ويقول في مقالٍ آخر بعنوان الدنيا والدرهم(77): "أمّا تعظيم الأمة للدنيا والدرهم فهو استبعاد المعاني الحيوانية في الناس بعضها البعض، وتقطع ما بينهم من التشابك في لُحمة الإنسانية، وجعل الكبير فيهم كبيرًا وإن صغرت معانيه، والصغير فيهم صغيرًا وإن

كبر في المعاني، وبهذا تموج الحياة بعضها في بعض، فيكنز الغني مالًا، ويكنز الفقيرُ عداوة، وتباع الفضائلُ وتشترى، ويزيد مَن بزيد ولكنْ في القسوة، وينقص من ينقص ولكنْ في الحرية. أمّا التجارة وهي التفسيرُ الظاهر لمعاني النفوس فتصبح بين الغشِّ والضرر والمماكرة، وتكون يقظةُ التاجر من غفلة الشاري، وتفسد الإرادة فلا تُحدث إلّا آثارها الزائغة، وما التاجرُ في الأمة القوية إلَّا أستاذ لتعليم الصدق والخلق في الموضع المتقلب، فكلمتُه كالرقم من العدد لا يحتمل أزيدَ ولا أنقص مما فيه، ويُمتحن بالدنيا والدرهم أشدّ ممّا يُمتحن العابدُ بصلاته وصيامه". انتهى.

وقد كتبتُ مقالًا قبلَ ثلاثة أعوام بعنوان "من الداخل يبدأ النصر.. والهزيمة" قلت فيه: إنَّ معركتنا الحقيقية في هذه المرحلة هي معركةٌ داخلية مثل تلك التي خاضها الجيلُ الأول من صحابة رسول الله وأتباعه لإرساء دعائم الحق والفضيلة في المجتمع. إنَّها معركةٌ بين الفضيلة والرذيلة، بين الحقِّ والباطل، ومتى انتصر الحقُّ وانتصرت الفضيلة في هذه الأمة التي حُمِّلت آخر الرسالات السماوية للإنسانية، تلاشت من أمامها كلّ قوى الأرض من عدو ومحتلٍّ ومُستعمر، وهل ينتصر الباطلُ على الحق أو الرذيلة على الفضيلة إلَّا بما أصاب الحق من باطل، وما أصاب الفضيلة من رذيلة.

إنَّنا في أيامنا هذه أحوجُ ما نكون لأن نعلنها حربًا داخلية على نواقصنا وأخطائنا وعلى كلّ طغيان وظلم وقهر وفساد داخلي. كيف لأمةٍ أن تنتصر وهي مهزومةٌ من داخلها بما فيها من اختلال لموازين الحياة كلها اقتصادية واجتماعية وسياسية.

وقد لبست كلّ رذيلة ثوبًا أعطى اسمًا زائفًا برّاقًا لتجميلها يتداوله الجميع، فيذهب بذلك عنهم مشاعر الاشمئزاز والتقزُّز من قبْح الرذيلة، وتزيَّنت الرذيلة كلّ بما يجملها في أعين العامة،

فكان للرشوة ثوب، ولقول الزور ثوب، وللكذب ثوب، وللنفاق ثوب، وللاختلاس ثوب، وللربا ثوب، وللسرقة ثوب، وانتشرت الرذائل في المجتمعات فدخلت الأسواق والبيوت، وقبل كلّ ذلك دخلتْ قلوب الناس فأفسدتها، وأخذت تنخرُ في عضد الأمة حتَّى صارت الأمةُ العظيمة أشبه ما تكون بشجرةٍ عظيمة جذورُها ضاربة في الأرض وفروعُها تشاهق عنان السماء، يشهد لها التاريخ، ولكنها شجرةٌ جوفاء من داخلها بما ينخر فيها، وهَجْرِ المزارعين لها وشحّ الماء الذي يساق إليها فأنى لمثل هذه الشجرة أن تثمر؟!

وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب في قضية، فقال له عمر: ائتني بمَن يعرفك، فأتاه برجل أثنى عليه خيرًا، فقال له عمر: أنتَ جارُه الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فكنتَ رفيقه في السفر الذي يستدلُّ به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملتَه بالدينار والدرهم الذي يستبينُ به ورعُ الرجال، قال: لا. قال عمر: أظنك رأيتَه قائمًا في المسجد يهمْهِم بالقرآن يُخفض رأسه طورًا ويرفعه أخرى؟! قال: نعم. قال: فاذهب فلستَ تعرفه (76).

إنَّني منذ عودتي إلى بلادنا الغالية، وتشميري عن ساعدي لعمارة هذه البقعة من الأرض كما يحبها الله أن تعمر، وتعاملي مع أبناء جلدتي في المحكِّ الذي يستبينُ به ورع الرجال "المال" وأنا أزداد قناعة بأنه ما أذلَّ هذه الأمة إلَّا ما ذكرتُ في مقالي هذا من تبدُّل الأخلاق، وإنَّ نصر الأمة وإحياءها نُجمله اليوم في مقالنا هذا بما أجمله الرافعي في مقاله قبلَ عقود عدةٍ بكلمتين لا ثالث لهما ألا وهما: "ثبات الأخلاق".

(78) وحي القلم، ج 2، ص 62.

(77) وحي القلم، ج 2، ص 163، 164.

(76) رواه سليمان بن حرب،وصححه الألباني في إرواء الغليل، برقم 2637.

الفَلَك المرسومُ
والفصْلُ العجيب

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (91).

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (90).

أرسل اللهُ الأنبياء والرسلَ بشرى بين يدي رحمته، وجعلهم بشرًا يأكلون الطعامَ، ويمشون في الأسواق ليكونوا لنا قدوةً يمارسون حياتهم كما نمارسُها كبشرٍ من لحم ودم، وبعث اللهُ خاتم الأنبياء والمرسلين الرحمة المهداة كنموذج متكاملٍ لما يجب أن تكون عليه مبادئ التعامل مع الحياة في كلّ جزئية من جزئياتها.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (89)، وكتب الله لأمة محمد أن تكون تلك الأمة التي تحمل آخرَ رسالات السماء للأرض، وحفظ لها تفصيلًا دقيقًا مؤرخًا مسجلًا لحياة النبي الرسول النموذج بإنسانيته العليا.

أوصافٌ دقيقة عجيبة متوازنة تسبح في ملكوت الخالق لأنها إنما جُبلت على أن تكون جزءًا لا يتجزأ من سنة الله في خلقه الذي يسبح في ملكوته ويُسبح بحمده ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (88).

كلٌّ في فلكه المرسوم له يسبح بدون تأخير أو تقديم، ولا خروج عن مدارٍ هو مَرسوم له ليتجسد في هذا الفلك، والمدارُ صورة الكمال والإبداع والجمال الإلهي ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤﴾ (87).

فمِن أوصافه ممّا جمع الرافعي في كتابه "وحي القلم" أنَّه كان متواصلَ الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويلَ السَّكْت، لا يتكلم في غيرِ حاجة، ليس بالجافي ولا المهين، يُعظِّم النعمة وإنْ دقَّتْ لا يذم منها شيئًا، ولا تغضبُه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تُعُدِّيَ الحقّ لم يقمْ لغضبه شيء حتَّى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وكان خافض الطَّرف، نظرُه إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء، مَن رآه بديهة هابَه، ومَن خالطه معرفة أحبَّه، لا يَحسبُ جليسه أنّ أحدًا أكرم عليه منه، ولا يطوي عن أحدٍ من الناس بِشْرَهُ، قد وسع الناس بسطهُ وخلقهُ، فصارَ لهم أبًا، وصاروا عندَه في الحق سواء، يُحسن الحسن ويقويه، ويُقبح القبيح ويُوهيه، معتدل الأمر غير مُختلف، وكان أشدَّ الناس حياء، لا يثبّتُ بصرَه في وجه أحد، له نورٌ يعلوه كأنَّه شمس تجري في وجهه، لا ييأس راجيه، ولا يخيب عافيه، ومَن سأله حاجة لم يردَّه إلّا بها أو بميْسور من القول، أجود الناس بالخير". (86).

وعندما قسَّم الإنسان الحياة أقسامًا وأجزاءً هذا لله، وهذا لغيره أصبح كالمسخ لا إلى هذا ولا إلى ذاك، وخرج من النظام الكوني البديع المُحكم الذي يسبح في ملكوت الخالق ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (85).

وظهرَ الفسادُ في الأرض لخروج الإنسان عن دائرةِ وفلك السبح معَ باقي خلق الله في الكون في المدار الذي رسمه الخالق له، وبخروج كلّ إنسان عن مساره الصحيح أصبح الإنسانُ يتخبّط بأخيه الإنسان وضاعت غاية الخلق في أنْ يكون الإنسانُ خليفة الله في الأرض يعمرها كما يحبها اللهُ أن تُعمر ليكون صورةً من

صور السبح في ملكوت الخالق طوعًا وعبادة وشكرًا ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (84).

وأصبحنا نتصادمُ مع بعضنا بعضًا، وكيف لا يكون ذلك ونحنُ لا نسير في انسجامٍ مع قوانين وسنن الكون الأزلية في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإعلامية والتربوية والتعليمية.

ما أسهلَ أن نعتزل الناس، ونفرَّ إلى المساجد نعتكف فيها، فالمسجدُ قطعة من السماء هو في الأرض ولكن السماء فيه ولكنّنا نذكر قولَ رسول الله ".. وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا"(83)، ونُذكرُ بدورنا في أن نجعلها كذلك، نزيد من مقدار الخير فيها، ونقلص من مقدار الشَّر فيها لنكون بحقٍّ الرحمة المهداة للبشرية جمعاء.

ما أصعبَ أن يتجسَّد أمامك ممّن تخالط وتحبُّ من أبناء جلدتك ولسانك ودينك هذا التخبط والمفارقات العجيبة في التطبيق والممارسة الفعلية الحياتية لهذه المعاني.

وإنّها لمعاناة مَن جعل همَّه الأعظم أن يكون حلقةً في تلك السلسلة المباركة الممتدَّة عبرَ التاريخ منذ أول خلق آدم إلى قيام الساعة سلسلة الأنبياء والصالحين والدعاة إلى الله.

مِن أين جاء هذا الفصلُ العجيب بين الدين والحياة؟

وأينَ تذهب بنا صلاتُنا وصيامنا وقيامنا دون أن يكون شعارُنا في الحياة هو إحياءَ ما جاء الدين ليقيمه على الأرض من الصِّدق والأمانة والإخلاص والعدل والإحسان والإتقان والجمال.

الصدقُ الذي أكد لنا رسولنا أنَّ المسلم لا يكذب.

والأمانة التي أبتِ الجبال أن يحملنَها وأشفقن منها وحملها

الإنسان.

والإخلاص الذي هو سرُّ النجاح اخلص قلبك إلى الله يكفيك القليل من العمل.

والعدلُ الذي هو أساسُ كلّ شيء، وأُمِرنا به في كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (82).

والإحسانُ الذي هو أن تعبدَ الله كأنك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.

والإتقانُ الموجب لمحبة الله "إن الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه" (81).

والجمالُ في المظهر والمخبر اقتداءً بالرب "إنّ الله جميل يحب الجمال" (80).

وغيره من المعاني الجميلة في شرع الله، ودين الله وسنة الله في كونه البديع.

أينَ حياتنا من كلّ هذا؟.. وكيف نعيد هذه المعاني إلى الحياة؟..

وكيف نصبغ حياتنا وأعمالنا بصبغة السماء؟..

وكيف نعيدُ المفاهيم الصحيحة لمصطلحات الأمة العظيمة، وهي الأمةُ القدوة التي شرفها اللهُ بقوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (79).

كيف نعيد صبغةَ وروح السماء لتلك المعاني والمصطلحات وتحريرها من تراب الأرض فَيُقرأ التواضع تواضعًا لا ضعفًا، ويُقرأ تقديم حُسن الظنّ حسنًا للظَّن لا سذاجة، ويُقرأ التأني والتمهُّل والروية في صنع القرار ورعًا وخشية للظلم تأنيًا ورويَّة

وورعًا وخشية لا تردُّدًا.

وكيف نعالج هذا الفصلَ العجيب بين ما تدعونا إليه الشعائرُ التعبدية التي نمارسها ليلَ نهار، وبين ممارساتنا اليومية لحياتنا؟

إنْ لم يكنِ العمل لمعالجة هذا الفصلِ العجيب هو مِن أسمى صورِ العبادة لله بمفهومها الشامل فماذا يكون؟

---

(91) سورة الفرقان: 20.

(90) سورة الفرقان: 7.

(89) سورة الأنعام: 162.

(88) سورة يس: 40.

(87) سورة الإسراء: 44-43.

(86) الإنسانية العليا، ج 2، ص 32.

(85) سورة الإسراء، من الآية 44.

(84) سورة سبأ: 13.

(83) جزء من حديث متفق عليه.

(82) سورة النحل، من الآية 90.

(81) أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي، وحسنه الألباني.

(80) رواه عبد الله بن مسعود، صحيح مسلم، برقم 91.

(79) سورة آل عمران، من الآية 110.

فلنُهاجر قبلَ أن نُستبدَل

مَعَ دخولِ عامٍ هجري جديد.. نستقبله كما في كلّ عام.. ولكننا لا نكاد نستقبل الشيء الكثير من حِكم وعِبَر ابتداء تاريخ الإسلام بيوم هجرةِ رسول الله ﷺ، لا بأيام الإسلام العظيمة الأخرى مثل يوم نزول الوحي أو فتح مكة أو غيرها من الأيام التي تستحقُّ أن يبدأ تاريخ الإسلام وبداية كلّ عام بها.

فلماذا يبدأ عامُنا بيوم الهجرة؟

إنَّ اختيار هذا اليوم ليكون يومَ ابتداء عام كلّ مسلمٍ على وجه الأرض لهوَ أمرٌ يحتاج إلى وقفة متأملة ومتعمقة، ولنبدأ في مقالنا هذا بأحدِ هذه الدروس المُستقاة من الهجرة، ألا وهي تأصيل مبدأ الأخذ بالأسباب وجعلها من أسمى صورِ العبادة.. فها هو رسولُ الله الذي أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة بمعجزة ربانية ينتظر الإذنَ بالهجرة من مكة إلى المدينة، وتشاء الحكمةُ الإلهية أن لا ينتقل إلّا بعالم الأخذ بالأسباب المادية وجعلها أسمى صورِ العبادة لله سبحانه، ولتتجلّى لنا في التحضير والتنفيذ لهذه الهجرة عبقرية التخطيط البشري والتنظيم والأخذ بالأسباب على أكْمل وجوهها من قبل آخر الرسل على وجه هذه الأرض.

وهل يخشى رسولُ الله ﷺ على نفسه الموت، أو هل سَيخذل الله نبيه ورسوله محمد ﷺ في الحماية إن تحدَّى رسول الله قريشًا بأسرها أن يقتلوه ويوقفوه عن الهجرة إن استطاعوا كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأرضاه في تحدِّيه لقريش عند هجرته!! إنما هي دروس الهجرة لا بدَّ أن يلقّنها لنا ويعلّمنا إياها فعلًا وعملًا وواقعًا وتاريخًا معلمُ الإنسانية سيدنا محمد ﷺ.

وأسوق لكم هنا بعضَ أمثلة تأصيل أحدِ دروس الهجرة؛ وهي

الأخذ بالأسباب:

•التكتمُ على موعد الهجرة فلم يعرفه أحد حتَّى صاحبه أبو بكر الصديق مِن منطلق تطبيق "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان".

•مبيت سيدنا علي بن أبي طالب في فراش رسول الله ﷺ، وفي هذا كمال إتقان الخطة والأخذ بالأسباب، واجتهادٌ من نبينا محمد ﷺ، فالأمرُ الرباني هو أن لا يبيت ﷺ في فراشه، ولكن جبريل لم يأمره أن يطلب من أحدٍ أن يبيت في فراشه، وفي هذا درسُ إعمال العقل البشري والتخطيط، فكانت كلماته لعلي رضي الله عنه (نمْ على فراشي وتسبح ببردتي فإنه لن يخلصَ إليك شيء تكرهه منهم) (99).

•خروجُه ﷺ من مكة في ساعةِ القيلولة وهي أشدُّ ساعات النهار حرارة من الصيف وأهل مكة في خيامهم وبيوتهم.

•توجُّهُه ﷺ إلى غار ثور جنوبَ مكة وهو ليس في طريق المدينة، وإقامته فيه ثلاثة أيام.

•استعمالُه ﷺ لعبد الله بن أبي بكر عينًا له بمكة ليأتيه بالأخبار.

•حتَّى الطعام والشراب خطَّطَ لهما صلوات الله وسلامه عليه.

ليعلمنا كيف نطبِّق المفهوم الصحيح لمعنى التوكل في قوله ﷺ "اعقلها وتوكل" (98) ووكّل هذه المهمَّة الشاقة والخطيرة إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق، وبهذا يؤصِّل لنا الرسول الكريم دور المرأة الفعّال ومشاركتها الرجلَ في الحياة والكفاح والنضال متمثلةً في دورها في أهمِّ رحلة قام بها بشرٌ على وجه الأرض، وأسماء حامل في شهورها الأخيرة، وبذلك تستطيع أن تخبئ الطعام والشراب ولا ينتبه لها أهلُ مكة وهي تحمله لأبيها ولرسول

الله صلى الله علي وسلم، وفي ذلك قمةُ التخطيط للمهمة، والاختيار الصحيح، والثقة بها رضي الله عنها وأرضاها.

•طلبُه ﷺ من عامر بن فهيرة مولاه الذي يرعى غنمَه أن يخفي الأثرَ من خلفهم لتعجز قريش عن تتبع أثرهم.

•وها هو سيدنا أبو بكر يمشي وراءَ الرسول بمسافة ليحمي ظهره، وإذا لقيه الرجلُ يسأله وهو يشير إلى رسول الله أمامه: مَن هذا الذي بين يديك؟ فيجيب أبو بكر: هذا الرجل يهديني الطريق.. فلا يكشف عن هوية رسول الله فتؤذيه قريش، ولا يكذب في مقولته. (وإنَّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب) (97).

وتشاء الحكمةُ الإلهية حتَّى يكتمل هذا الدرس الإنساني العظيم، أنه بالرغم من تمام وكمال خطة الرسول الكريم والأخذ بالأسباب المتاحة لديه على أكْمل وجهٍ إلّا أن الأسباب المادية لم تكنْ كافية، ووصلت قريش إلى الغار، وهنا يتجسَّد قمة كمال التطبيق لمفهوم التوكل بعدَ الأخذ بالأسباب في قوله ﷺ كلامًا صار قرآنًا ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (96).

وكان ذلك بعدَ أن رأى اللهُ من رسوله وصاحبه ما أحبَّ من الأخذ بالأسباب كاملة عبادة له سبحانه وتعالى، ومن التطبيق الكامل الصَّحيح لمفهوم التوكل.. ويحمي اللهُ نبيه ودعوته لتكونَ هذه الهجرة، ولتكون بداية تاريخ أمة الإسلام التي كتب اللهُ لها أن تحمل آخرَ الرسالات السماوية إلى قيام الساعة.

أين نحنُ كأفراد ومجتمعات وكأمةٍ من دروس الهجرة؟

وهل يذكِّرنا كلّ عام هجري جديد بتلك المعاناة والمشقة التي وضع اللهُ سبحانه فيها أحبَّ عباده سيدنا محمد ﷺ، وأجرى عليه سنته فقط ليعلمنا تلك الدروس!

وهنا، ينبغي ان نعلمَ أنَّ الهجرة أشكالٌ مختلفة وصورٌ متعددة: فقد تكون هجرة وجدان أو مشاعر أو أفعال أو أجسام أو كلها مجتمعة كما قال رسولُ الله ﷺ: "المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجرُ مَن هجر ما حرم الله"(95).

هل نجدِّد النية في مطلع كلّ عام هجري للهجرة إلى الله بجعله الغايةَ والمقصد في النية والقول والعمل كما قال رسولُ الله: "إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"(94).

إنَّ أمةً قدوتها وأستاذها آخرُ الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وتُذكَّر في مطلع كلّ عام جديد لها بهجرة رسولها، وبالدروس التي خطَّها لها في حياته كفاحًا ونضالًا ومعاناةً ومشقةً ثمَّ تنسى أو تفرِّط أو تتخاذل؛ لهي على خطرٍ عظيم.

ومَن لا يهاجر إلى الله يهجره الله، ومن يتولَّ يستبدله الله بغيره. قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (93).

وكتابُ الله مليء بتاريخ مَن سبق، ومَن لا يقرأ التاريخ ولا يعي دروسه.. يأبى التاريخ إلّا أن يلقنه أقسى دروسه.. والتاريخُ يعيد نفسه.. وسننُ الله لا تتبدل ولا تتغير..

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.(92)

(99) السيرة النبوية لابن هشام، باب هجرة النبي ﷺ.

(98) رواه أنس بن مالك، صحيح الترمذي، برقم 2517.

(97) رواه عمران بن الحصين، سنن البيهقي، برقم 199.

(96) سورة التوبة: 40.

(95) رواه عبد الله بن عمرو، صحيح البخاري، برقم 6484.

(94) رواه عمر بن الخطاب، صحيح البخاري، برقم 1.

(93) سورة محمد، من الآية 38.

(92) سورة فاطر: 43.

بينَ الهجرةِ وعاشوراء

بينَ إحياء دروس تاريخ هجرة الرسول ﷺ، وبين إحياء تاريخ عاشوراء بصومِ اليومِ الذي نجَّى اللهُ فيه نبيه موسى عليه السلام، مواقف وعبر تستحقُّ الذكر والتأمل والدراسة والتحليل.

وفي كلّ عامٍ تعيد ذكريات هذيْن اليومين إلى خاطري درسًا سمعته من أجلِّ وأقدر أساتذتي المفكرين المبدعين المتجدِّدين المتعمِّقين في فهم روح الدين وإسقاطاته كمنهج حياةٍ وتطبيقه على أرض الواقع.

حكى لي أستاذي قائلًا: حدَّثني والدي يومًا قائلًا: تأملْ يا بني في موقفِ نبيَّين من أنبياء الله عزَّ وجل: خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ بينما هو وصاحبُه في الغار إذْ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ الله معنا.. فلا خوف ولا شكَّ ولا تردُّد في نصر الله، وقريش لو نظرت مكانَ أقدامها لرأت رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار.

في حين أنَّ نبي الله موسى عليه السلام يقول عنه القرآن: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ (103) وهو يواجه السحرة.. وما جاؤوا به من سحرٍ عظيم حسبَ وصف القرآن الكريم.

واستدلَّ الوالد بذلك على قوةِ عزيمة رسول الله ﷺ، وثقته بالله دونَ غيره من الأنبياء..

ولم تعجب إجابةُ الأب ابنَه العالم حيث قال: إنَّ سيدنا محمدًا ونبيَّ الله موسى عليهما السلام من أولي العزم من الرسل، ولا يجوز الإنقاصُ من قوة عزيمة أيٍّ منهما، وعادَ الابن للأب في اليوم الثاني وأوضحَ لأبيه أنَّ المقارنة لا تكون هكذا، وإنّما تقارن موقفين بموقفين.

موقف رسول الله في الغار ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (102)، وموقف نبي الله موسى عليه السلام وقد أدركهم فرعون وجنوده، وصارَ البحرُ من أمامهم، وجنودُ فرعون من خلفهم إذ قال له قومه إنا لمدركون فأجابهم قائلًا ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (101).

أمّا الموقفان الآخران، فهمَا موقفُ رسول الله قبيل معركة بدر ودعاؤه لربه رافعًا يديه للسماء وجلًا خائفًا من أن تهزمَ العصبةُ المؤمنة، ولا يُعبد الله في الأرض، بموقف وَجَل وخوف موسى عليه السلام، وهو في مواجهة سحرةِ فرعون وأعمالهم ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ (100).

ففي هذيْن الموقفين الأوليَيْن توفرت وسائلُ الدعوة لله والجهاد لكلا النبيّيْن: سيدنا محمد ﷺ ومعه عصبةٌ من الصحابة وجيشه سيدخلُ المعركة، وسيدنا موسى معه آياتُ ربه الكبرى، وبتوفر هذه الأسباب دخلَ الخوف في قلبِ نبيّه من أهل العزم، خوفًا أن يقصروا في أخذ الأسباب فيكون العقاب، أو أنَّهما يعتمدان على هذه الأسباب، ويؤمنان بها فيوكَلان لها وتكون الهزيمة.

أمَّا الموقفان الآخران، ففيهما تتجسَّد حالُ الأنبياء عندما يَستنفدوا جميعَ الأسباب المتاحة بين أيديهم، فعندها تنعدم الأسبابُ المادية ويُعذرون عندَ ربهم، فعندئذ فقط يشعرون بالثقة التامَّة بنصر الله، وأنَّه حان التدخل الرباني والنَّجاة بغير الطرق المادية، والدخول في حمَى الله، وحدوث المعجزات والكرامات، وبما أنَّ الأنبياء ما أرسلوا إلَّا ليكونوا لنا قدوةً ونبراسًا، فعلينا إسقاط هذا المفهوم على حياتنا.

وعندما نسقط هذا المفهومَ العظيم على حياتنا نجد أن لسانَ حالنا يقول عكس ذلك تمامًا.

عندما تتوفَّر لنا أسبابُ النصر ونمتلكُ الأسبابَ المادية فإنَّ الواحد منّا يحسُّ بالثقة والطمأنينة، وعندما تنفد الأسباب وتنعدم؛ يحسُّ الواحدُ منّا بالخوف والوَجَل، بل منّا مَن يُقصِّر بالأخذ بالأسباب، وعندما يملك بَعضها يركن إليها ويؤمنُ بها، وفي كلّ ذلك انحرافٌ في تطبيق أهمِّ وأعظم مفاهيم العمل؛ ألا وهو الأخذُ بالأسباب كاملة بكلِّ صدق وإخلاص كَمَن لا يؤمن إلَّا بها، ثمَّ عبادة لله والتوكل الكامل عليه سبحانه قبلَ وأثناء وبعدَ الأخذ بالأسباب يقينًا بأن النتائجَ هي مِن عند الله، وما الأسباب إلَّا وسائل أُمرنا بالأخذ بها.

تمرُّ ذكرى الهجرة عامًا بعد عام..

ويصوم مَن يصوم يوم عاشوراء عامًا بعد عام..

ولكنْ كم من أمَّة محمد مَن فهموا دروسَ الهجرة وعاشوراء، وجعلوها نبراسًا في حياتهم وأسقطوها على واقع حياتهم؟

---

(103) سورة طه: 67.

(102) سورة التوبة، من الآية 40.

(101) سورة الشعراء: 62.

(100) سورة طه: 67.

الذَّكاءُ والحكمة..

شتّان بينَ هذا وذاك

كثيرًا ما يتباهى أَهلُ الأهواء والمطامع الدنيوية قصيرة المدى بما يملكون من ذكاءٍ ودهاء.

وحقيقةُ الأمر أنَّ الذكاء ليس له قيمة مطلقة منفصلة إلَّا أنْ يُحكَم بثلاث: نية خالصة متجرِّدة يقصد بها الخالقُ المعبود، ووسيلة طاهرة شريفة مشروعة لتحقيق غاية نبيلة سامية، فهي نيَّة وغاية ووسيلة.

ولم يتباه ربُّ السماوات والأرض بالأذكياء، ولم يُضف هذه الصفة لأحدٍ من عباده المخلصين، ولم يجعلها من أسمائه الحسنى، بل جعلَ من أسمائه سبحانه وتعالى "الحكيم"، وآتاها مَن شاء مِن عباده، فقال سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (107).

إنَّ أعظم اختبارٍ وابتلاء لبني آدم هو أنْ يحكم ويربط كلّ قولٍ وعمل بنية خالصة وغاية نبيلة ووسيلة مشروعة، والذكاء إذا رُبِطَ وحُكِمَ بالشروط الثلاثة سُخر وحُكم وصار حِكمة، وإلّا فقد ينقلب ذكاءُ الإنسان عليه فيعود به إلى الضلال أو الفساد فيصبح لؤمًا وخبثًا ومكرًا سيئًا، وكلها تنقلب على صاحبها عاجلًا أم آجلًا، ولا يكفي أن يتوافر شرطٌ أو شرطان من الثلاثة، فالغاية "وإنْ كانت نبيلة" لا تبرر الوسيلة غير المشروعة أو الملتوية المنحرفة المتعدية على حقوق الغير فإنها وبدون النية الخالصة التي يقصد بها وجه الله المتجردة من كلّ من دونه وسواه لا يُقبل القول أو العمل، وإنْ كان في سبيل تحقيق غاية نبيلة بوسيلة مشروعة.

عنْ رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه أنَّه قال: ثلاثٌ

مَن كنَّ فيه كنَّ عليه: المكر السيئ، ثمَّ تلا صلواتُ الله عليه قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (106)، والنكث، ثمَّ تلا ﷺ قولَه تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (105)، والبغي، ثمَّ تلا صلواتُ الله وسلامه عليه قولَه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُم عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ (104).

مسكينٌ أنتَ أيها الإنسان.. مازال ميزانك يتأرجَح في كلّ لحظة من لحظاتِ حياتك بكلِّ كلمة تتفوَّه بها، وكلِّ حركة تقوم بها؛ صغيرها وكبيرها، تتجاذب أقوالك وأعمالك قوى الأرض، وأهواء البشر ممَّن حولك، والمؤمن في صراع معَ كلّ قولٍ وعمل، وَحكمة بنية خالصة متجردة، وقَصد به غاية نبيلة سامية، واتَّبع لتحقيقها وسيلة طاهرة مشروعة، فكان قولُه حكمة.. وعملُه حكمة.. وتباهى به الحكيمُ من فوق سبع سماوات.. أو أنه قَصَّر في ربط وحكم قوله وعمله فأسقطَ إحدى الثلاث من نية أو غاية أو وسيلة، فخطَّط وكدَّ وتعب، ولكنَّه وإنْ ظنَّ أنَّه بنى فإنه ليس لآخرته بل لدنياه، وبذلك تبدَّد مسعاه، أو أصبح كالتي نقضتْ غزلها من بعد قوَّة أنكاثًا.

---

(107) سورة البقرة، من الآية 269.

(106) سورة فاطر، من الآية 43.

(105) سورة الفتح، من الآية 10.

(104) سورة يونس، من الآية 23.

مُثيرو الشّائعاتِ وناقلو الإفْك

آفاتُ اللسان عديدة، وقد جاءت الأحاديثُ تشدِّد مِن خطر آفات اللسان من: كذب وغيبة ونميمة وسخرية واستهزاء.. وغيرها كثير.

فعنْ سفيان بن عبد الله الثقفي، عنْ أبيه قال: قُلت: يا رسولَ الله، أخبرني عن الإسلام بأمرٍ لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: "قُل آمنت بالله ثمَّ استقم، قال: فقلت فما أتَّقي؟.. فأومأ بيده إلى لسانه(124). وقال عقبة بن عامر. قلت: يا رسولَ الله، ما النجاة؟.. قال: "أمسك عليك لسانك وليسعْك بيتُك وابْك على خطيئتك"(123). وقال معاذُ بن جبل: قلت: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: "ثكلتك أمُّك يا ابنَ جبل، وهل يِكبّ الناس في النار على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم؟.."(122). وقال عبد الله الثقفي: قلتُ: يا رسولَ الله، حدّثني بأمر أعتصمُ به، فقال: "قل ربي الله ثمَّ استقم" قلت: يا رسولَ الله، ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلساني وقال: هذا(121).

وقال أنس بن مالك: قال ﷺ: "لا يستقيم إيمانُ العبد حتَّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتَّى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجلٌ لا يأمن جاره بوائقه"(120).

وروي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، وهو يمدُّ لسانه بيده، فقال له: ما تصنع يا خليفةَ رسول الله؟ قال: هذا أوردني الموارد.. أنَّ رسول الله ﷺ قال: "ليس شيء من الجسد إلّا يشكو إلى الله اللسان على حدته"(119).

ومِن أشدِّ آفات اللسان وأكثرها توعدًا في القرآن والسنة هي آفةُ

الكذب، فقد علَّمنا رسول الله وشدَّد وأكَّد أن المسلم لا يكذب، والمسلمُ مَن سلمَ الناس من لسانه ويده، ولكنّ هناك صورًا من الكذب قد يغفل عنها المسلم فَيُكْتَب كاذبًا ومازال يكذب حتَّى يكتب عند الله كذّابًا، ويطرد من رحمة الله وهو لا يدرك أنّه يكذب، وقد تناول القرآن الكريم والأحاديثُ النبوية هذا النوعَ من الكذب تناولًا دقيقًا متمثلًا في حادثة الإفك.

فحديثُ المسلم عن أخيه المسلم بكلِّ ما يسمع ليس بغيبةٍ فحسب؛ بل هو صورةٌ من صور الكذب.

"كَفى بالمرء كذبًا أن يُحَدّثَ بِكل مَا سَمِعْ"(118).

وقد عالج الإسلامُ هذه القضية في أكبرِ وأضخم معركةٍ خاضها رسولُ الله ﷺ، وخاضتها الجماعة المسلمة، وخاضها الإسلامُ آنذاك؛ ألا وهي "حادثة الإفك"، ونزلَ به القرآن مهذبًا مُعلمًا، وأنّه إنْ نزل متجسدًا باتهام أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلّا أنه صورةٌ تتكرَّر في كلّ جيلٍ بصور مختلفة تريد النيلَ من القيادة المسلمة، وعلى مُختلف المستويات في شتَّى مجالات الحياة، فحينما تعجز القوةُ المادية عن النيل من القيادة فإنها تسعى إلى الحربِ المعنوية تريد النيلَ من شخصِ القائد في طريقة قيادته أو أمانته أو اختياره لبطانته أو أبعد من ذلك، وبذلك ذهب المفسرون في تناولهم لحادثة الإفك لا كحدثٍ تاريخي بتفاصيله ودروسه فحسب، بل كنموذج لحربِ الإشاعة التي يبثُّها ويشنُّها العدوُّ ضدَّ أي قيادة إسلامية نزيهة ومتجرِّدة، ولذلك كان النصُّ القرآني في سورة النور، وهو يُعالج هذه القضية جلّ خطابِه للصفِّ المسلم لا المنافقين، ويحمل على المسلمين الذين انجرفوا في القضية.

ومِن الدروس المُستفادة عدمُ الأخذ بالإشاعة، كما يقول القرآنُ الكريم ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ

فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (117)، فأيُّ خبرٍ غير موثق مرفوض، وبذلك لا بدَّ للمسلم أن يعلم أنَّ تناقل أي خبرٍ غير موثق هو صورةٌ من صور الكذب، وتحيل المسلمَ إلى كاذب، وهذا حُكمُ القرآن عليهم حتَّى وإن كان نقله نقلًا صحيحًا دقيقًا محصنًا عمَّن سمع منه، فقد حكم اللهُ عليه بالكذب وهو عندَ الله تعالى من الكاذبين.

والدرسُ الثاني أنْ يبقى الميزانُ الدقيق الحسّاس في الحكم على الشائعة هو الميزانَ الذاتي باعتباره خطَّ الدفاع الأول عندَ المجتمع المسلم كما وجَّه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (116)، فلا بدَّ من أن تكون ثقةُ المسلم بأخيه كثقته بنفسه، كذلك فعلَ أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما كما روى الإمامُ محمد بن إسحاق أنَّ أبا أيوب قالت له امرأته أمُّ أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناسُ في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلكَ يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنتُ لأفعله. قال: فعائشةُ والله خيرٌ منك(115). ونقل الإمام محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: "الكشاف" أنَّ أبا أيوب الأنصاري قال لأمِّ أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظنُّ بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسولَ الله، ﷺ، فعائشة خيرٌ منّي، وصفوان خيرٌ منك.

يقول القرآن الكريم في سورة النور ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾..(114)

كيف يتلقَّى اللسان؟ إنما الذي يتلقَّى الأذن ثمَّ يُنقل الكلامُ

إلى العقل يتأمله، والقلبِ يتدبَّره.. ولكن القرآن الكريم دقيق الألفاظ، مُحكم المعاني، وإنّما قُصد بها أنَّ الذين يتناقلون الشائعاتِ إنما يتلقَّونها بألسنتهم دون أن يُحكّموا العقل والقلبَ فيما يتناقلون لسان يتناقل عن لسان دون تدبُّر ولا تروٍّ ولا فحص ولا تدقيق ولا إمعان ونظر، فهي كلماتٌ تتلقاها الألسن، وتقذف بها الأفواه "وكَفى بالمرء كذبًا أن يُحَدّثَ بِكل مَا سَمِع"(113).

وبذلك قال الله تعالى﴿وَتَحسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾..(112)

إنَّ أشدَّ ما تعاني منه المجتمعاتُ الإسلامية هو إهمالُ ملاحقة مثيري الشائعات وناقلي الإفك، وبذلك تتوالى الفتن وراءَ الفتن في أصغر وحداتِ المجتمع وهي الأسرة، إلى أكبرها وهي الأمة، وازديادُ الشائعات هو انعكاس ضعف البناء الداخلي في المجتمع المسلم.

وعندما تتناقلُ هذه الشائعات على ألسنة مسئولين أخذوا عهدَ الله عندما وُضعوا في مناصبهم فإنَّ الأمر أعظم وأكبر، ويصبحون أبواقَ سوءٍ ومُسعّري فتن ليشغلوا بهذه الشائعات أصحابَ الرسالات ويستنزفوا قواهم ويعرقلوا مسارهم، ولكنْ هيهات هيهات لأصحابِ الشائعات والفتن أنْ ينالوا من أصحاب الرسالات.

لم تنتهِ أمُّ المؤمنين عائشة من البكاء حتَّى ظنت أنَّ البكاء سيصدع كبدَها، وحين ووجِهَت بالأمر من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث، فقالت: "إني والله قد علمتُ أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم فصدقتم به، فلئنْ قلت لكم إنّي بريئة لا تصدقوني، ولئنِ اعترفت لكم بأمرٍ يعلم اللهُ أنّي منه بريئة لتصدقوني. وإني والله ما أجد لي مثلًا إلّا أبا يوسف، إذ يقول:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾..(111)

نعم، "كَفى بالمرء كذبًا أن يُحَدّثَ بِكل مَا سَمِعْ"(110)، وصدق ربُّ العالمين سبحانه وتعالى في ما تلاه القرآن على لسانِ لقمان ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (109).

وقال أبو هريرة: قال رسولُ الله ﷺ: "مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمت"(108).

---

(124) أورده الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وأنكره.

(123) سنن الترمذي، برقم 2406.

(122) أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 845.

(121) صحيح الترمذي، برقم 2410.

(120) أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 2841.

(119) أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 71.

(118) أورده الألباني في الباعث الحثيث، برقم 310.

(117) سورة النور: 13.

(116) سورة النور: 12.

(115) أورده الطبري في تفسيره.

(114) سورة النور: 15.

(113) سبق تخريجه.

(112) سورة النور، من الآية 15.

(111) سورة يوسف، من الآية 18.

(110) سبق تخريجه.

(109) سورة لقمان: 16.

(108) سنن أبي داود، برقم 5154.

دوافعُك أوْلى بالتحرّي مِن غاياتك

توقَّفت عندَ مقولةٍ للعقاد يقول فيها: "غِناك في نفسك، وقيمتك في عملك، ودوافعك أولى بالتحري من غاياتك"، وتأملتها ثلاثةَ أشهر أقلِّبها على أوْجهها المختلفة وجوانبها المتعددة لعلّي ألمس غورَ أسبارها وأصلُ إلى عمقها الذي نشدَه العقاد عندما خطَّها بقلمه، وكلما مَكَّنْتُ لهذه الجملة من فكري وفؤادي مَكَّنَت لي من معانيها، وأخرَجت لي من أعماقها دُررًا وجواهرَ ولآلئ تثري الروح.

"ودوافعُك أولى بالتحري من غاياتك" ساءلت نفسي كم من العمر نقضي وجلُّ همِّنا هو تحديدُ الأهداف والغايات وتلمُّس الوسائل لتحقيقها.

جلُّ أوقاتنا على المستوى الشخصي أو على مستوى العمل تصرف في تحديد الرؤية والرسالة والغايات والأهداف والوسائل، كم من العلوم استحدثتْ لتعيننا على تعريف الأهداف والغايات، وكم من المعايير وضعت لمحاولة قياس مدَى تحقيق هذه الأهداف والغايات "Key Performance indicators" "Balance Score Cards" وكم من الجهود توضَع في المؤسسات والشركات في محاولة تحقيق رسالة المؤسسة أو الشركة، وتحديد الدور الذي يجب أن يقومَ به أصغرُ موظف في المؤسسة لتحقيق الغاية المرجوَّة، وكم من برامج التدريب التي تقوم بها الشركات من أجل تجميع قوى العاملين نحو هدف وغاية واحدة.

ولكن كم من الجهود تبذَل في تحري الدوافع والنوايا؟..

ومما لا شكَّ فيه أنَّ كلَّ طاعة تنتظم بنية وعمل، وأنَّ النية من جُملة الخيرات، وأنَّ العمل من جُملة الخيرات، لذا فإنَّ صناعةَ النية هي من الأهميَّة بمكان، بل هي علمٌ، ولكنَّنا للأسف الشديد لمْ ندرسه في المدارس والجامعات، وكانت من أهمِّ العلوم التي

حرصَ عليها الأوائل وطبقوها ومارسوها، وكما أوضحَ الغزالي في كتاب "الإحياء" فإنَّ من السلف مَن امتنعوا من جملة من الطاعات إذْ لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون ليس تحضرُنا فيه نية، وكان أحدُهم إذا سُئل عملًا من أعمال البر يقول: إنْ رزقني الله تعالى نيةً فعلت، وكانوا لا يرونْ أن يقدموا على عمل إلَّا بنية؛ لعلمهم وتيقنهم أنَّ النية هي روح العمل، وأن العملَ بغير نية صادقة رياءٌ وتكلف، وقد يكون سببَ مقت لا سببَ قرب.

والناسُ كلهم هلكى إلَّا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلَّا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلَّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعملُ بغير نية عناء، والنيةُ بغير إخلاص رياء.

قال رسولُ الله ﷺ: "إنَّ العبد ليعمل أعمالًا حسنة فتصعد الملائكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنَّه لم يردْ بما فيها وجهي، ثمَّ ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا إنَّه لم يعمل شيئًا من ذلك فيقول الله تعالى إنَّه نواه"(126).

والفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يروي عنْ رسول الله، ﷺ، أنَّه قال: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فَمَنْ كانت هجرتهُ إلى الله ورسوله فَهجرتهُ إلى الله ورسوله، ومَنْ كانت هِجرتهُ لدنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهِجرتهُ إلى ما هَاجر إليه"(125). هذا الحديث من أصول الإيمان الكبرى، ويسمِّي الفقهاءُ ذلك "باب تحرير النية".

عندما تُفرَّغ الأعمال من روحها ألا وهي النية فإنَّها تصبح غاياتٍ دنيوية لا أهداف للوصول إلى الغايات المرجوَّة من الإنسان خليفة الله في الأرض، وتصبح الوسائل غايات وأهدافًا.. وتتفشى المفاهيم الخاطئة مثل أنْ تبرّر الغاية والوسيلة.. وتتحكَّم

الأهداف والغايات المادية في تصرفات الفرد والمجتمع، وتضيع روح الشرع والمقاصد العليا التي يبتغيها الشرعُ بضياع روح العمل.

فالنيةُ هي الروح المتعلقة بالله تضفي على الأعمال أرواحَها وتربطها بحبالٍ للسماء، وعلى قدر إصلاح النيات وإخلاص العمل لمَن هو أحقُّ به وأهله والمجزى به، يكون حال الفرد والمجتمع ويكون قبول الله للعمل وتوفيقه في حصول الغايات والأهداف، فالنية سببُ التوفيق، ولا توفيقَ بدون نية.. ومن حُرم التوفيق ضَلَّ مَسْعَاه وتبددت جهوده وفاتَ عليه الكثيرُ في الدنيا والآخرة وإن ظنَّ أنه يحسن صنعًا.

---

(126) رواه أنس بن مالك، مسند البزار، برقم 8.

(125) متفق عليه.

القلمُ وما يسْطرون 1

أوقفني صاحبي وصديقي وزميل عملي ذات يوم وهوَ خارج من غرفة العمليات، وأنا أقوم بجولتي اليومية في المستشفى، فقال لي: غاب عنّا قلمك وافتقدنا كلماتك التي كنّا نقرؤها في عمودك الأسبوعي.. فأجبته قائلًا: كلما رفعتُ قلمي لأخطَّ به كلمات أحاول وأجتهدُ أن أُصلح بها فاسدًا ممّا أرى وأعايش كلّ يوم، تذكرت أنني على مدى قرابةِ عقدين من الزمن قد تناولت الموضوع وكتبتُ عنه وفنّدَت وأسهبت واقترحت مرَّةً أو أكثر على قدر فهمي وعلمي، فلم أجدْ في واقع الحال للقلم والكلمة قوة التغيير التي رأيتُ وعايشت على مدى عقدين من الزمن، وأنا في أمريكا، بل وكلَّما رفعت قلمي لأكتب كلمةً لعلّي أصلح بها فاسدًا أتذكر نصائح كلّ من حولي من المخلصين العاملين معي في المستشفى وخارجها يناشدونني أن لا أنتقدَ وضعًا أو أكشف زيفًا وفسادًا لأي جهة كانت حتَّى لا نصبح هدفًا لكل مَن انتقدناه وندفع ثمنًا غاليًا، وتوضع لنا العراقيل وتتعطَّل مصالحنا التي بدونها لا نستطيع تحقيق رسالتنا، وبذلك نكون لم نغيرْ مجتمعنا ولم نصلحْه بل أفسدنا نواةَ عمل بين أيدينا على المدى القصير والبعيد فيها خير لمجتمعنا الذي نسعى لخدمته.

فآثرت أن أكرِّس الوقت الذي كنت أستثمرُه فجر كلّ جمعة للكتابة، فيما أظنُّ أنه أصلح لي وللقضية التي أنا مسئول عنها مسئولية مباشرة، والتزاماتي الأخرى التي تدخل في دائرة التأثير لا دائرة الاهتمام.

ووعدتُ زميلي أن أكتبَ عن هذا الحوار الذي دار بيننا وافترقنا.. ولكن لهيب النار التي أوقدها في ذاتي بسؤاله لم تفارقني حتَّى لحظتي هذه؛ لشدَّة ما أرثى لحالي وحال مجتمعي الذي

أعيش فيه.

وأبكي على القلم.. القلم الذي اختاره اللهُ ليعلم به، فقال عزَّ من قائل "علَّم بالقلم".

وكيف لمجتمع أن يصلحَ ويزدهر ويتقدم، وهذا حال القلم فيه.. كم من أقلام تكسَّرت على صخور الواقع المرير ولم تغيِّر في مجتمعاتها شيئًا يُذكر. وصلت إلى قناعتي الخاصة أنَّ المجتمعات لا تتغير بالمواعظ والخطب والمقالات وإنَّما بالقدوات والأعمال التي تنطق بلغتها أصدق الكلمات، ولتوصل للأفئدة أبلغ المعاني التي قد تعجز الكلمات المسموعة والمقروءة أن تبلغها.

هناك مَن يكتب ليقرأ ويُقال كَتب.. وقراءة الناس لكلماته هي نهاية غايته، فيكون ثناء الناس على ما قرؤوه له هو جائزته الكبرى وأقصى ما يرجوه.

وهناك من يكتب ليحقق مصلحة ذاتية فَيُعْمِلُ كلّ ما آتاه الله من ملكاتٍ وذكاء ودهاء ليجمع الكلمات وينظمها في عِقد جميل من الحيثيات والمنطق لتحقيق غايته، فيكون تحقيق مصلحته هو مكافأته في الدنيا.

وهناك مَن يكتب لا ليُقرأ، وليس له فيما كتب حظٌّ من النفس ولا مصلحة ذاتية وبقلم مثل هؤلاء يجري الله الحق الذي بريده سبحانه.

وعلامة الواحد من هؤلاء أنه في كلّ يوم من أيام حياته يخطُّ بأعماله على أرض الواقع أكثرَ مما يخط بقلمه على الورق.

كتب الرافعي رحمة الله عليه في مقال له بعنوان "ساكنو الثياب.."(127) فقال: "ما أسخف الحياة لولا أنَّها تَدُلُّ على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين نراهم في عالم التراب

كأنَّ مادتهم من السحب، فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلو والجمال، يُثبتون للضعفاء أنَّ غير المُمكن ممكن بالفعل، إذ لا يرى الناس في تركيب طباعهم إلا الإخلاص وإن كان حرمانًا، وإلّا المروءة وإن كانت مَشقة، وإلّا محبة الإنسانية وإن كانت ألمًا، وإلّا الجدَّ وإن كان عناء، وإلا القناعة وإن كانت فقرًا.

هؤلاء قوم يؤلَّفون بيد القدرة، فهُم كالكتب قد انطوت على حقائِقِها وخُتِمت كما وضِعت، لا تستطيع أنْ تُخرج للناس من حقيقةٍ نصف حقيقةٍ ولا شِبه حقيقةٍ ولا تزويرًا على حقيقة".

رحمك الله يا رافعي وكتبك الله من هؤلاء.

---

(127) وحي القلم، ج 2، ص 237.

القلمُ وما يسْطرون 2

كتبتُ في مقال لي مقولة للرافعي، ومازلتُ أرددها "إن هذا الشرع لا يحيا إلا أن يختلط بلحم ودم ويمشي على الأرض".

وقد فوجئتُ بالكمِّ الهائل نوعًا وكمًّا من رسائل القراء تعقيبًا على المقال من صفوة المجتمعات العربية والإسلامية فكرًا وعلمًا ومكانةً، وكأنما أصابَ المقال موضعَ جرح قديم فقلَّب المواجع والآلام، وبدأ الجرح القديم ينزف منه الدم ويَسيل.

وقد اخترتُ بعضَ المقاطع من الرسائل، ولن أضع أسماء أصحابها لأني لم أستأذن منهم، وضاق بي الوقت لأفعل ذلك، وحذفتُ ما استطعت من كلماتِ الثناء على المقال دون إخلالٍ بالمعنى حرصًا على وقت القارئ، والتزامًا بالموضوعية، وخشية الوقوع في براثن وشراك حظوظ النفس.

"عزيزي الدكتور وليد فتيحي.. أعانه ربي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

قرأت مقالكم اليوم، الموجَّه لأصحاب الأقلام والقراء والمتابعين، فراودني شعور بأنه ربما هو أصدقُ كلام تكتبه.. أحسُّ كأنه كلام صادرٌ من وسط القلب.. محمَّلٌ بحسرة طالما أحسستُ أنا بها.. وطالما بلعت الكلمات ومزقت الورقَ وكسرت الأقلامَ لوجود ذلك الإحساس المؤلم، الإحساس بأنَّ الأذن ضرب عليها، والأعين مغمضة، والأفواه مكمَّمة، فلا أحد يرى أو يسمع أو يقول كلمةَ حقٍّ أو يرغب في الإصلاح.. فالتملقُ والنفاق والكذب هو القاعدة، وما عدا ذلك هو الشاذ.

نعم، أحسستُ بصدقك معَ ذاتك، ومع القراء. وأظنُّ قبل ذلك معَ ربك العالِم بكلِّ خافية، وأعرف تمامًا وأعيش ما تحسُّ

به من ألم وحسرة.. وأحسب أن كلّ مخلص لربه ثمَّ لأمته ووطنه يحسُّ بها.. حسرة وغصة وألمًا نقف أمامه مكتوفي الأيدي، نتألم ونتمزَّق من الداخل لما نرى وما نعايش وما نسمع.. ونحن نرى الأمةَ والبلد والمجتمع والفرد يطحن أو يطحنوا جميعًا ويمزَّقوا.. ليس فقط في المظهر، ولكن في القيمة، وفي الذات، وفي الكينونة، في الجوهر.. في النواة.

والسببُ هو هذه الأنا التي تحكم تصرُّفاتِ الكل.. وهذا الفكرُ المادي المسيطر على كلّ شيء في سلوكياتنا وتصرفاتنا. تلاشت الرحمة، وتلاشى التلاحم، وتلاشتِ الرَّوحانية والزهد، فالكلُّ يسعى لاستغلال الفرصة المتاحة وغير المتاحة للنَّهب وللذة المادية الحسية.

نعم، لقد لمستُ اليوم بكلامك يا سيدي وترًا أوجعني طولَ عمري.. وهو حبي لهذا البلد الذي أراه يتفكك قيميًّا وأخلاقيًّا، والقادم أسوأ.. ليس بأيدي غيرنا ولكنْ بأيدينا، فنحن مَن يدمِّر ذواتنا بذواتنا، مع وجود المؤامرة من الخارج التي لا ننكرها، ولكنْ أيضًا نحن بأيدينا مَن فتح الباب لهذه المؤامرة، ولهذا الخارج ليدمِّرنا في العمق بأيدينا نحن.

حقًّا يا سيدي.. إنَّ الواحد منا يقف حائرًا أمام ما يرى وما يعايش، فالتفاهات في الفكر، والفساد المتغلغل في كلّ مناحي الحياة.

آسف لإزعاجكم بكلامي الطويل، ولكن هو أقلُّ من تنهيدة أو زفرةٍ لأخ أكنُّ له التقدير، مع أني لا أعرفه ولا يعرفني.

دمْ على إخلاصك يا سيدي، وحبِّك لدينك ولبلدك وللمواطن الغلبان، وقدِّمْ ما استطعت له بلا انتظارٍ لشكر.. فربك أكرم، وهو يرى ولا تخفى عليه خافية". انتهى.

ورسالةٌ أخرى يقول كاتبها: "لقد أسعدتني وأزعجتني اليوم بمقالك الهادفِ في جريدة عكاظ، أسعدتني بواقعيتك في الطرح بالأفكار التي تغني عن آلافِ المقالات، والواقعية التي أنا من أشدِّ المتحمسين لها هي مع الأسف ما نفتقده في وطننا الغالي، وهي التي تبين مدى انتماء الإنسان لوطنه، وأنا مؤمنٌ بأنك ممَّن يتنفس الانتماء، وأزعجني ما لمسته من تردُّدك بالكتابة ومناقشة أحوال الوطن والمواطن بإخلاص وواقعية حتَّى لو مرَّ عليك عشرون سنة في الكتابة إلّا أنَّ عقيدتك ووطنيتك وأمانة الوطن في أعناقنا جميعًا تفرض عليك الاستمرارَ بدون خشية لومة لائم، فنحن في حاجةٍ لاستمرارك، ومَن يماثلك بالرأي، فالوطن يمرُّ بفترة عصيبة كمثل سفينة تواجه أمواجًا عاتية يبذل كلّ راكبٍ جهده للوصول بهذه السفينة إلى برِّ الأمان.. فاصدعْ يا أخي بفكرك ورأيك، واللهُ معك ولن يترك عملك". انتهى.

ورسالةٌ أخرى من مدينةِ بوسطن، يقول كاتبها: "مقالاتك هي كلمةٌ طيبة، والكلمة الطيبة صدقة، ومازالت الصدقة تصارع القضاء تردُّه في السماء تمنعه النزول، ولنا قدوة في شفيعنا عليه الصلاة والسلام حيث ظلَّ يدعو عشر سنين ولم يسلم معه إلّا القليل وليس عليك هدايتهم، ألا تحبُّ أن يدعو لك قراؤك المحبون الذين ينصلحون بما تكتب فلا تحبس ما أعطاك اللهُ عن عباد الله.. ها أنت تترحَّم على كاتب تحتَ الأرض مدفون". انتهى.

لم أكنْ أُدرك قبل أن تخطَّ يدي كلمات مقالي الأخير مدى الآلام والأوجاع التي يعاني منها أصحابُ الأقلام الهادفة المتجردة في مجتمعاتنا.

هذا حالنا، وعزاؤنا هو أننا نُسأل عن النية والعمل لا عن النتائج وإحداث التغيير، ولنا في أنبياءِ الله القدوة كلهم أخذوا بأسبابِ

الدعوة والإصلاح، ولكنَّ النتائج هي بيدِ الله وحده لا شريك لله فيها، وصدق الله العظيم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (129).

فمنهم مَن دعا قومَه أكثر من تسعمائة عام فما آمن مِن قومه إلّا قليل.. رحمةُ الله عليك يا نبي الله نوح، ومنهم مَن انقطعَ عن الدعوة والأخذ بالأسباب وقَنط من قومه وغضبَ عليهم فتركهم، وبالرغم من ذلك آمن كلّ قومه.. رحمة الله عليك يا نبيَّ الله يونس.. لله الأمرُ من قبل ومن بعد.

نعم.. بالقدوات لا بالمواعظ والكلمات والمقالات يسري في جسد المجتمعات أرواحُها فتحيا بها الأرض وتعمر.

وما جاء الأنبياءُ إلّا لهذا.. يقول الرافعي في مقال بعنوان (الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام) (128) "ويجيء النبي فتجيء الحقيقةُ الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثرًا، وأيسر فهمًا، وأبدع تمثيلًا، وليس عليها خلافٌ من الحِسّ. وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنسانًا واحدًا فَنَّ الناس جميعًا، كما تكون البلاغة فنَّ لغة بأكملها، هو الشخص المفسِّر إذا تعسَّف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمون منها، ولا كيف يتهدَّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا، ثمَّ يُخْلَقُ رجلٌ واحد ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائق الآداب العالية في قالبٍ من الإنسان العامل المرئي، أبلغ ممّا تظهر في قصةٍ متكلمة مروية.

وما الشهادةُ للنبوة إلّا أن تكون نفسُ النبي أبلغَ نفوس قومه، حتَّى لَهُوَ في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضعُ النفساني الدقيق الذي يُنْصَبُ لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء. وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي

تُنادي الناس: أن قَابلوا على هذا الأصيل، وصحِّحوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية". انتهى.

انقضت عصورُ الأنبياء وأُكْمِلت رسالتهم بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وما بقي على الأرض إلا العلماءُ ورثة الأنبياء، وأمةُ محمد تحمل هذا الإرثَ الثقيل والأمانة العظيمة التي أبتِ الأرض والجبالُ أن يحملنها وحملها الإنسان.. إنَّه لظلوم جهول.

---

(129) سورة الشورى، من الآية 48.

(128) وحي القلم، ج 2، ص 3و4.

القدوةُ بين التَّعريف والمُمارسة

عندما خلقَ الله الإنسان فطرَه على أن يكون مخلوقًا يعتبر ويتَّعظ ويتأثر بما يرى بالعين واقعًا حيًّا أمامه أكثر ممّا يسمع ويقرأ.. وجرت هذه السنةُ والفطرة على أنبيائه فسألَ بعضهم ربه ما يجسِّد هذه الفطرة ممّا أخبرنا به وقصه علينا القرآن الكريم.

فهذا سيدنا نبي الله موسى من أولي العزم مِن الرسل يقصُّ القرآن على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (136)، وهذا أبو الأنبياء وإمامُ الناس سيدنا إبراهيم الذي وفَّى ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (135).

وتجسَّدت هذه الفطرةُ على لسان أقوام طالبوا أنبياءهم بآيات مرئية يشاهدونها بأم أعينهم قبل أن يؤمنوا: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (134)، وبذلك اقتضت حكمة الله أن توافق وسيلة تبليغ الرسالات هذه الفطرة، وهو سبحانه أعلم بما خلق، فبعث الأنبياء والرسل من البشر يشتركون مع مَن يدعون إلى الله بخصائصهم وصفاتهم البشرية ليكونوا بذلك القدوة والمثل الناطق المتحرك العامل الذي يريهم تطبيقًا وعملًا على أرض الواقع لصورة البشرية الكاملة تدبُّ وتمشي على الأرض: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ (133).

وجاء خاتمُ الأنبياء والمرسلين سيدُ البشرية أجمعين سيدُنا محمد ﷺ ليُقدم الصورة الكاملة للبشرية جمعاء إلى قيام الساعة، فكان ﷺ قرآنًا يدبُّ على الأرض، وجاء القرآن يزكّيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾ (132)، كما قالت أمُّ المؤمنين عائشة: "كان خلقه القرآن".

فكان بمثابةِ المرجع للإنسانية والمعجم المترجم للمعاني العالية السماوية بلغة الأرض الترابية.

وحتَّى لا ينقطع هذا النوع من الدعوة الفعَّالة المنسجمة والمتوافقة مع الفطرة التي خلق الله بها الإنسان استمرت المسيرةُ فحملها أصحابُ رسول الله من بعده، والتابعون من أمة محمد.. أمة الخير إلى قيام الساعة، وبذلك أصبحت أمةُ محمد ﷺ هي الوريثَ لهذا الإرث العظيم، وأخطرُ ما يمكن أن تبتلى به الإنسانيةُ هو غياب القدوات، فبغيابها يصبح الشرع والدين أشبهَ ما يكونا بأسطورة تقرأ لا رصيدَ لها على أرض الواقع.

"إنَّ هذا الشرع لا يحيا إلّا أن يختلط بلحم ودم ويمشي على الأرض"، ومن الخطر بمكان أن ينتشر الاعتقاد الخاطئ، والمقولةُ المغرضة أنَّنا نفتقد القدوات أو نعدمها؛ لأنَّ مثل هذه المقولة تبعث في النفوس مفهومًا خاطئًا، ألا وهو أنَّ الشرع الذي ما جاء إلّا ليتمم مكارمَ الأخلاق غير قابل للتطبيق، وبذلك تجد الإنسانية فسحةً وذريعة أن لا تسعى للارتقاء، وأن لا تنشد صور الكمال، ولكننا إذا أمعنّا النظر في الأمر فإننا سنجدُ أن الذي ضاع منا ليس هو القدوات؛ وإنما تعريفنا للقدوات، فتعريفُنا الخاطئ للقدوة هو الذي أدَّى بنا إلى أن نغفلَ عن رؤيتها في بعضنا بعضًا.

أمّا التعريفُ الخاطئ للقدوة، فهو أن يجمع الشخص صاحب القدوة كلّ الخصال في صورها الكاملة، وبهذا التعريف الخاطئ نغفلُ عن تسليط الضوء على خصلةٍ في شخص ما يكاد يصلُ فيها إلى صورة الكمال بمجرَّد تقصيره في ناحية أخرى.

وكما ذكرنا أنَّ الكمال في جميع النواحي لا يأتي إلّا لأنبياء الله، وصورتهم الكاملة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، ولو صحّ لغيرهم من البشر لكانَ مع صحابة رسول الله.

فهذا سيفُ الله تعالى وفارسُ الإسلام وليثُ المشاهد قائدُ المجاهدين خالد بن الوليد، الذي لم يبقَ في جسده شبر إلّا وعليه طابعُ الشُّهداء الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ: "إنما خالد سيف من سيوف الله صبَّه على الكفَّار"(131)، فهو بذلك خيرُ قدوة في هذا المجال، وهو الذي يقول: ما مِن ليلة يهدى إلي فيها عروس أنا لها محبٌّ أحبُّ إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرةِ الجليد في سريَّة أصبّح فيها العدو.

ولكنه في نفس الوقت لم يكن قدوةً في مجال آخر، وكان يعلم ذلك، فقال عنه قيسُ بن أبي حازم: سمعت خالدًا يقول: منعني الجهادُ كثيرًا من القراءة. وكان يخطئ في قصار السور.

وهذا سيدُنا حاطب بن أبي بلتعة، ممَّن شهدوا بدرًا، وكان رسول النبي ﷺ إلى المقوقس صاحب مصر، وكان من أمهر الرُّماة الموصوفين، وكان له موقفٌ عظيم في معركة أحد، وممّا روي عنه "أنه اطَّلع على النبي ﷺ بأحد، قال: وفي يد على الترس، والنبي ﷺ يغسل وجهه من الماء، فقال حاطب: من فعلَ هذا؟ قال: عتبة بن أبي وقاص، هشم وجهي، ودقَّ رباعيتي بحجر! فقلت: إني سمعت صائحًا على الجبل: قُتل محمد! فأتيت إليك. وكأن قد ذهبت روحي. فأين توجَّه عتبة؟ فأشار إلي حيث توجَّه. فمضيت حتَّى ظفرت به، فضربته بالسيف، فطرحتُ رأسه! فنزلت فأخذت رأسَه وسَلبه وفرسه، وجئت به إلى النبي ﷺ فسلَّم ذلك إليَّ، ودعا لي. فقال: رضي الله عنك!.

فكان بذلك قدوةً في كلّ ما ذكر أعلاه، ولكنه لم يكنْ قدوة في

عمله الذي فعل عندما كتب إلى كفَّار قريش كتابًا يعلمهم بقدوم المسلمين عليهم في فتح مكة، فقال عمر: ائذنْ يا رسول الله في قتله، من منطلق أنَّها خيانة عسكرية، فقال: لا؛ إنَّه قد شهد بدرًا، وإنك لا تدري لعلَّ الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإنّي غافر لكم.

وهذا حسانُ بن ثابت المؤيدُ بروح القدس الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ : "إنَّ الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله"(130)، وقد فعلَ فكان قدوة في تجنيد الكلمة والشعر للدفاع عن الحق، ولكنه لم يكن قدوةً لما خلف رسول الله ﷺ نساءه يوم أُحد، خلفهُنَّ في فارع، وفيهن صفيَّة بنت عبد المطلب، وخلَّف فيهن حسان، فأقبل رجلٌ من المشركين ليدخُل عليهن. فقالت صفية لحسان: عليك الرجل. فجَبُن، وأبى عليها. فتناولت السيف، فضربت به المشرك حتَّى قتلته.

قالت صفية: فقطعتُ رأسه، وقلتُ لحسان: قُم، فاطرحْه على اليهود، وهُم تحت الحصن. قال: والله ما ذاك فيَّ. فأخذتْ رأسه، فرميتْ به عليهم. فقالوا: قد علمنا والله إنَّ هذا لم يكن ليترك أهله خُلوفًا، ليس معهم أحد، فتفرقوا.

إنَّ علينا إعادة قراءة السيرة وفهمها، وإعادة تعريف القدوة حتَّى نستطيع أن نراها في واقعنا، هناك بحق قدوات حية في أيامنا هذه تكاد تصلُ في بعض الصفات والنواحي إلى صورة الكمال، وإنِ ابتعدت عنها في نواح أخرى، ولو سلَّطنا الأضواء على نواحي القدوة في كلّ واحدٍ منّا سنجد أنَّ الأمة ستعمل عمل النبي الواحد، كلّ واحد منا لا يَرقى أن يصلَ إلى الصورة الكاملة للنبي، ولكن مجموع القدوات إذا اجتمعت في أمةٍ واحدة أو مجتمع واحد جسدت الصورة الكاملة التي جاء الأنبياء ليحيوها على الأرض.

وبذلك يصبح عملُ مجموعة من الناس أو مجتمع أو أمة هو عملَ النبي الواحد.

***

ينصب كلُّ إنسان لنفسه شاء أم أبى راية تحدِّد وجهته، ومهما خفيت هذه الراية على كثيرٍ من الناس إلا أنها ظاهرةٌ جلية للخالق البصير الخبير، ويرى آثارها على القول والعمل مَن حباهم اللهُ النظر في الأمور بعين الآخرة ونور الإيمان بها.. لا بعين الدنيا وزيف بريقها.

وهذه الرايةُ تكون واحدة من ثلاث: إمّا أنانية أو إنسانية أو ربانية..

أمّا الأنانية فهي راية (الأنا) فترى الهمَّ الشاغل لصاحبها أن يحقق أكبرَ قدرٍ من متاع الدنيا وزخرفها في أقصر وقت ممكن. وبأية وسيلة كانت..

وأمّا راية الإنسانية، فهي راية مَن كان فيه وازعُ خير يوجِّهه في خدمة الإنسان ومِن أجل الإنسانية، ويحاول تحقيقه على أرض الواقع ولكنّه لا يربطها بالسماء بنية أو بغاية..

وأمّا الربانية، فهي رايةٌ أراها نادرة في عصرنا هذا، وهي أوسع من سابقتها، إذ يحقِّق حاملها خدمة الإنسانية في أجمل صورها وأعلى غاياتها حينَ يربطها بالسماء غايةً وأسلوبًا وشرعًا من لدُن حكيم عليم.

وحملةُ هذه الراية الربانية دائمًا هُم أصحاب رسالات وقضايا يتحرَّقون لرؤية روح السماء متمثّلة متجسدة في مشاريع حضارية تخدم الإنسانَ بشرع وهدي السماء، ومِن سيرة هؤلاء يُستقى العلم، وتُستوحى الأفكار، وتُستخلص الدروس.

وقدْ آليت على نفسي أن أُجند قلمي لخدمة هذه الأفكار البنّاءة لأصحاب الرايات الربانية الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإنسان والإنسانية، ولتجسيد روح هذا الشرع العظيم حركةً فاعلةً وواقعًا مشهودًا، ومشروعًا حضاريًّا رائدًا لينهض مرةً أخرى بالأمة، ويعيدها إلى مكانتها العالية التي وعدها اللهُ لكلِّ مَن يحمل آخر رسالات السماء حق حملها.

وبذلك يمكن أن تتجسَّد في مجموع تلك القدوات صورةُ النبي الواحد من خلال صفاته وهو يدعو الناس لله، وبذلك يكون عملُ الأمة كلها من مثلِ عمل النبي الواحد، ولا تكون نهضتها إلّا من خلال هذا المجموع التراكمي لمشروعات الأفراد فيها.

فبدلًا من أن يكون هذا الحديث باعثًا للأمل في النهضة يصبح سببًا في التكاسل والانتظار الحالم، وبمثل هذا المنطق فإنَّ انتظار الصورة الكاملة لذلك المسلم المجدد ليغير حال الأمة فكر قاصر يحتاج إلى تصحيح.

وهذا فهمٌ خاطئ أشار إليه علماء أفاضل، منهم د. يوسف القرضاوي في كتاب "من أجل صحوة راشدة" حين لمح في كتابه إلى أنَّ التجديد مسئولية جماعية وليس بالضرورة أن يناطَ بفرد واحد. والقارئ الدارس المتمعن لتاريخ العصور الذهبية لسيادةِ أمتنا يجد هذا واضحًا جليًّا، فهذا صلاح الدين الأيوبي مثلًا لم يكن في بدايته سوى نبتة في أرض حرثها ومهدها من قبْله أجيالٌ تعاقبت، كلٌّ يضيف إلى سابقه فلمّا تمَّ تمهيد وحرث عقول وقلوب أبناء ذلك الجيل، وألقيت بذور الخير فيها فتضافرَ كلّ فكر نيّر وعلمٍ أصيل على تهيئة المناخ لظهور النبات ونموه، وأحال تعهده ورعايته وحماية نبتته إلى شجرة ذاتِ جذور راسخة وثمارٍ يانعة، وعملت مؤازرتها بفكر العمل الجماعي ورفع راية (الربانية) وتنكيس راية (الأنا) أو الأنانية على إخراج أبناء ذلك الجيل

كشطء يؤازر أشجاره التي استغلظت واستوتْ على سوقها، فكان صلاح الدين الأيوبي من تلك الأشجار.

فصلاح الدين "لم يكن في بدايته سوى خامة من خامات جيل جديد مرَّ في عملية تغيير غيرت ما بنفوس الناس من أفكار وتصورات وقيم وتقاليد وعادات ثمَّ بوّأتهم أماكنهم التي تتناسب مع استعدادات كلّ فرد وقدراته النفسية والعقلية والجسدية، فانعكست آثارُ هذا التغيير على أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية" وهكذا ظهرَ جيلُ صلاح الدين.. (من كتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين، للدكتور ماجد الكيلاني).

ولا يشكُّ أحدٌ في عبقرية صلاح الدين الأيوبي وتميُّزه كقائد عظيم فذّ، إلّا أن إرجاع سبب النصر لصلاح الدين وحده يُعد اختزالًا لدورِ أفراد كثيرين قبله وبعده وأثر مؤسسات عديدة بل وأمة بأكملها، فالقارئ لتاريخ هذه الحقبة سيعرف دور الغزالي وفلسفته في التربية والتغيير، ودور عبد القادر الجيلاني ومدرسته القادرية ومثلها المدرسة العدوية والبيانية، كما لا ننسى دورَ الشيخ الجعري والجوسقي والجبائي، وغيرهم كثيرون.

إنَّ مشروع دور القيادات والأفراد في نهوض الأمة لا يمكن فصلُه عن تلاحم مدارس الإصلاح عبر السنين في تخريج مثل نور الدين محمود زنكي وأسد الدين شيركوه قبل أنْ يظهر صلاح الدين الأيوبي بطلًا يخلده التاريخ، ونخلص ممّا سبق إلى أنَّ مشروع النهضة الحضارية للأمة هو مسئولية كلّ فرد في المجتمع، وهو المجموع التراكمي لمشروعات الأفراد، كما أنه مسئولية جماعية على كلّ فردٍ من موقعه الذي سوف يسأله الله عنه.

---

(136) سورة الأعراف، من الآية 143.

(135) سورة البقرة، من الآية 260.

(134) سورة المائدة، من الآية 112.

(133) سورة الفرقان: 8 7.

(132) سورة القلم: 4.

(131) رواه عبد الله بن أبي أوفى، أورده الشوكاني في در السحابة.

(130) سنن أبي داود، عن عائشة أم المؤمنين، برقم 5051.

أصحابُ القضايا

ما كتب اللهُ الخير أن يكون في الأرض إلَّا واختار له مَن يحمله، فنظرَ العليم في قلوب عباده أيها أصلح لحمل هذا الخير، فقذفها سبحانه قطرةً في بحرِ وعاء قلبه، وما أن لامستْ سطحه حتَّى تمدَّدت واتسعت وصبغت كلّ ما فيه بلونِها وتعمقت فيه وترسَّبت ووصلتْ إلى القاع حتَّى لا يبقى في الوعاء قطرةٌ أو ذرة إلَّا وصبغت بما فيه من خير حتَّى ليطرد كلّ ما دونَ ذلك، وإذا تمَّ ذلك واكتملَ أصبح صاحبُ القلب هذا يُعَرَّف بما احتوى عليه وعاءُ قلبه وفاضَ وأصبح همُّه الشاغل، وعندئذ فقط يصبح حاملُ هذا القلب صاحبَ رسالة.. وصاحب قضية.

وأصحابُ القضايا هؤلاء نادرون، يأتون على وجْه الأرض على قدْر ما كتب اللهُ للأرض من خير يكون في عصرهم، وللواحد منهم علاماتٌ وصفات لا تخطئهم.

•فمِن علاماتهم أنهم يحيونَ لرسالتهم وقضيتهم التي يحملونها أكثرَ ممّا يحيون لأنفسهم، ويعيشون لغيرهم أكثر ممّا يعيشون لذواتهم، فَيزداد بذلك شعورُهم بالحياة على قدر ما يشعرون بالخير الذي يحملون، فنجد الواحد منهم سعيدًا بهذا الشعور سعادةً لا يفهمها أو يدركها غيره من الناس، وتضفي عليه هذه السعادة حياة فوق الحياة حتَّى ليكون إحساسُهم وشعورهم بالحياة مضاعفًا، فهُم يكسبون أيامًا فوق أيامهم، وأعوامًا فوق أعوامهم، فالحياة ليست بعدد الأيام والأعوام وإنّما بحجم المشاعر التي نحياها، وبذلك تكون الحياة لهم أطولَ وأقيم من غيرهم حتَّى وإنْ فارقوا الحياة في شبابهم، وهل تُقاس الحياة إلَّا بقدر شعورنا بها؟

ويرزقونَ بذلك طاقة عَجيبة فوق طاقاتهم، وينجزونَ في فترة قصيرة ما يعجز الآخرون عن إنجازه طوال حياتهم، وكيف لا

يكون ذلك وهُم ينهلون من النَّبع الحقيقي الصافي للطاقة الذي يضفي الحياةَ على كلّ شيء كائنًا ما كان وما سيكون.

•ومِن علاماتهم أنك تجد آثارَ سجود قلوبهم وجوارحهم في محراب الحياة وعمارة الأرض ونفع الإنسانية أكثر ممّا تراه في غيرها من صور العبادات، فيكون الواحدُ منهم بمثابة المعنى الصحيح المتحرك العامل الذي يصحح اللهُ به ألفَ معنى خاطئ قولًا وفعلًا.

•ومِن علاماتهم أن شدةَ حرصهم على تحقيق غاياتهم النبيلة لا يزيدهم إلَّا حرصًا على تطهير وسائل تحقيقها، فالروحُ التي تموت لغياب الهدف النبيل، هي الروحُ ذاتها التي تمرض وقد تموتُ لتلوث وسائل تحقيق هذا الهدف، فتجدهم يضيقون ذرعًا بالوسائل الملتوية وإنْ أُلبست في عُرف مجتمعاتهم ثيابًا غير ثيابها، وسُميت بأسماء غير أسمائها، وتبلَّدت الأحاسيس تجاه قُبحها، فيسمّون الأشياء بأسمائها الحقيقية لا كما زيّنتها الشياطين لأهواء الناس وزيَّفتها المجتمعات لتحقيق مصالحها وتلبية رغباتها وشهواتها، وهُم إذ يفعلون ذلك لا يفعلونه إلَّا لحماية أرواحهم وهي تتعامل مع الأسباب لأنَّهم يدركون أنها أقيمُ ما يملكون بما امتلأت به من الخير الذي يحملون.

•ومِن علاماتهم أنَّهم يفرحون إنْ شاطرهم الناسُ أفكارهم، بل وإن سرقوها منهم ونسبوها لأنفسهم، فرحتهم لحمل الآخرين همَّ رسالتهم وقضيتهم ممّا يزيد سرعةَ انتشارها وقربَ انتصارها، والمحاسب عندهم هو الرقيب العليم سبحانه، وهُم يدركون أنهم ليسوا إلَّا وسطاء خير وأدواتٍ بين يدي خالقهم يحقق بهم قدره وينشر بهم خيره.

•ومِن علاماتهم أنَّهم يزدادون استشعارًا وإحساسًا وإدراكًا

بقوة وعظمة خالقهم كلَّما ازدادت قوتهم، فلا ترى الزيادة بكلِّ أشكالها تصيب الواحدَ منهم إلَّا بتعميق جذور إيمانه برسالته وقضيته وتوثيق نَصر الخالق له.

•ومِن علاماتهم أنَّ الواحد منهم إذا تحدث عن رسالته وقضيته التي يؤمن بها والخير الذي فيها تجاوبت له القلوب قبلَ أن تدركه العقول، ذلك أنَّ الخير الذي امتلأ به وعاءُ قلبه وفاضَ هو الذي يخاطب الخير الذي في غيره من العباد، فيتجاوب العنصرُ السماوي الخالص في طبيعة الإنسان المستمع له أيًّا كان فيستجيب.

•ومِن علامة الواحد منهم أنَّ النجاح والتمكين لا يأتيه إلَّا بعدَ ابتلاء واختبار وتمحيص، وتجري عليهم سنن وقوانينُ الزراعة والزرّاع من وضع بذرة الخير وتحمَّل أعباء رعايتها والصبر عليها حتَّى تنمو وتضرب لها جذورًا عميقة في الأرض ليكون أصلها ثابتًا وفرعها في السماء.. وتثمر وتؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربها.

•أمّا بذرةُ الشر فقد تَهيج وتنفش سريعًا وترتفع في السماء بلا جذور.. وما لها من قرار.

•ومِن علاماتهم أنَّهم لا يستنكفون طلبَ العون في تحقيق غاياتهم النبيلة ونشر رسالتهم والذود عن قضيتهم، فكرامةُ الواحد منهم هي في كرامةِ قضيته ونصرها وعزَّته في عزتها وتحقيق ذاته لا يكون إلَّا في تحقيق وجودها.

•ومِن علاماتهم أنه لا يفوق عملهم الدؤوب الجادُّ المتصل إلَّا تفاؤل يسبقه ويحْدوه، وإشراقة على الدنيا وثقة وإيمان لا يحسبه أهلُ الحسابات المادية إلّا تفاؤل الحالمين، فهُم ينظرون إليهم بعينِ قوانين الحساب وهم ينظرون لقوانين الدنيا بعين حاجتها وتعطُّشها للخير الذي يحملونه في أوعية قلوبهم، ولسنة الله في خَلقه وأرضه

ورعاية خالقهم لهم واحتفائه بهم بما استودعهم إيّاه من خير وأمانة هي مِنْه سبحانه وإليه.

•ومِن علاماتهم السماحةُ والعطف والإشفاق على ضعف الناس وعجزهم وتقصيرهم وأخطائهم ونقائصهم، فَهَمُّهم الشاغلُ هو نشر الخير الذي امتلأت به أوعيةُ قلوبهم لا تصيُّد أخطاء الناس وعللهم، بل يؤمنون أن في كلّ نفس خلقها الله ذراتِ خيرٍ وبذور صلاح، وأنَّ الشَّر الذي نراه منهم ليس كلّ ما فيهم، بل قد يكون محصورًا على تلك القشرة الخارجية الصلبة القاسية التي يواجهون بها صلابة الدنيا وقساوتها، وبذلك هم يبحثون دائمًا عن ذرة الخير وبذرة الصلاح هذه بالوصول إلى ما وراء القشرة الخارجية، ويفرحون أيَّما فرح عندما يجدونها أو يصلون إليها في مَن لا يظن الناس فيهم إلَّا شرًّا، فهُم لذلك يُغَلِّبون حُسن الظنِ بالناس في كلّ معاملاتهم، والواحد منهم ليس بالساذج أو الخبِّ؛ بل وقد يكون من أدْهي الناس وأشدهم فطنةً وذكاء.

•ومِن علامة الواحد منهم أنَّ قضيته تجذب له من الأصحاب والأعوان مَن يُحبه حُبًّا لا يشتريه مال ولا سلطان، مِن الذين عرفوه قبل أن يروه، لأنهم عرفوه بالخير الذي يحمله ويدعو له واستقرَّ في قلوبهم منذ زمن قريب كان أو بعيد، كما أنَّ قضيته تجذب له من الأعداء ممّن لا يعاديه إلَّا بما يحمل ويدعو له، عداوة الشر للخير والباطل للحق والظلام للنور، فلا يزداد بتلك العداوة إلَّا عزيمة وثباتًا وثقة بنصر الله.

•ومِن علاماتهم أنَّهم لا يفزعون من الموت متى يأتي؛ إيمانًا بقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال: "قال الله: إذا أحبَّ عبدي لقائي أحببتُ لقاءه"، ولكنْ يفزعون كيف يكون حالهم حين يأتي وعلى أي حال يجيء، فالحياة عند الواحد منهم كتابٌ لا بدَّ أن يطوى، فلا يبالي متى يطوى، ولكنه يدرك أنَّ

العبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات، ويودُّ أحدهم لو كان بيده أنْ يسطِّر آخر كلمات فيه فيكون تمامُ كمال نهايته هو خيرَ شفيع لأي نقصٍ في بدايته.

•ومِن علاماتهم بعدَ موتهم أنهم إذا ماتوا وكُسر الوعاء انسكبَ ما فيه من خير، وحملته أوعية كثيرة وسقيت به البلاد والعباد، فترى الخير الذي حملوه في حياتهم لا يموت، بل ينتشر بعدَ مماتهم أكثر وأسرع ممّا انتشر في حياتهم، ويمتدُّ ويتّسع ويستمرُّ عقودًا مديدة بعد موتهم، فلا يزيد الموت ذكرهم إلَّا حياة، ولا بزيد قضيتهم إلَّا نصرًا وتمكينًا وانتشارًا دليلًا قاطعًا بحماية الرحمن لجهودهم ومباركته لما حملوا في حياتهم، وزيادة لهم في الأجر والثواب من لدُن مَن يرزق بغير حساب.

على يدِ مثل هؤلاء يُجري اللهُ الخير الذي كتب في الأرض بعزِّ عزيز أو بذلِّ ذليل برعاية إلهية جلية أو خفية، وبسنن أرضية وسماوية وكرامات وعطاءات ربانية.

إذا أردت أن تعيش الحياةَ بطولها وعرضها أضعافًا مضاعفة على قدر مضاعفتك عداد المشاعر التي فيها، والتي بها تقاسُ الحياة لا بعدد سنينها، وإذا أردت أن تملأ حياتك حياةً وسعادة ونفحة سماوية..

فكنْ صاحب قضية.

الفيلُ واختلافُ زوايا الرؤية

لم تفقدِ الأمةُ عزَّتها ومكانتها بين الأمم إلّا عندما جعلت الإسلام قاصرًا على المسجد وأغلقت عليه الأبواب.. وتمَّ بذلك الفصلُ بين الدين والحياة.. فالإسلام دينٌ أودعه اللهُ كلّ الأصول اللازمة لتنظيم حياة الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، يقول تعالى في مُحكم كتابه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (139) ويقول الرسول الكريم: "إنه ليس شيء يقربكم إلى الجنة إلّا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم إلى النار إلّا قد نهيتكم عنه"(138).

وكتابُ الله مليء بالآيات وكذلك أحاديث رسول الله بما لا يفصل بين العقائد والعبادات والأخلاق وبين سائر مناحي الحياة من أمور الحكم والسياسة والقضاء والإدارة والمعاملات أو أمور العلاقات الشخصية من خطبة وزواج وطلاق ورضاع.. أو أمور المال والاقتصاد من زكاة وبيع وشراء ودين ووصية.. وغيرها، ومن أراد الاطمئنانَ لما أقول فليقرأ النصفَ الثاني من سورة البقرة فسيجد هذا التزاوجَ البديع وهذا التلاحم المقصود بين هذه الدوائر تأكيدًا لهذا المفهوم الشامل للدين.

ونقصدُ بالشمولية هنا القواعدَ والقوانين والنظم التي تنظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، وما أظن صحابة رسول الله وصفوا بأنَّهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار إلّا لنجاحهم في تحقيق ذلك الربط بين تكاليف الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وغيرها وبين التكاليف الاجتماعية التي تظهر آثارُها في واقع الناس، يقضون ليلهم ساجدين عبادة لله في صلاتهم وقيامهم، ثمَّ لا تزال قلوبُهم وجوارحهم ساجدةً في محراب الحياة في نهارهم عملًا نافعًا يخدم كلّ من حولهم، وفي هذا يكمن التناسقُ البديع والتزاوج المكمِّل

بين أعمال الدنيا وشئونها وبين أشواق الآخرة وروحانياتها، وبذلك كانت الحياةُ من حولهم تتفاعل بهم وتعملُ بهم، فهُم فيها بمثابة المعنى الذي يفسِّر المعنى، فنطقت الحياة بهم مِن حولهم بأجمل كلماتٍ تجسَّدت في صمتهم قبلَ نطقهم، وفي سكونهم قبل حركتهم، وعمروا من العمر ما عمروا ليعمروا في الأرض ما عمروا، وليورثوا لنا حضارة وعمارة لا ينكرها إلّا جاحد.

إنَّ المرض العُضال الذي أصابَ هذه الأمة فيما أحسبُ هو الخلل في الفهم الصحيح لمبدأ الشمولية في الإسلام، وأقصد بالشمولية هنا أنَّ الإسلام كشرعٍ سماوي أراد الله الحكيمُ سبحانه منه أن يفي بحاجة الإنسان لما ينظم له كلّ شئون الحياة، فوضعَ له القواعد الكلية والأصول العامة التي من شأنها أن تستوعب المكان والزمان، ولم يتطرق لجميع جزئيات الحياة وتركها لاجتهادات الإنسانِ حسب حاجات عصره، وإنَّ النظرة القاصرة لمفهوم الشمولية للإسلام هو الذي أنتجَ هذا الفهم الخاطئ الذي ظهرت أعراضه في فئات مختلفة من المجتمع.

فمِن الناس فئةٌ ترى الإسلام شعائرَ ظاهرة تهتم بها كلّ الاهتمام وتشكر على ذلك لكنها إن وقفت عند هذا الحدِّ وأبقتِ الإسلام شعائر حيةً في المسجد دون أن يكون له أثرٌ على الحياة خارجه فهذه هي آفة الآفات، وأمّا الفئة التي ترى الإسلام أخلاقًا فاضلة وحالةً روحانية عالية ومادة فلسفية لغذاء الروح والعقل؛ فستستمتع به وتذوق بعض حلاوته، ولكنَّها ما إن تمنعه حقَّه في أن يهيمن على حركة الناس وتترك المجال لمَن يفسد على الناس حتَّى أخلاقهم وروحانياتهم فقد غمطت الإسلام وظلمتِ الناس حقهم، وفئة ثالثة ظنَّت الإسلام لا يعدو إلّا أن يكون عقائد موروثة وأعمالًا تقليدية غير قادرة على مواكبة العصر وتطور العلوم، فرأوه عائقًا لتقدمهم وحملوه تبعة تخلفهم، وفئات أخرى

تندرج بين هذه وتلك تذكِّرنا كلها قصة العميان مع الفيل، لتجسد لنا ورطة الفهم الخاطئ تلك التي وقع فيها المسلمون مع شمولية دينهم، فمنهم مَن أمسك أذنَ الفيل، ومنهم مَن أمسك جسمه أو رجله أو خرطومه أو ذيله، ولك أن تتخيَّل بما يصف كلّ كفيفٍ منهم فيله، وعلى ذلك يتبين لك فائدةُ مقالي كصرخةٍ لإعادة صورة الإسلام الشاملة في أعينٍ عميت أن تراها.

إنَّ فهمنا وإيماننا المستندَ على الكتاب والسنة أنَّ هذا الدين منهج حياة، وأنه قد جاء بالقواعد الكلية والأصول العامة الكفيلة أن تنظمَ حياة الفرد والأسرة والمجتمع والأمة في كلّ عصر وزمن، وأمّا جزئيات الدين فقد تركت لاجتهادات المسلمين وفقَ المقاصد العامة للإسلام، وأمّا في الشئون الدنيوية البحتة فإنها قد تركت لاستنباط المسلمين لتطويرها بعلم ودراية.

إنَّ توضيح مفهوم الشمولية في الإسلام، بما وضع اللهُ العليم الخبير في هذا الشرع العظيم الذي لم يفرط الله للناس فيه من شيء كما أخبر، وتعميق هذا الفهم في عقول وأفئدة أبناءِ هذه الأمة، والإيمان به أنَّه الهدى والطريق القويم، وأنَّه الرحمة المهداة للعالمين، كفيلٌ إن شاء الله في أنْ يعيد لهذه الأمة دورَها الريادي والقيادي بين الأمم، وفي هذا بشرى لعباده المؤمنين. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (137).

---

(139) سورة النحل، من الآية 89.

(138) رواه عبد الله بن مسعود، أورده الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم 2866.

(137) سورة النحل، من الآية 89.

قصّةُ نجاح مسْجد

مرَّت عقودٌ من الزمان منذُ بدأت الجمعية الإسلامية في بوسطن رحلتها في إنشاء أكبر مركزٍ حضاري إسلامي في أمريكا في مدينة بوسطن.

وكتبَ الله بفضله أن يتمَّ المشروع، ويرتفع الأذانُ لأول مرةٍ في مدينة بوسطن في السادس والعشرين من شهر يونيو لعام 2009م.

مرّت الأيام والسنون، ومرَّت معها كلّ ذكريات المعاناة والتحديات المادية والقانونية، وكلّ مَن وقف في وجه بناء بيت الله.

إنَّها قصة نجاح لا بدَّ أن تسجَّل للتاريخ عبرة ودرسًا ونموذجًا يحتذى.. بداية متواضعة للجمعية الإسلامية في بوسطن في حجرة صغيرة كانت تُحجَز لإقامة الصلوات الخمس وصلاة الجمعة والدروس الأسبوعية منذ عام 1981م.

ثمَّ انتقلت الجمعية إلى موقع بين جامعتي هارفرد و MIT وقدمت نشاطات ثقافية وإعلامية وتربوية واجتماعية مشهود بها في بوسطن، حتَّى أنها اكتسبت ثقةَ ودعم الجاليات الإسلامية وغيرِ الإسلامية لتصبح الجهة الرسمية المتحدثة باسم المسلمين في الولاية، وبذلك نجحتِ الجمعية لأوَّل مرةٍ في تاريخ أمريكا في الحصول على أرض تقع في قلب المدينة على بُعد دقائق من الجامعات الكبرى مثل هارفرد و MIT والمدينة الطبية.

ومدينة بوسطن ليست كباقي مدن أمريكا، فهي تُعدُّ أمَّ المدن الأمريكية، فمنها انطلق التاريخ الأمريكي، ولها فضل على سائر المدن الأمريكية الأخرى باعتبارها مدينةَ الفكر والعلم والثقافة، وخاصَّة في مجال الطب والعلوم والقانون والاقتصاد والتربية التي

تشتهر بها جامعاتها.

وقرَّرت الجمعية حينها بناءَ مركزٍ حضاري إسلامي متكامل من مسجد ومركز للثقافة والدعوة والإعلام ومدرسة، واستطاعت الجمعيةُ الإسلامية مدَّ جسور وثيقة مع أمين مدينة بوسطن (توماس منينيو (Thomas Menino الذي أصبح على مدى عقدٍ من الزمن داعمًا ومؤيدًا للمشروع ومدافعًا عنه ضدَّ كلّ مَن حاول إيقاف المشروع في مراحله المختلفة.

ويعدُّ موقع المركز الحضاري الإسلامي موقعًا إستراتيجيًّا، ومن المواقع الأعلى ثمنًا في بوسطن نظرًا لقربه من سبعةِ مستشفيات عالمية تقع في شارع واحد، والتي يتدرَّب فيها طلبة كلية جامعة هارفرد الطبية المجاورة، بالإضافة الى وجود كلٍّ من كلية هارفرد لطب الأسنان وهارفرد للصحة العامة، ومؤسسات أخرى عديدة كلها تقع على بُعد دقائق مشيًا على الأقدام.

نعم.. مرتِ الأيام والسنون ومرتْ معها كلّ ذكريات المعاناة والتحديات المادية والقانونية والهجوم الإعلامي الشرس الموجه، مرَّ كلّ ذلك وارتفع الأذانُ لأول مرةٍ في بوسطن يوم السادس والعشرين من شهر يونيو لعام 2009م.

وتحقَّقت كلمة أخي الذي قال لي عندما اشتدتِ الأزمة حولنا، وتكالبت علينا المحن والمعاناة من كلّ مكان: "ما بدأ بناءُ بيت من بيوت الله إلا وانتهى واكتمل.. سنّة الله في الأرض" وقد تحقق ذلك وتم.

وهذا المشروع كان نقلةً تاريخية لمسلمي أمريكا كَلَّف ما يربو على أربعة عشر مليون دولار، وهو مركز حضاري شامل يمثل بفضل الله حضارة الإسلام وثقافته، فهو: مركز لحوار الأديان وفيه مكتبة ثقافية جامعة ومركز تعليمي بالتعاون مع جامعتي

هارفرد وروكسبري، وفيه قاعات متعددة للنشاطات الاجتماعية والمؤتمرات والمحاضرات مُزودة بأجهزة عرض مرئية حديثة.

وبشهادة الجميع يعتبر هذا المركزُ الشامخ بتصميمه الإسلامي البديع الذي صمّمه الدكتور سامي عنقاوي هو سابقة إسلامية في أمريكا، ليس فقط في مظهره أو موقعه؛ وإنما أيضًا في مضمونه كنموذج حيّ لرسالة الإسلام الشاملة في الغرب متجسمًا في محاوره الخمسة من: توحيد المسلمين وإبراز عالمية الإسلام ودعم المسلمين وتقويتهم سياسيًّا والتنسيق مع أهمِّ وأعرق الجامعات الأمريكية وتوصيل رسالة الإسلام الى مئات التيارات الدينية وخدمة المجتمع وحماية الشباب.

ولهذا أصبح المركزُ بفضل الله محطَّ اهتمام وسائل الإعلام والمسئولين في المنطقة، ففي سابقة هي الأولى من نوْعها اجتمع في السابع والعشرين من يونيو لعام 2008م أكثر من مائتي قائد ديني ممثلين لحوالي خمسين مؤسسة دينية يعلنون مساندتهم ودعمهم للمشروع التاريخي، وقد عُرف هذا اليوم بيوم "التضامن" وكان من بين الحاضرين نائبٌ ممثل لبابا الفاتيكان، والمدير التنفيذي للمجلس الكنائسي لولاية ماساتشوستس ممثلًا لأكثر من ألف وسبعمائة كنيسة وقيادات المسيحيين السود والعديد من الحاخامات السياسيين، كلهم جاؤوا دعمًا للمشروع والجالية المسلمة في بوسطن، في مناسبة تناقلتها عديدٌ من الصحف الأمريكية، ونقلت محطات التلفزيون الأمريكي وقائعها، ولقد كان هذا الحدث فرصةً ذهبية لدعوة الآلاف من غير المسلمين لزيارة المركز والتعرف على الدين الإسلامي الحنيف من خلال أتباعه ومؤسساته، بدلًا من وسائل الإعلام التي لا تنفكُّ تظهر الإسلام والمسلمين بصورة سلبية.

وقد حَضر تَدشين المركز الحضاري الإسلامي بتاريخ السادس

والعشرين من شهر يونيو لعام 2009م السيد (كيث إليسون Keith Ellison) أولُ عضو كونجرس مسلم ممثلًا لاتجاه الإدارة الأمريكية والرئيس أوباما الذي ألقى كلمة خلال الحفل أكدَ فيها على أهمية دور هذا المركز في تجسيد الحُرِيَّة الدينية كحقٍّ مكتسب لكلِّ مواطن في أمريكا على اختلاف عرقه أو جنسه.

ومِن جهته خاطب حاكمُ ولاية ماساتشوستس (ديفال باتريك Deval Patrick) الحاضرين من خلال رسالة تلفزيونية أكد فيها على دعمِه هذا المشروع منذ انطلاقه واصفًا إياه بـ "محطة مهمة" في تأصيل ضمان حرية الأديان في الولايات المتحدة، وعندما قص (توماس منينيو (Thomas Menino عمدة مدينة بوسطن آنذاك شريطَ الاحتفال قال: "إني فخورٌ بوجودي معكم اليوم"، وأكدَ دعمه للمركز وسعادته بما حقق على مدى عقد من الزمن.

وحضرَ الافتتاح آلاف، منهم عشرات الممثلين الحكوميين بأمريكا الذين أكدوا استمرار دعمهم وتأييدهم للمشروع.

كتب اللهُ الأجر والثواب لمَن أسهم في بناء المشروع على مدى عقدٍ من الزمن، ووفق الله كلّ مَن سيساهم في دعم المشروع وبرامجه في مرحلته القادمة ليحقق الغاية والهدف من بنائه.

جريمةٌ في حقِّ الشَّرع

أبدأ عرضي بأنْ أطرح على القارئ الكريم بعضَ الأسئلة التي ستعين على الوصول إلى المعنى المبتغى. أي الأمرينْ أعظم قدسية عندَ الله وأكبر حُرمة.. هل حرمة الكعبة المشرفة "بيت الله" أم حرمة دم المسلم؟ وأي الأمرين أعظمُ عند الله.. تدنيس أو إهلاك أو حرق كتاب الله أم تدنيس الحرمات التي جاء كتابُ الله ليذود عنها ويحرمها ويجعلها مقاصدَ عليا للشريعة الإسلامية وحرقها ومحوها من أرض الواقع؟..

وقفَ رسولُ الله ﷺ يومًا ناظرًا إلى الكعبة فقال: "ما أطيبَك وما أطيبَ ريحَك ما أعظمَك وما أعظمَ حُرمتَك والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه لحُرمةُ المؤمنِ عند اللهِ أعظمُ من حُرمتِك مالِه ودمِه"(140)

إنَّ التفاوت غير المنطقي وغير المؤصل شرعًا في ردودِ فعل الأمة الإسلامية إزاءَ الجرائم التي توجه إلى شرعها تحتاج إلى وقفه فاحصة. يُقتل أطفال أبرياء وتسفك دماء أرواح طاهرة من النساء والأطفال برصاص معتدٍ مغتصبٍ عدو غاشم على مرأى من العالم الإسلامي ليلَ نهار، وفي كلّ مرة يراق فيها دم بريء لواحد منهم يكون ذلك في معيار السماء، في المعيار الرباني، عندَ خالق السماوات والأرض والجن والإنس، عند الله، أكبر من هدم بيت الله "الكعبة المشرفة"، وبذلك فإنها لا تشرق شمسٌ على أمة الإسلام في أيامنا هذه إلَّا وقد ارتكبت على الأرض جريمةٌ في حقِّ الشرع هي عندَ الله أكبر وأعظم من هدم الكعبة، ولا نجد مِن ردود فعلٍ تتعامل مع الجريمة والحدث بما يستوجب التعامل معه بالمنطق الشرعي والرباني والإنساني.

ولا يحسبنَّ أحد أننا نُهوّن والعياذ بالله من جريمة امتهان كتاب

الله العظيم أو التعدي على بيته العتيق، فتلك جرائمُ كبرى في موازين الشرع والعقل، لكنَّ هذا التفاوت غير المؤصل شرعًا، وغير المفهوم منطقًا في ردود فعل الأمَّة على جرائم قرَّر الشرعُ الحنيف خطورتها وشناعتها يمكن أن يُشخص بأنه حصيلة ثلاثة أمراض ابتليت بها الأمة.

أولُها: الجهلُ بالمقاصد العليا للشريعة الإسلامية، والجهلُ بكيفية تحقيق هذه المقاصد وإحيائها بفقه وعلم في وجدان المسلمين وواقعهم.

وثانيها: سطحيةُ وشكلية النظر للقضايا حتَّى أصبحت بعضُ الشعائر أشبهَ ما تكون بالطقوس وحركات الجوارح، وقد فُرِّغت من محتواها، وأُخليت من مضامينها، وضلَّت مقاصدها فتقدَّس الشعائر لذاتها. أمّا المعاني والقيم والأهداف والغايات والمقاصدُ التي جاءت الشعائرُ لحمايتها فلا بأس من أن تُدنس بل وتُجتث من جذورها حتَّى لا يبقى لها من أثر في حياة الواقع.

وأما ثالثُ الأمراض: فهي ظاهرةُ التبلّد، وإنْ كانت هذه الظاهرة من طبيعة البشر، إلَّا أنني أراها أكثر شيوعًا في أمتنا ومجتمعاتنا. فالحدثُ أو الجريمة العظيمة في حقِّ الأمة والتي تستوجب ردودَ فعل عظيمة لا تلبث أن تفقد عظمَ وقعها على الأمة بقدْر تكرار حدوثها. وبذلك تكونت علاقةٌ عكسية بين تكرار وقوع جريمة أو تدنيس حُرمة من نوع واحد مراتٍ عديدة وبين قوة ردِّ الفعل الناتجة والمتولّدة نتيجة الحدث.

فبالجهلِ بالمقاصد العليا للشريعة الإسلامية وكيفية تحقيقها وسطحية وظاهرية النظر للقضايا مع تفشي ظاهرة التبلّد إزاء الجرائم التي تنهال على أمتنا ومجتمعاتنا؛ نتجت ردودُ أفعال أذهلت العالمَ بتفاوتها في الكيفية والشدة.

أمراضٌ تحتاج إلى علاج وتحتاج إلى إعادة تربية الأمة وتفقيهها وتوعيتها مما يلقي على علماء الأمة وفقهائها ومفكّريها المسئولية العظيمة والعبء الكبير.

---

(140) رواه عبد الله بن عمرو، الترغيب والترهيب، برقم 276.

ملوكُ الطَّوائف

لم أعتدْ مشاهدة المسلسلات التليفزيونية؛ حيث إنني أجدُ في ذلك مهدرة للوقت الثمين الذي هو رأسُ مال الإنسان، أضفْ إلى ذلك أنني أستسخفُّ الحوار المبتذل أو السطحي والتافه في معظم ما يُعرض على الشاشة العربية من أعمال فنية ومسلسلات.

ولكنني ولأول مرة بعدَ خمسة وعشرين عامًا من التوقُّف تابعت مسلسلًا عربيًّا، وحرصتُ عليه وهو بعنوان "ملوك الطوائف"، علمًا بأنني لم تكنْ لديَّ نيَّة مشاهدة هذا المسلسل، ولكنَّ أذني لقطت مصادفةً أطرافَ حوار دار في الحلقة الأولى من المسلسل فأسرت به، وبطريقةِ إلقائه؛ فأعطيت المسلسلَ فرصة في مشاهدة حلقة أخرى، فأدركت آنذاك بأنَّ المسلسل يستحقُّ المتابعة ففَعلت وعشتُ مع كاتب الحوار، ومعَ ما يحاول أن يصل به إلى المشاهد من قراءة أعمق للتاريخ، وما يحمل كلّ حوارٍ من فكرة يستحقُّ الوقوف عليها والتأمل والاعتبار، وما يحمل ما بين السطور من إسقاطات على الواقع الأليم لأمتنا الإسلامية.

تاريخُنا في الأندلس هو صفحةٌ من التاريخ إنْ ظننا أنها قد طُويت في كتبنا فإنها لا تطوى في السجل الأعلى، وستبقى محفورةً في تاريخ الإنسانية وتاريخ هذه الأمة إلى قيام الساعة، وستبقى دروسها شاهدًا على كلّ من سيأتي بعدها، ولا يعتبر بعبَرِها من أبناء الأمة الإسلامية حاكمًا كانَ أو محكومًا، أو من أهل الخاصة أو العامة.

مسلسل "ملوك الطوائف" هو إحياءٌ لبعض الدروس والعبَر في فترة تمزُّق الأندلس إلى 22 دويلة بين عام 400هـ وحتَّى وفاة المعتمد بن عباد عام 488هـ، وبين السُّطور يبدع كاتبُ الحوار والمفكر القدير الدكتور وليد سيف في أنْ يحطم في عقلية المشاهد

العربي سطحيةَ قراءة الأحداث، فليس من خيرٍ مطلق وليس من شرٍّ مطلق، وإنما تتبدل المواقعُ وتتغير المواقف، وفي كلّ ابتلاء وامتحان وتمحيص ينجح فيه مَن ينجح ويفشل فيه مَن يفشل، وكثيرٌ هم مَن خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا وإنِ اختلفت نسبُ الخير والشر في كلّ منهم. وهل جُلُّ مصائبنا هذه الأيام إلّا أنَّ بين أظهرنا مَن يقرأ الأفراد والأحداث والمواقف بسطحية تؤدي به أن يَدَّعي أو ينسب الخير كله أو الشرَّ كله لفرد بعينه أو مجموعة أو حركة بعينها؟! فيفقد بذلك التوازنَ الذي ينشأ به الميزان، ويتحقق به العدل في الحكم على الأفراد والمواقف والأحداث.

وبذلك فإنني وجدتُ الكاتب القديرَ يحاول إعادةَ هذا التوازن في عقلية المشاهد العربي لما يفترضه المواطن العربي اليوم بأنه مُسَلَّمات وحقائق بناءً على النظرة السطحية الظاهرية للأحداث والمواقف والأشخاص.

فهذا هو المعتمدُ بن عباد الذي كان مِن خيار ملوك الطوائف شأنًا، وأفسحهم ملكًا، والذي كان يُشبه بهارون الرشيد لزكاء نفسه، وغزارة أدبه، وهو الذي ملك أشبيلية بين عامي 461هـ 484هـ، ورفع شأنها، والذي تبنى فكرة الاستعانة بالمرابطين للحفاظ على الأندلس، والذي قاتلَ في معركة الزلّاقة ضدَّ الصليبيّين بنفسه فأبلى فيها بلاءً حسنًا، وقاتل قتالًا عجيبًا حتَّى عُقرت تحته ثلاثةُ أفراس كلما عقرَ فرس قدم آخر، وسالت الدماء الغزيرة فانزلقت الخيول والناس، ولذلك سمّيت المعركة بالزلاقة.

هذا هو المعتمدُ بن عباد الذي عاد إلى أشبيلية منتصرًا بعد معركة الزلّاقة، فأقدم عليه الشعراء والخطباء يقدمون ما جادتْ به قرائحهم يهنئون المعتمدَ على الظفر الميمون، ولكنَّ المعتمد أمر القراءَ بتلاوة القرآن الكريم فقرأ أحدهم قولَ الله تعالى ﴿إلَّا

تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (141)، فقال أحدُ الشعراء الذين حضروا المجلس واسمُه عبد الجليل بن وهبون: كنت قد نظمتُ قصيدة لألقيها بين يدي المعتمد لكنَّ المعتمد أمرَ بتلاوة القرآن فقلت في نفسي بعد سماع الآية.. بُعدًا لي ولشعري، والله ما أبقت هذه الآية معنى لما أقول.

هذا هو المعتمدُ بن عباد دفع ثمنَ ما صدر منه من بعض الزلات والأخطاء وإنْ كان من أفضل ملوك الطوائف وأزكاهم نفسًا وأعظمهم اعتزازًا بإسلامه وعروبته، فأخطاءُ الحكام لا كأخطاء الرعية، فهذا المعتمد بعينه بعد بضع سنواتٍ من معركة الزلاقة يرفض مؤازرةَ المرابطين "وهو الذي دعاهم بادئ ذي بدء" في قتال النصارى خوفًا على ملكِه أن يضيع، بل ويبعث سرًّا لملك النصارى "ألفونسو السادس" يستنجد به على المرابطين، فكان الخطأ، وكانت الخيانة، فحاصره المرابطون.. وقد أقام الحجةَ على نفسه وأصرَّ على عدم تسليم المدينة وحرَّض شعبه لمساعدته في القتال ضدَّ المرابطين لكنَّ شعبه أبى، ورفض المسلمون هناك مؤازرته فأسقطَ في يده واضطرَّ للاستسلام بعد مقاومة منه ومن أتباعه.

نعم.. جاء العقابُ من الله سريعًا لحاكمٍ امتلأ تاريخه بالمواقف العظيمة المشرفة، ذلك أنَّ خطأ الخاصة الخلَّص لا كخطأ العامة، وخطأ القادر لا كخطأ المقدور عليه، وخطأ الحاكم لا كخطأ المحكوم، فاللهُ يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

ويخرج المعتمدُ وأهلُه من الأندلس كلها، وتُصادر أملاكه وأموالُه كلها، وينفى إلى "أغمات" في المغرب ليعيش ما بقي من عمره فقيرًا محرومًا بعد أنْ كان ذا صولةٍ وجولة وجاه وغنى وسلطان، وكان ملء السمع والبصر.

هذا هو المعتمدُ بن عباد الذي كان لا يردُّ طلبًا لزوجته "اعتماد"، وقد رأت يومًا بدوياتٍ يبعن القرب وقد شمَّرن عن سوقهنَّ يخضنَ في الطين فقالت لزوجها ابن عباد: أشتهي أنْ أفعل أنا وبناتي كفعل هؤلاء البدويات، فلبَّى طلبها ولكنْ بطريقة عجيبة هي مِن طرق السلاطين والملوك مما يتفتق به ذهنُ من أَلِف العزَّ والترف، وسكنت إليه نفسه، وهي تعكسُ ما وصل إليه ملوكُ الأندلس من بذخ وإسراف، فأمر المعتمدُ بالعنبر والمسك والكافور فَخُلِط بماء الورد ليكونَ في هيئة الطين، وأحضر القربَ والحبال لاعتماد وبناتها فحملنَها ثمَّ رفعنَ عن سوقهنَّ وخضْن في طين العنبر والمسك والكافور. وتدور الأيامُ عليه وعلى أهله، وبينما هو في المنفى فقيرٌ محروم تدخل عليه بناتُه يومًا في أطمارٍ بالية فثارت نفسُه على أحواله وأحوالهن فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا

فساءك العيد في أغماتَ مأسورا

ترى بناتِك في الأطمـار جائعة

يغزلنَ للناس ما يملكن قطميرا

يطأن في الطينِ والأقدامُ حافيةٌ

كأنها لم تطأ مسْكًا وكافورا

ثمَّ اتعظَ وبكى حاله فقال:

قد كان دهرُك إن تأمْره ممتثلًا

فرَدَّك الدهرُ منهيًّا ومأمورا

مَن بات بعدَك في ملكٍ يُسرُّ به

فإنما باتَ بالأحلام مغرورا

ملوكُ طوائف الأندلس دروسٌ تاريخية عظيمة لأمةٍ لا تتحقق عظمتها إلَّا بقدر ما تُمكن لعظمة الرسالة التي بين يديها من فكرها وفؤادها، وبقدر ما تعمل في سبيل تعظيم وإجلال أمانة حمل آخر رسالات السماء للأرض.

وأعظمُ هذه الدروس هو ما يصنعه التناحرُ والصراع بينَ المسلمين في ذهاب ريحهم وكسر شوكتهم وإذلالهم وضياع الأمانة، والفساد في الأرض حتَّى قال فيهم قائل:

ممّا يُزهِّدني في أرض أندلس

ألقـابُ معتمـد فيهـا ومعتضـد

ألقـابُ مملكة في غير موْضعها

كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولةَ الأسد

وقال فيهم ابنُ حزم رحمة الله عليه: "فضيحةٌ لم يقع في الدَّهر مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام يسمى كلّ واحد منهم بأمير المؤمنين، ويخطبُ لهم في زمن واحد: أحدهم في أشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالطة والرابع بسبتة".

دروسٌ ثلاثة عظيمة عرضتُها في ثنايا مقالي هذا لو اعتبرت بها الأمة، ولو كان ضياع الأندلس كلها ثمنًا يدفع لامتلاك هذه الدروس واستيعابها وتفادي الوقوع في أخطائها مرة أخرى؛ لقلتُ والله ما ضاعت الأندلس هدرًا، ولكن وأسفاه فللأممِ والشعوب ذاكرةٌ قصيرة المدى، وإن كان التاريخُ لا يرحم ولا ينسى، وفوقَ هذا وذاك ربٌّ يرقب خبيرٌ عليم بما يصنع عبادُه يمهل ولا يهمل، ولذلك فالتاريخُ كثيرًا بل غالبًا ما يعيد نفسه.. خاصَّة لمَن لا يعتبر به.

(141) سورة التوبة، من الآية 40.

نتيجةٌ حتميَّة..

لسُننِ الله الكوْنية

تمرُّ بأمتنا المأساةُ تلو الأخرى، والمجزرة تلوَ الأخرى، وفي كلّ مرة تنهض فيها الأمةُ وتستيقظ، ولكن كيقظة النائم الذي يعبِّر عن مدى انزعاجه ممّا أيقظه ثمَّ يعود فينام مرة أخرى.

وهناك فرقٌ كبير بين الأممِ المؤثرة وأممِ ردود الأفعال؛ فالأممُ المؤثرة استطاعت أن تجعل لقضاياها الهامة أهدافًا قصيرة المدى وبعيدةَ المدى، ونجحتْ في تسخير طاقات الفرد فيها بربط دوائر تأثيره بدوائر الاهتمام بقضاياها الكبرى، فأصبحت تخطو كلّ يومٍ من أيامها تشرق فيه الشمسُ خطوةً للأمام في تحقيق أهدافها بعيدة المدى.

كثيرون في مجتمعاتنا مَن يتفاعلون اليومَ مع قضية من قضايا الأمة المصيرية الهامة، وهذا أمرٌ واجب يؤكد أن الأمةَ مازالت حية، ولكنْ عندما تسأل الأغلبية العظمى كيف تربطُ ما تقوم به كلّ يوم من أيام حياتك (والذي يدخل في ما نسمّيه دائرة التأثير) بتحقيق العزة والتمكين لهذه الأمة والوصول إلى غاياتها الكبرى ونصرة قضاياها المصيرية؛ تجد الإجابةَ مُبهمة أو سلبية، وتعكس عدمَ وضوح للرؤية، لدور الفرد في عمله اليومي لتحقيق الغايات والأهداف العظمى للأمة.

إنَّ هزيمة الأمة كانت ومازالت بيدها، لا بيدِ أعدائها، فالهزيمة والنصر يبدءان من الداخل.

ولنْ تقوم لهذه الأمة قائمةٌ ولن تعود إلى الرّيادة والعزة والتمكين إلّا عندما يكون هناك حشد كافٍ من أبناء هذه الأمة. كلٌّ يعمل في دائرة تأثيره يحمل مهمةَ وضع المعايير الربانية في مجاله

تنظيرًا وتطبيقًا في الطب والتعليم والإعلام والقانون والتجارة والسياسة وفنون الحرب وكلِّ مجالات الحياة حيث تتسع الدوائر وتلتقي، عندها فقط تصبغ الحياة بالصبغة الربانية، وتجري عليها سنةُ الله الأزلية الأبدية في التمكين والنصر، وعندها يحقق الإنسانُ مفهوم الاستخلاف في الأرض وعمارتها كما يحبُّها الله أن تُعمر.. وعندها فقط يصبح النصرُ للأمة نتيجة حتمية تحقيقًا لسنن الله الكونية.

إنَّ عزيمة الشعوب والأمم وقدرتها في الدفاع عن كرامتها وعزَّتها ما هي إلّا محصلة جمع أعمال أفرادها فما اتفق معَ أهدافها السامية وغاياتها الكبرى زادَ في المحصلة، وسارع في تحقيق الأهداف، وما تعارض معها من أعمال أفرادها زادَ في الطرح منها وآخر في تحقيق أهدافها.

وهناك ثلاثةُ أنواع من الأعمال:

عملٌ يزيد في الحصيلة بقدر العمل وقيمته، فيصبح قيمةُ الواحد من العاملين بمثابة عشرات ومئات وآلاف.

وعملٌ ينقص في المحصلة بقدْر ما أضاع الفردُ من فرص العمل فكان كالصفر لا قيمة له.

وهناك نوعٌ آخر ثالث ليس كالأولِ أو الثاني، وعمل هؤلاء لا ينقص فحسب من مجموع المحصلة بقدر إضاعة عمل الفرد بعينه، وإنّما هو يُنقص به أضعافًا مضاعفة.. وهؤلاء الذين يعملون ليلَ نهار في محاربة الأهداف السامية والغايات النبيلة لتعارضها معَ مصالحهم الشخصية الدنيوية من منطلق نظرتهم الضيقة وفهمهم القاصر المنحرف لما يصلح أمرهم في الدنيا والآخرة، وهؤلاء يكثرون بغيابِ وقلّة أصحاب الأعمال الهادفة فتصبح الأمة كالرجلِ الذي فيه شركاء متشاكسون، وغثاءً كغثاء السيل.

فما أشبهَ الأمة اليوم بما وصفها به رسولُ الله ﷺ عندما قال: "يوشك الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها، قالوا: أوَمِن قلة نحنُ يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهنُ يا رسول الله؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت"(142).

---

(142) رواه ثوبان مولى رسول الله، سنن أبي داود، برقم 4297.

في النفس والمجتمع

المُتردية والنَّطيحة

ليسَ من طبيعتي أن أنشرَ خطاباتِ قرائي كاملة، إلّا أنني في هذه المرةِ رأيت أنَّ من الواجب عليّ أن أفعل؛ حيث إن مرسلَ الخطاب لم يطلب منّي معونةً مادية، ولم يترك رقم هاتفه حتَّى يتسنى لي أن أتَّصل به، وإنما طلب منّي أن أوصلَ رسالته إلى المجتمع، وتلبيةً لطلبه، وللواجب الإنساني والأخلاقي والديني؛ فإنني أترككم مع الرسالة التي تسلَّمتها كما هي بدون زيادة أو نقصان:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد.. كنت قد طلبت تصريحًا مؤقتًا للتسول كي أسدِّد بعض فواتير الخدمات، ونشرَ طلبي عبر جريدة "عكاظ"، واليوم أعلنُها صريحة واضحة دون أي تحفظ وبشكلٍ أشمل وأعم، مَن يستطيع أن ينقذَ وينجد شبابًا وأسرهم ممَّن يعيشون على رصيف الحرمان والفقر والحاجة، ومَن المسئول الذي يتحمل كلّ التبعات لهؤلاء البائسين الذين لا مستقبلَ لهم سوى الذلّ والحسرة، وماض ينتحب بين فقرٍ وحرمان وفاقة وجروح وأحزان؟

الصحافة تكتب وتنشرُ، ووسائل الإعلام تتكلم، وتعقد الندوات المباشرة وغير المباشرة، ولكن يبقى الحال على ما هو عليه، فليس مَن كتب ونشرَ وتكلم وخطب الخطبَ الرنانة كمَن عاش وتذوق وأحسَّ معنى الفقر والحاجة والحرمان، وليس مَن تكلم وكتب وهو يعيشُ الحياة المرفَّهة من جميع النواحي كمَن تكلم وكتبَ وهو يعيش في الخرائب وبين أنقاضِ البؤس والفاقة والحرمان! وهذه حقيقة لا تحتاج إلى بيانٍ أو تفسير، ولكن يبقى ذلك البيت من الشعر هو الأجدر بالذكر والترديد:

لقد أسمعت إذْ ناديت حيًّا

ولكنْ لا حياة لمن تنادي

وها أنا ذا مثلُ عشرات بل آلاف الأمثلة من الشباب العربي المسلم الذين يعيشون تحت خطِّ الفقر، ولن أذهب بتفكيري بعيدًا، بل سوف أظلُّ في حدود منطقةِ دول مجلس التعاون الخليجي، هذه الدولُ التي أنعم الله عليها بفضله العميم، هذه الدولُ التي تحسَد على ما فيها من الخير والثروات من كلّ دول المعمورة شرقًا وغربًا، ولا أبالغ في هذا الأمر؛ بل هو واقعُ الحال، وبرغم كلّ ذلك الحسدِ والغيرة والغبطة فإنَّ في دول المجلس فقراء ومحتاجين ومعوزين ومتشردين من أطفال صغار ورجال ونساء مِن الذين لا يجدون رغيف الخبز.

ومعَ كلّ هذا لم يعدْ يعرف العاقلُ والمفكر أينَ يكمن الخلل.. هل هو في المسئولين أم في المجتمع الخليجي نفسه! متناقضات كثيرة وعديدة، أنْ أقول إنَّ الخلل في المسئولين قد يكون فيه ظلمٌ كبير، وأنْ أقول في المجتمع فربما أقترب من الحقيقة ولوْ بجزء يسيرٍ من حيث الترف الكاذب المبطن بالديون والقروض ذات الفوائد التي تصنع من الفقير ابن الفقير شخصًا مرفهًا وميسورًا بين عشية وضحاها.

ولكن الذي لا يجد المقومات كي يستدينَ أو يقترض بالفائدة يعيش في فقره وحاجته ويموت هو ومَن يعزُّ عليه، بل وقد يصبحون محْسوبين على جموع المتردية والنطيحة.

هناك الكثيرُ من العبارات والمفردات والجُمل المفيدة وغير المفيدة أودُّ أن أكتبها، ولكن أعتقد، بل أجزم أن لا مكان لها من الإعراب، فَمَن يسمع لمثلي وأمثالي من البسطاء الفقراء الذين لا مكانَ لهم في مجتمعاتهم حيث يا حسرة لا بشت(144)

مدير، ولا بشت تاجر، ولا واسطة، ولا محسوبية، ولا شهادة كبيرة، ولا مكتب في شئون المال والأعمال، ولا صاحب فنٍّ في الكرة أو الغناء أو التمثيل، وهؤلاء بدون مبالغة أو كذب هُم جزءٌ من المجتمع الخليجي الذين يعيشون الحياة بمعنى الحياة بكلِّ ما فيها من نعيم.

إذًا، فليس لي أنا وأمثالي سوى جموع المتردية والنطيحة، وما أكثرهم في هذا الزمن الذي تتقلب فيه الموازين يومًا بعدَ يوم، وتنتكسُ فيه الفكرةُ ساعةً بعد ساعة إلّا مَن رحم ربُّ العزة والجلال، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.. واللهُ وحده المستعان والمغيث.

** المتردية والنطيحة: أقصدُ بهما طبقات المجتمع الكادحة الذين لا تتجاوز أجورُهم حدودَ سدِّ الرمق وأقلّ من ذلك، وأيضًا أصحابَ الدخل المحدود جدًّا، والذين لا يجدون الكفاية أو أقلَّ من الكفاية من مقومات الحياة الأساسية.

آخرُ القول: ما أصعبَ وأمرَّ على النفس البشرية السوية أن تعيش بصيتِ الغنى والترف، وهي في حقيقة الأمر لا تجد أبسطَ أمور الحياة.

حقيقةٌ مُرَّة وموجعة لكن مَن يدرك ذلك، ومَن تأخذه النخوة والشهامة في زمن النوم تحت الكرسي أو فوق الكرسي أو النوم في العسل، وكلُّ الموضوع نوم وكسل في كسل، والذي يعيش في النعيم والقصور ليس كمن يعيش في الخرائب والعشش، مع العلم يقينًا أنَّ الرب واحد، والموت حاصلٌ لا محالة، والقبرُ واحد ولكنَّ الحساب يختلف اختلافًا كبيرًا، فليسَ حساب الظالم كحسابِ المظلوم، وليس حسابُ الغني الذي اعتدَّ بماله في الدنيا كحساب الفقير والمسكين، نسأل الله ربَّ العزة والجلال ألّا

يؤاخذنا بسفَهِ أنفسنا، وبما عمل السفهاءُ منّا، إنه سميع مجيب.. آمين يا رب العالمين. انتهى.

***

صدق القولُ المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لو كان الفقرُ رجلًا لقتلته".

وما أصدقَ الدعاء المأثور: اللهمَّ إني أعوذُ بك من الكفر والفقر، وأعوذُ بك من عذاب القبر(143).

---

(144) البشت: هي العباءة الفاخرة.. تُلبس فوق الثوب الأبيض في المناسبات للعرسان مثلًا.. وفي المناسبات الرسمية للمديرين ورجال الأعمال والأمراء طبعًا.. وتكون غالية جدًّا، وترمز للثراء والوجاهة وحجم المناسبة. وعلى الجانب السلبي ترمز للتكلف ورسم النفس والغرور، وكلِّ ما هو ضدّ البساطة.

(143) إسناده حسن، أخرجه البخاري، وأحمد، وابن خزيمة، والطبري، وغيرهم.

مِن أين نبدأ؟

يكثر الحديثُ عن الإصلاح، وتكثر المطالبةُ بالإصلاح، والاعترافُ بضرورة الإصلاح هو اعترافٌ مبطَّن بوجود الفساد، ولكنَّ الإصلاح الحقيقي لا يبدأ قبلَ أن يدرك الفرد والمجتمع مدى انتشار الفساد في بنيته، ويعترف بذلك بدون مواراة أو تزييف أو تزيين.

والمريضُ الذي لا يدرك ولا يعترفُ بمدى انتشار المرض في جسده هو أبعدُ من أن يأخذ بجدية أسباب العلاج.

ويكثر السؤال: من أين نبدأ؟

كالنائم الذي استيقظَ من سباتٍ عميق، أو كالغافل الذي أفاقَ من غفلته فانتبه ليجدَ جسده عليلًا انتشر فيه المرضُ فلم يدعْ من جسده شبرًا إلّا وترك هو والزمن بصماتِهما عليه من كدمات وجروح وقروح وآلام.

إذًا، فمِن أين نبدأ؟ وهل هناك ما هو أقيمُ وأثمن وأغلى من الإنسان لنبدأ به؟

فكلُّ صلاح يبدأ بالإنسان، وكلُّ فساد يبدأ بالإنسان.. وكلُّ ما تحمله الأرض فوقها وتكنزه في بطنها لا يعدو كونه أدواتٍ قد سخرها الله للإنسان الذي حملَ الأمانة التي أبتِ السماوات والأرض أن يحملنها.

وإذا صلحَ الإنسان صلحتِ الأنظمة والمرافق والقوانين، وكل عمارة فوق الأرض، وصلح أمر المجتمع.

وعندما نتحدث عن الإنسان فإننا نتحدَّث عن ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل. أمّا الماضي.. فخبرٌ على ورق لا قيمة له في ميزان الله ولا ميزان البشر، إلّا أن يكون للحاضر منه قلبٌ ينبض.. وكلُّ

تراث حضاري وفكري وروحي لا حياة فيه إلّا أن يختلط بلحم ودم ويمشي على الأرض في قلوب قد حملته، وعقول قد وعته، وجوارح قد حفظته، أمّا الحاضر في حقيقته، فما هو إلّا فترةُ جني ثمار ما زرعناه بالأمس، أو وضع بذور ما سنحصده في الغد.

ومِن هذا المنطلق فإنَّ جواب سؤال مِن أين نبدأ.. هو أنْ نبدأ بالإنسان، وبالتحديد فلنبدأ بالطفل الذي هو المستقبل، وهو صورةُ الإنسان الفطري الطاهر السليم الذي لم تعبثْ بعدُ به أيدي المفسدين، ولم تخربه بعدُ قلوب المخربين. ذلك الطفلُ الذي لو حمل طهرَ قلبه وصدق سريرته وكمالَ فطرته أحدٌ من الناس لأبتِ السماء إلّا أن تنصره على كلّ من يقف عائقًا في طريق سيره فوق أرض الله وعمارته لها.

ولنسأل أنفسنا ما حالُ أطفالنا؟ ومَن يدافع عن حقوقهم ويرفع معاناتهم إذا هم ظُلموا أو غُبنوا؟

في بلادٍ أسموها ببلاد كفرٍ يوجد حقوقٌ لرعاية أحباب الله (الأطفال) وحمايتهم من الضرب والتعذيب والإهمال، ومؤسسات وهيئات وجمعيات جلُّ شأنها الدفاع عن هذا الطفل، ولهذه الهيئات والجمعيات نفوذها القوي، فهي تمثل ضميرَ المجتمع، وتضمُّ نخبته من أطباء ومحامين وقضاة وأخصائيّين اجتماعيين وتربويين وعلماء نفس.

ولا يحولُ بين الطفل المعذب وهذه النخبة من المجتمع شيء، إذْ يكفي بلاغٌ هاتفي من جارٍ أو صديقٍ أو أخٍ كبير لهذا الطفل، أو مِن خلال توعية الطفل نفسه في المدارس ابتداءً من المرحلة التمهيدية.

وبمجرد أن يصلَ البلاغ إلى إحدى هذه الجمعيات يجدُ الوالدان على عتبة بابهما لجنةً مكونة من طبيب ومحامٍ وأخصائي اجتماعي

وتربوي، وفي حالة رفض الوالدين مقابلتهم فإنَّ اللجنة تعود في اليوم التالي بأمر من المحكمة لدخول البيت ومقابلة الوالدين والطفل، كلّ على حدة، والتأكد من سلامة الطفل الجسدية والنفسية، والتأكد من أهلية وقدرة الوالدين على تربية أبنائهما.

إنَّنا في المحيط الطبي نسمع ونرى كثيرًا من حالات الضرب والتعذيب والإهمال لأطفال في مجتمعاتنا ولا نرى هيئات وجمعيات فعّالة تقوم بدور الدفاع عن الطفل وحمايته، بل وفي بعض الحالات يصل الأمر إلى كسور وحروق يُصاب بها الأطفال من قبَل أحد الوالدين أو كلاهما، أو الاعتداء الجنسي من قبَل غرباء أو أصدقاء للعائلة، كلّ ذلك يحدثُ في مجتمع إسلامي، وليس هناك جمعيات وهيئات متخصصة ومؤهلة وفعالة ومدعومة قانونيًّا للقيام بدور حماية الطفل.

إنَّ كلّ مسخ لفطرةِ الطفل البريء في أيِّ مجتمع كان على أيدي مخرّبين ومفسدين؛ هو مسئولية تقع على عاتق هذا المجتمع كلّه، ومعاول هدَّامة لمستقبل المجتمع.

فهذا الطفل المعذَّب سيصبح بدون شك في المستقبل القريب عالةً على مجتمعه أو معوّلًا هدّامًا وانعكاسًا لفساد كلّ يدٍ مخربة عبثت بالطفل في صغره، وتركت آثارَ خرابها في تربة أرضه الخصبة.

وسيجني المجتمعُ بأسره حاضرًا غضبَ الله وسخطَه لتقاعس المجتمع عن الدفاع عن أحباب الله، وسيدفع المجتمع بأسْره مستقبلًا ثمارَ كلّ ما بذر اليوم.

إنَّ كلّ خرابٍ على الأرض في المرافق والبنيان والطرق والسدود يمكن أن يصلح ويُعمّر ولو بعد حين، أمّا خراب النفوس فإنه معاول هدامة في أيد مُفسدة.

فلنبدأ بمستقبل إنسان مجتمعاتنا..

فلنبدأ بحقوقِ الطفل.. لعلَّ الله ينظر إلى رحمتنا بأحبابِه فيرحمنا برحمته.

أهكذا نُنشئ الأجيال؟!

لا يختلف اثنان من أهلِ البصائر في أنَّ طريق إعادة تأهيل الأمة الإسلامية لحمْل رسالتها وقيادة البشرية إنما يبدأ بما بدأ به أولُ وحي السماءِ للأرض من آياتٍ للذكر الحكيم تنزل على قلب آخرِ الرسل سيدنا محمد ﷺ الصادق الأمين..

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. (148) ففي كلمة "اقرأ" دستورُ حياةِ هذه الأمة ومفتاح تأهيلها لقيادة البشرية وعمارة الأرض.

وبما أنَّ العلم هو الطريق، والعلمَ يبدأ في الصغر.. فلنسأل أنفسنا، هل هيّأنا الجيل الجديد بسلاح العلم؟

وبنظرةٍ متأملة إلى أبناء هذا الجيل، نجد أنَّ مصادر المعرفة والمعلومات قد تنوعت بشكلٍ خياليٍّ في عصر ثورة المعلومات، وأصبحت اليد العليا في معظم وسائل نشر المعلومة، ولفرط الأسى، لأصحاب الأهواء والأفكار المنحرفة البعيدة عن روح الوحي ونهج السماء. ولم يبقَ لنا كأمةٍ إسلامية من وسيلة مازال لنا فيها اليدُ العليا سوى المدرسة أو كذلك نحسب.

والمدرسةُ هي بمثابة الحاضنِ المؤهل للجيل الجديد للقيام بدوْره في عمارة الأرض وخلافتها وتصحيح الأفكار والسلوكيات التي يصطدم بها أبناؤنا خارجَ أسوار المدرسة. والمدرسة منهجٌ ومعلم ولا قيمة للمنهج إلَّا أن يختلط بلحم ودم يمشي على الأرض فيصبح حركة، وتصبح الحركة حياة، وبغير ذلك يبقى المنهج لا حياة فيه. وما لا حياة فيه لا يحيي في النفوس شيئًا. والمعلمُ هو ذلك اللحم والدم الذي يحملُ المنهج كما يحمله المنهج لينطق به لسان حَالِه قدوة حيَّة يتجسد في صمته قبلَ نطقه، وفي سكونه

قبل حركته. وللقدوة أعمال في النفس تعجز كتب الأرض أن تحققها.

يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه (وحي القلم) (147):
".. لا تغني هذه الكتب عن الرجال، فإنما هي صواب أو خطأ ينتهي إلى العقل، ولكنَّ الرجل الكامل صوابٌ ينتهي إلى الروح، وهو في تأثيره على الناس أقوى من العلم، إذ هوَ تفسير الحقائق في العمل الواقع، وحياتها عاملة مرئية داعية إلى نفسها، ولو أقام الناس عشرَ سنين يتناظرون في معاني الفضائل ووسائلها، ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثمَّ رأوا رجلًا فاضلًا بأصدق معاني الفضيلة، وخالطوه وصَحبوه؛ لكان الرجل وحده أكبرَ فائدةٍ من تلك المناظرة، وأجدى على الناس منها، وأدلَّ على الفضيلة من مائة كتاب، ومِن ألف كتاب. ولهذا يرسل اللهُ النبي مع كلّ كتاب منزل ليعطي الكلمة قوةَ وجودها، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المعقول، وينشئ الفضائلَ الإنسانية على طريقة النَّسل من إنسانها الكبير. وما مثلُ الكتاب يتعلم المرءُ منه حقائق الأخلاق العالية، إلّا كوضْع الإنسان يده تحت إبطه ليرفع جسمَه عن الأرض، فقد أنشأ يعمل، ولكنه لن يرتفع، ومِن ذلك كان شرُّ الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقُهم دروسًا أخرى تعمل عملًا آخر غير الكلام، فإن أحدَهم ليجلس مجلس المعلم، ثمَّ تكون حوله رذائله تعلِّم تعليمًا آخر مِن حيث يدري ولا يدري، ويكون كتاب الله مع الإنسان الظاهر منه، وكتاب الشيطان مع الإنسان الخفيّ فيه".

فلنسال أنفسنا مَن يعلم ويربي أبناءنا؟!

إنَّني لأُصْدَمُ كلّ يوم في مجتمعاتنا بصور مَمْسُوخة لمن يُفترض أن يحمل لقب "مُعلم". ونسمع كلّ يوم عن مُعلم يتملكه الغضب فيفقد أعصابَه ويخرج عن وعْيه ليقذف بالكتب على تلاميذه، أو

بأيِّ شيء تقع عليه يده وإن كان أدَاة حادَّة "كالفرجار".

وآخرُ يحمل في نفسه أمراضًا وحقدًا على المجتمع ينفثُ كلَّ ذلك على تلاميذه فينهال عليهم سبًّا وضربًا وصَفْعًا على الوجه الذي خلقه الله بيده، وحُرم أن يُضرب أو يُهان.

أمّا آخر ما سمعت موثقًا، مُعلم تملَّكه الغضب فنزل على تلميذه بلكمةٍ شقَّ بها باطن شفته وتبعها بركلة من قدمه على مؤخِّرة الطالب ليسقطَ على الأرض أمام باقي زملائه، ليأتي الطالبُ اليوم التالي فيستقبله المعلم متهكمًا ومُهددًا له بالرسوب.

وفي كلّ هذه الحوادث يُوجد المبرر للمُعلم بأنه إنسان، وقد فقدَ أعصابه في لحظة غضب. وأكثر ما يمكن أن يعاقب به المُعلم هو الإيقافُ لبضعة أيام، أو النقل إلى فصلٍ آخر، وخصم بضعة أيام من مرتبه.

أيُّ دروس تلك التي نعلِّمها أبناءنا من خلال هذه الصورة المَمْسُوخة، ومن خلال ردود فعلِ مديري المدارس تجاه انحرافات المعلمين السلوكية، أوَلَسنا بذلك نهدم كلّ منهج مقروء نسعى لغرسه فيهم.

نأمرهم كما أمرنا رسولُ الله ﷺ أن لا يغضبوا.. "وقد سأل ابنُ عمر رسول الله ﷺ فقال له: قُلْ لي قولًا وأقلله لعلي أعقله. فقال: لا تغضب. فأعاد فقال: لا تغضب. فأعاد فقال: لا تغضب"(146). وقولُ رسول الله ﷺ: "ليس الشديدُ بالصُّرعة وإنّما الشديد مَن يملك نفسه عند الغضب(145)".

ثمَّ يأتي تطبيقُ المنهج على يد مُعلم يضرب بكلِّ المنهج عرضَ الحائط بسلوكه المنحرف فيكون هو المعنى المنحرف الحي الذي يَهدم كلّ معنى سوى نظري قد درسَ على الورق. ونأمر أبناءنا

بالعدل ونذكرهم بعاقبة الظلم، وعندما يقع الظلم عليهم بَيِّنًا لا غبار عليه لا يجدون مِن دروس العدل التي قُرئت عليهم في المنهج إلّا سرابًا ليس فيه ما يروي ظمأهم، فتموت في أنفسهم كلّ معاني العدل، وتبقى المواقف حيةً في نفوسهم تذكرهم كلّ يوم أنَّ ما يدرس من منهج لا يعدو أن يكون حبرًا على ورق، أمّا الحياة فلها منهجها الذي يتجسد حيًّا في كلّ ما يرونه، ويبدأ بمُعلم القدوة. وكيف نقبل أن يكون عقاب المُعلم الذي يَصْفَعُ تلاميذه أو يلكمهم أو يركلهم أقلَّ من عقاب باقي أفراد المجتمع خارج أسوار المدارس، وهل للمُعلم حصانة خاصَّة تتيح له ممارسة ما لا يُقبل شرعًا ولا خُلقًا ولا قانونًا، وتوجد له ألف عذر ومبرر.

إنَّ عقاب المُعلم لا بدَّ أن يُضاعف إذا ارتكب مثل هذه الأخطاء والتجاوزات والانحرافات السلوكية نظرًا لعظم الأمانة التي بين يديه، وكونه قدوة لتلاميذه؛ فأخطاؤه وتجاوزاته وانحرافاتُه تجسيد المنهج لأبنائنا، ومسخة في قلوبهم وعقولهم.. وهي جريمةٌ في حقِّ أبنائنا.. وهي جريمة في حق المجتمع.

إنَّني أناشد مديري المدارس أنْ يتقوا الله في أبنائنا، وفي ما تبقَّى لنا من أملٍ في تأهيل جيلٍ جديد سويّ يتشبعُ المنهج الصحيح قدوة لا قولًا ليحملَ المنهج ويحمله المنهج فيكون هو بمنهجِه الصحيح ذلك المعنى الذي يصحّح من مجتمعه ألفَ معنى ومعنى.

---

(148) سورة العلق: 1-5.

(147) مقال "الأسد"، ج 3، ص 37 : 38.

(146) أورده ابن حجر العسقلاني بإسناد حسن.

(145) صحيح البخاري برقم 6114.

مصادرُ التَّربية وتأصيلُ العنف

سنتحدَّث هنا عن عاملِ التربية. أو بالأحرى عدم قيام التربية بدورها الصحيح في تكوين تصورٍ واضح عندَ الفرد لأفضل طرقِ ردود الفعل والخطاب بعيدًا عن العنف والتشنج، فمصادر التربية الرئيسية بأبعادها الثلاثة من: البيت والمدرسة والشارع، قد تكون سببًا في ترسيخ خطاب العنف وردود الفعل غير المتحضرة.

دورُ البيت في تأصيل العنف

ففي البيت نجد كثيرًا من الآباء والأمهات يجهلون مبادئ التربية السليمة وإنْ كانوا من حاملي الشهادات العليا، فهم لا يتكبَّدون عناء البحث والاطّلاع وتعلم أسس التربية، بالرغم من زيادة أهمية ذلك نتيجة تعقد الحياة الاجتماعية الحديثة، وتعقُّد متطلبات التربية لمواكبة احتياجاتها بدون وجودِ آلية مؤسساتية لرفع قدرة الأفراد على التربية والتعليم. وبالتالي نجد كثيرًا من ردودِ فعل الآباء والأمهات عشوائية، عفوية، ارتجالية، غير مدروسة، ولا تُبنى على أي أُسس صحيحة، بل وكثيرًا لا تعْدو معاملة الأبناء أن تكون تنفيسًا لبعض الأمراض النفسية التي عانى أحد الوالدين أو كلاهما منها، مثل أن يكون أحدُ الوالدين قد عوملَ بقسوة غير مُبرَّرة ومَرَضية من أحد والديه، فلا يكون هناك تقنين للعقاب وإنَّما يصبح العقاب تبعًا لهوى الوالدين وحالتهما النفسية عند وقوع الخطأ من الأبناء، وتكون ردود الفعل لأخطاء الأبناء قاسيةً بأساليب خاطئة تخرج عن إطارِ الأساليب التربوية لتصبح وسائل هدم وتحطيم للأبناء، مثل الصَّفع على الوجه الذي كرَّمه الله وخلقه بيده الكريمة ومنع إهانته، أو الضرب المباغت المفاجئ أو السب والشتم والإهانات.

وهناك نوعٌ آخر من الآباء والأمهات الذين تعلموا بعضَ مبادئ

وأُسس التربية الصحيحة ولكنهم يبخلون بالوقت لأسباب عديدة مثل: ضغوط العمل ومتطلبات الحياة اليومية، فتجد همَّهم الأول والأخير هو الحصول على الهدوء في البيت، فلا ينتهزوا المواقفَ للتربية أو الحوار والمناقشة مع أبنائهم، بل يؤثرون إخراس أبنائهم وإنهاء المشاكل بصرخةٍ أو تعنيف أو أمر بالصمت، حيث إنَّ ترسيخ ردود الفعل المتحضرة في الأبناء تستدعي أن يتشبع الأبناء جميعَ الوسائل المتحضرة لعلاج القضايا وردود الفعل، مثل الاستماع الجيد للطرف الآخر وللحجة المقابلة والقدرة على تفنيد المنطق فيها بموضوعية وإيجاد نقاط القوة والضعف فيها واتباع المنطق ومن ثمَّ السؤال والتناقش والحوار والقدرة على إيصال المعلومة والدفاع عن القضية بهدوء ومنطق سليم، كلّ ذلك يستلزم الوقت من الوالدين والصبر وممارسة هذه الوسائل مع أبنائهم في كلّ مشكلة يواجهونها، وقد يبخل كثيرٌ من الآباء والأمهات في استثمار الوقت الكافي لتحقيق وترسيخ هذه الدروس في قلوب وعقول أبنائهم فعلًا لا قولًا لتصبح مرجعيتهم النفسية في التعامل مع القضايا ومواجهة التحديات والمشاكل.

نعم، لقد أصبحت المدرسةُ وللأسف ترسّخ كذلك كثيرًا من المفاهيم الخاطئة، وقد تحدَّثنا قبل ذلك عن ظاهرة العنف غيرِ المبرر الذي يمارسه بعضُ المعلمين تجاهَ طلبتهم، ولكنّنا نرى المشكلة أكبرَ من ذلك بكثير، فالمعلم بشكل عام يحتاج إلى إعادة تأهيل، بل يصحُّ أن نقول بأننا في أمسِّ الحاجة إلى تغييرٍ جذري وشمولي في مفهوم دور المعلم وتقييم إمكانياته وحُسن اختياره وإعادة تأهيله، بل وتغيير نظرة المجتمع إلى المعلم والمربي ليكون للمعلم مكانة اجتماعية مرموقة تتناسب معَ دوره في بناء الجيل ليسعى كلّ والد ووالدة أن يصبح ابنهما مُعلمًا وابنتهما مُعلمة، وبذلك ينخرطُ في مجال التعليم أذكى وأنجبُ أبناء المجتمع. لا كما

يحدث في كثير من مجتمعاتنا العربية حيث ينخرط في مجال التعليم كلّ مَن يُرفض في الكليات الأخرى، بل ولا بدَّ أن يصبح المردود المادي للمعلم عاليًا مثل ما يحدث في الدول التي تقدر العلم والتربية مثل اليابان التي ينظر للمُعلم فيها على أنَّه أعلى مكانة اجتماعية، وتتسابق الشركات والمصانع إلى إهداء مُنتجاتها للمُعلم مدى الحياة بدون مقابل، تعبيرًا عن الشكر والامتنان والاعتراف بالجميل، أضف إلى كلّ هذا المكانة المعنوية التي يحظى بها، ممّا يجعل مهنة التعليم من المهن التي يتنافس عليها، بل ويتقاتل على الانْخراط فيها أنجبُ وأذكى أبناء المجتمع، ولا يحظى بها إلَّا الأفضلُ والأنجب والأذكى منهم. وكذلك المناهج الدِّراسية فإنها تحتاجُ إلى مراجعة وإعادة تقييم ليصبح هدفُها تأصيل مكارم الأخلاق وتحويل المناهج من النظرية إلى التطبيق العملي لتعين على رفع أخلاقيات الفرد على أرض الواقع.

أمّا الشارع وهو البعدُ الثالث للتربية بعد البيت والمدرسة فحَدِّث ولا حرج، فلغةُ الشارع العربي بلا أدنى شكٍّ هي لغةُ خطاب العنف والاستفزاز بصورِه المختلفة، ويظهر ذلك جليًّا في طريقة قيادة السيارة مثلًا، والمبالغة في استخدام البوق في الصغيرة والكبيرة، والتي تعدّ بمثابة لغة سبٍّ وشتم في بعض الدول الأخرى، ومن الصور الأخرى الاستعدادُ النفسي عندَ الفرد العربي لمواجهة المواقف والتحديات والاختلاف باستعمال القوة الجسدية أو الشتم والسبّ والتهديد، ومن أسباب ذلك كلّ ما ذُكر آنفًا من فشل البيت والمدرسة في تأصيل الطرق المتمدنة المتحضرة والإسلامية قبلَ كلّ ذلك في حلِّ النزاعات والاختلافات، بالإضافة إلى أسبابٍ أخرى رئيسية مثل انعدام الثقة بقدرة القانون على أخذ حقِّ رجل الشارع ممّا يُلجئ الفرد إلى محاولةِ أخذ ما يعتقد بأنه حقٌّ له بساعديه ويديه.

ومن الأسباب الأخرى كذلك انعدامُ النظام والأمن من العقوبة.. "ومَن أمن العقوبة أساءَ الأدب".

بعضُ العوامل الأخرى في تأصيل العنف:

1. الانفصامُ بين المبادئ النظرية المنشودة والواقع العملي الممارَس:

فكثيرٌ ممّا يتعلمه التلميذُ في مدرسته والطالبُ في جامعته، وما يُقرأ في الكتب، ويُصرَّح به في وسائل الإعلام من مبادئ تتعارضُ بنسب متفاوتة مع الواقع الذي يعايشه الفرد، فالصدقُ يُنظر إليه على أنه سذاجة، وقول كلمة الحق تهوُّر، وظلم الآخرين قوَّة، والمال عزٌّ وصاحبُه عزيز مكرم في المجتمع بغضِّ النظر كيف اكتسب ماله، بل وحتى وإنِ اكتسبه من حرام، وهو يعلم والمجتمعُ بأسره يعلم، وغير ذلك من صورٍ عديدة مقيتة تحمل معاولَ هدم لكلِّ المبادئ والقيم والمثل والأخلاق التي يسعى المجتمعُ لترسيخها في قلوب وعقول أبناء المجتمع، ومن ثمَّ على أرض الواقع. وهذا الانفصامُ يولِّد عند الفرد مشاعرَ تختلف حسبَ حالة الفرد ومكانته الاجتماعية وخلفيته التربوية والتعليمية والأخلاقية والدينية، ومِن هذه المشاعر الإحساس بالظلم والغبن والقهر، وباستمرار الحال تتحوّل هذه المشاعر إلى غضبٍ أو لا مبالاة. أمّا الغضب فقد يتحوَّل إلى أعمال عنفٍ وتخريب، وأمّا اللا مبالاة فتخلق مجتمعًا سلبيًّا لا يأبه بالإصلاح والتجديد، وهمُّ كلِّ فردٍ من أفراده "الأنا" فيصبح مجتمعًا أنانيًّا لا يأبه إلَّا بأكتساب أكبر قدر لإشباع الأنا على حساب الغير والمجتمع بأسره.

2. تركّزُ لغة الخطاب الديني على الترهيب والعقاب والعذاب في توجيه الفرد في المجتمع:

فيصبح الوازعُ الرئيس هو الخوفَ من العقاب في الدنيا على يد القانون ورجال الأمن أو الخوف في الآخرة من النار والعذاب الأليم دون أن يتوازنَ ذلك مع توجيه الفرد في المجتمع وتربيته بالترغيب ومخاطبة العقل والحوار المنطقي، بل وأحيانًا نشعر أنَّ هناك إبعادًا أو تهميشًا بل ومعاداةً للعلماء والدعاة الذين جعلوا همَّهم مخاطبة عقل المسلم وإحياء روحِه، والتركيز على بناء الأخلاق والسلوكيات وعرض القدوات الصالحات من تاريخ الأمة، والتي نحن في أمسِّ الحاجة إليها لبناء الأخلاق في المجتمع، والتي هي جماعُ ما جاء رسول الله ليتمِّمه صلوات الله وسلامه عليه في قوله: "إنّما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق"(149). ففي مجتمعنا يعاقب الشابُّ المراهق بالضرب أو الحبس أو الجلد، وفي هذا تحطيمٌ وتدمير له، والأَوْلى تربويًّا أنْ يكون العقاب بأساليب تعين على بناء الشاب والشابة كالعمل الإجباري في مجالات خدمة المجتمع والمصلحة العامة لمدة زمنية تطول أو تقصر على حسب الخطأ الذي ارتكب، خاصة في الأمور التي ليس فيها حدٌّ شرعي واضح وصريح، أو التي تقبل الاجتهادَ من أهل العلم، وهذه صورة من صور التربية البنَّاءة أو العقاب البناء الذي يُري الشابَّ ثمرة العمل لخدمة المجتمع وبنائه، وفي هذا كذلك استغلال صحيح وحكيم لطاقات الشباب والشابات، بل لقد وجد أنَّ هذه البرامج التأديبية في العمل العام النافع للمجتمع تساعدُ على بناء شخصية الشباب للعمل النافع والخير والتعود على الإسهام في بناء المجتمع.

3. غيابُ القدوة الصحيحة الفعَّالة في المجتمع أو عدم ظهورها الظهور الواضح الجلي، وهذه من أخطر عوامل تأصيل لغة خطاب العنف.

4. شعورُ الفرد والمجتمع بضياع الحقوق وعدم وضوح الأنظمة والقوانين، وازدواجية المعايير في تطبيق القانون، وهذا يبعث عند

الفرد في المجتمع الإحساس بأنه لا طريق لاسترجاع الحقوق إلَّا بلغة العنف.

5. ندرةُ المؤسسات المدنية التي من خلالها يستطيع الفرد التنفيس عن قدراته أو وجهات نظره، بطريقة سلمية مدنية حضارية، وإبداء الرأي والحوار والسعي لإجراء التغيير والإصلاح في مجتمعه. وفقدان مثل هذا المتنفس المدني الطبيعي من شأنه أن يخلق غضبًا داخليًا قد يعبر عنه البعض بالعنف في صور الخطاب المختلفة.

إنَّ ظاهرة انتشار العنف في مجتمعاتنا يجب أن لا تُختزل في عامل واحد، فالعواملُ كثيرة، والمجتمع بأسره قد أسهم ويُسهم في تأصيل لغة خطاب العنفِ لدى شريحة من شبابنا، وإنَّنا إذْ نذكر ذلك فإننا لا نحاول إيجاد المبرِّر لأيِّ صورة من صورِ خطاب العنف، فالعنفُ بصوره المختلفة لا يُبرَّر، وبإيجاد المبرِّرات نُبرئ المخطئ والجاني ونوجِدَ له الأعذار، ولكننا في الوقت نفسه يجب أن لا نبرّئ أنفسنا والمجتمع، ففي ذلك تسطيح لمشكلة معقدة، واستخفافٌ بمرض عُضال فتّاك، واختزالٌ لظاهرة اجتماعية خطيرة تكتفي بتجريم الفرد وإغفال عوامل وأسباب المرض. إنَّ إغفال دراسة عوامل وأسبابِ المرض "ظاهرة العنف" والتعامل مع أعراض المرض فقط كفيلٌ بأن يؤدي إلى انتشار المرض وتفشّيه.

---

(149) رواه أحمد والحاكم، والبيهقي واللفظ له.

أسبابُ العنفِ لدى المراهقين

مع ضراوة ما تمثله مرحلةُ المراهقة من تقلُّبات مزاجية ونفسية، بل وأخلاقية للشاب، فقد وجدتني بحاجةٍ إلى أن أفرد لإحدى مظاهرِ التقلبات السلوكية لدى المراهق ألا وهي العنف. ولقد تعدَّدت منابعُ العنف لدى المراهق على مستويات عدَّة، ومنها: خاصّة تتعلق بالمراهق نفسه، وعامَّة تتعلق بالأسرة، والمدرسة، والمجتمع، ووسائل الإعلام.

ومِن أمثلة الأسبابِ الخاصَّة بمرحلة المراهقة:

- اضطراب نموّ مفهوم الذات.
- توهُّم المراهق بأنه يعرف كلّ شيء.
- عنف الانفعالات.
- التهور في الأفعال.
- الميل إلى الاستقلال عن الكبار.
- خصوبة التخيل الذي يدفع إلى المغامرة.
- الاستغراق في الخيال وأحلام اليقظة "كأن يقتل عدوه".
- التوحد مع شخصيات عنيفة أو تقليد نماذج ضارة.
- الميل إلى التحدي والمنافسة.
- الميل إلى التعصب.

ومِن أمثلة الأسباب الخاصَّة بالأسرة:

- سلوك العنف من الوالدين أو أحدهما.
- سلوك العنف من جانب الأخوة الأكبر.

•القسوة الزائدة، أو العقاب الجسمي المرهق من جانب الأسرة.

•افتقاد المحبة والتواد داخل الأسرة.

•تعرض الأسرة إلى ضغوط وأزمات تولد الإحباط.

•الفوضى وسوء الترتيب في البيئة الأسرية.

•عدم توجيه المراهق بشأن اختيار أصدقائه.

•استبعاد المراهق من المشاركة في القضايا الخاصة بالأسرة.

•ومِن أمثلة الأسباب الخاصَّة بالمدرسة:

•عدم فهم المدرسين لطبيعة المرحلة العمرية للطالب.

•ضعف التوجيه التربوي أو الإرشاد المدرسي.

•تساهل إدارة المدرسة مع الطلاب المشاكسين.

•تدني الكفاءة التربوية لبعض المدرسين.

•افتقاد الرؤية التربوية في ممارسة الضبط والتوجيه.

•وجود أفكار أو معتقدات تعلي من شأن العنف.

•وجود نماذج للعنف في سلوك بعض المدرسين.

•قلة اهتمام المدرسة بتوضيح القيمة العالية للتعليم وجدواه.

•القسوة المفرطة غير التربوية في فرض القيود على الطلاب.

•صعوبة بعض المواد الدراسية أو الامتحانات بما يشكل ضغطًا على الطالب.

•شعور الطالب بالظلم أو الاضطهاد من جانب بعض المدرسين أو بعض الزملاء.

•عدم اهتمام المؤسسة التربوية بمسألة ترسيخ علاقة طيبة بين

الطالب والمدرسة.

•ضعف فاعلية المدرسة في حل مشكلات الطالب.

•ضعف دور المدرسة في ترسيخ الروح الجماعية والتعاون والتسامح بين الطلاب.

•ضعف دور المدرسة في تنمية التفكير والإبداع.

ومِن أمثلة الأسباب الخاصَّة بالمجتمع:

•سوء تنظيم أنشطة الأماكن المتاحة لقضاء وقت الفراغ.

•ضعف أو غياب برامج التوجيه المتكامل للمراهقين.

•ضعف دور مؤسسات المجتمع في توجيه الشباب والمراهقين.

•غياب "القدوة الصالحة" الرافضة للعنف في المجتمع.

•قلة أو غياب نماذج التوجيه الصائب أو المقنع في المجتمع.

•غلبة الجوانب المادية والمصالح والرغبات الشخصية وما يتصل بذلك من تنافس وصراع.

•تناقض المعايير الاجتماعية، والتناقضات في المجتمع بوجه عام.

ومِن أمثلة الأسباب الخاصَّة بممارسات وسائل الإعلام:

•كثرة مشاهدة المادة الدرامية المتضمنة للعنف.

•كثرة مشاهدة برامج المصارعة العنيفة.

•كثرة التعرض للأحداث الواقعية العنيفة التي ينقلها التلفزيون وغيره من وسائل الإعلام.

•كثرة استخدام الألعاب العنيفة عبر الإنترنت وبرامج الكمبيوتر وغيرها من المصادر.

- كثرة مطالعة أحداث وقصص العنف في المواد المطبوعة.
- غياب الرقابة الأسرية عما يشاهده المراهق عبر التلفاز وغيره من المؤثرات المرئية.
- انتشار الأفلام الأجنبية التي تتضمن العنف.
- انتشار الأقراص الممغنطة (CD التي تتضمن العنف والجنس والمخدرات.
- ضعف تفاعل وسائل الإعلام مع قضايا المراهقين ومشكلاتهم.
- سوء اختيار المادة الدرامية المستوردة.

لبنان بينَ عُمرين

كلَّما أغمضت عيني وأطلقتُ العنان لخيالي ليعودَ بي إلى أجمل ذكريات حياتي، يأبى خيالي إلّا أن يعود بي إلى هناك..

إلى ابنِ السابعة من عمره يسير في شارع بحمدون (الجبل) وهو يحملُ في يده نصفَ ليرة (ربعين) يضعهما في جيبه بعناية، ويبقي يدَه في جيبه خشية أن يسقطا منه.

أمّا الربع الأول.. فيشتري به قالبًا من الحلوى، وأمّا الرُّبع الثاني فيذهب به كعادته من كلّ صباح إلى مكتبة صغيرة اعتادَ ارتيادها منذُ تعلم القراءة فيشتري قصة، ويذهب ليقرأها ثمَّ يعودُ بها مرة أخرى إلى المكتبة بعد الظهر ليستبدلها بأخرى على علمٍ من صاحب المكتبة الذي أعجبه حبُّ ابن السابعة للقراءة، فكان يكرمه كلّ يومٍ باستبدال قصة الصباح بقصةٍ أخرى، شريطة أن يعيدَها بحالتها التي أخذها.

وبقيَ هذا الاتفاق بين صاحب المكتبة وابنِ السابعة لعدةِ سنوات في كلّ صيف يقضي فيه الصبي إجازته.

وما كان ابنُ السابعة يستطيع آنذاك أن يجيبَ عن سؤاله المحيِّر.. لماذا كان يفرح صاحبُ المكتبة كلما عاد الصبي لاستبدال قصة مكانَ قصة فيقرأ بذلك قصتين بثمن واحدة؟

ولم يكنِ ابنُ السابعة يدرك آنذاك أنَّ متعته في الأخذ بلا مقابل ليست أعظمَ صور السعادة في الدنيا، بل إن أمتع منها ما يكمنُ مقابلها في العطاء نفسه، لم يكن يدرك أنَّ السرور الذي كان يراه صاحبُ المكتبة على وجه ابن السابعة في كلّ مرةٍ يكرمه بقصة أخرى؛ يفوق فرحته بأن تقعَ ربع ليرة ثانية في يده كلّ يوم ثمنَ القصة الإضافية.

وتَحُول الحربُ بين الصبي وبين قضاء الإجازة هناك..

وتمرُّ الأيام سراعًا.. وتتسارع بسرعتها الأعوام، ويغمض ابنُ السابعة عينيه ليجدَ نفسه في الأربعين.. ثلاثة عقود تمرُّ.. يكبر ابنُ السابعة ويكبر معه الحنين ليعود به إلى هناك.

فاصطحب هذه المرة زوجته وذهبَ معها إلى هناك.. ليسير بعدَ ثلاثين عامًا في نفس الشارع الذي سار فيه وهو ابنُ السابعة ثمَّ ابن الثامنة فالتاسعة فالعاشرة، وما بين ذلك وبعده ممّا يذكر وممّا لا يذكر.. سار وهو يبحث عمّا يحيي به ذكريات أيام طفولته الجميلة.

أمّا الشارع الرئيسي فوجده أصغرَ بكثير ممّا قد رسمه له الصبي الطفلُ في مخيلته، لكن الذكريات تداعت مع خطواته فيه تداعب وجدانه وتستثير عواطفه.

وبدأ يحكي لزوجته فيقول لها.. هنا وقفت.. وهنا أكلت.. وهنا لعبت.. وهنا.. وهنا.. وهنا.. هنا كان فندق "الساحة"، وهنا فندق "الكرمة"، وهنا دور السينما، وهنا فندق "لامرتين".

تذكَّر مقهى الشامات فقصدَه فوجده تغير، وتذكَّر المسجد بجوار فندق "لامرتين" في آخر الشارع فوجده هناك.. دخل الفندقَ فوجد فيه ما يكفي ليذكِّره بعشرات الذكريات.. تغيَّر الكثير ولكن مازالت هنالك أحجار قديمة وأعمدة ومعالم لم تتغيرْ، ينظر إليها ابنُ الأربعين يذكرها بأمِّ عينيه فيقترب منها ويلمسها يتعرَّف عليها ويذكرها بنفسه لعلها تتعرف عليه هي فتتذكره.

وفجأة، وجدَ نفسه أمام المكتبة.. نعم، تلك المكتبة التي كان برتادها قبلَ ثلاثة عقود.. فيدخلها ليجد شابًّا يافعًا في مقتبل عمره فيسأله: كم عمر هذه المكتبة؟ فيجيبه بأنَّ عمرها يناهز الأربعين.

ثمَّ سأله: هل بيعت؟ فأجابه بأنَّ صاحبها هو صاحبها لم يتغير،

فسأله: من أنت؟ فقال: أنا ابنُ صاحب المكتبة. فسأله: وأين أبوك؟ قال: أبي سيأتي عما قريب.

وجاء الشيخ فلم أسأله وإنَّما بدأت أشتري منه مجموعةً كبيرة من الكتب.. العشرات منها، وبدأنا نتجاذب أطرافَ الحديث فيخرج لي كتبًا قيِّمة، ويحثُّني أن أقرأ فيها.. وأنا أتفحَّصه لعلي أتأكد إنْ كان هو.. ذاك الرجل الذي كان يُكرمني في صباي بقصةٍ إضافية كلّ يوم.

وبعدَ بضع ساعات قضيناها في هذه المكتبة الصغيرة بحجمها، الكبيرة بروح صاحبها، وما تحتويه من كتب منتقاة بعناية فائقة؛ طلبتُ منه أن يجمع لي الحساب.. ففعل.

وكانت الفاتورة كبيرة، ففتحت محفظتي وأخرجتُ منها بطاقة الائتمان، فقال لي: يا بني، لا أتعامل مع هذه البطاقات. ولم تكنْ نقودي ونقود زوجتي تكفي، فأخذت أنقصُ من الكتب لأعيدها أو أحجزها ليوم ثانٍ فسألني: ماذا تفعل؟.. فقلت: إنما أشتري منك نصفَها على أن تحجزَ لي النصف الآخر حين أعود من الغد. فأجابني: بل تأخذها كلها وتدفع لي في الغد، أو بعد الغد، أو متى شئت. فقلت: وكيف تضمن أنَّني أعود لك بالمال؟ فأجابني: لم تنعدم الثقة بين الناس يا بني.

فقلتُ في نفسي.. والله أكادُ أجزم أنه هو ذاك الرجل الذي كان يكرمني وأنا صبي.. وهو الذي رآه ابنُ السابعة الذي يرى بعينِ الفطرة والصفاء، فلا تخدعه الصورُ، ولا تغرُّه المظاهر، وإنَّ النفس التي رآها ابنُ السابعة في ذاك الرجل هي نفسٌ أقوى من أن تغيِّرها الحروب أو تبدّلها الظروف.

فقلت له: هل تذكر قبل ثلاثين عامًا صبيًّا كان يأتيك كلّ صيفٍ ويشتري منك قصة ويستبدلها بأخرى آخر النهار؟ فقال: نعم..

كان ذلكَ قبل الحرب. فقلت له: أنا هو.. والآن أذكرُك أنت هو.. تتغير الوجوه وتتحول الأشكال والصور ولكنَّ الروح لا تخطئ الروح.

فأخذَ بيدي وأخرج لي ولزوجتي صندوقًا قديمًا فيه ليرات قديمة، وقال لي: هذه ليرات قديمة ليس لها قيمة إلّا بما تحمله من ذكريات، ويوم كهذا تثقلها الذكريات فتكون غالية ثمينة، ثمَّ أهداني وزوجتي ليراته القديمة.

نعم.. إنَّ أبسط حروب الأرض قد تنجح في إزالة أعظم معالم بُنِيَتْ من حجر، بينما تعجزُ أشرس حروب الأرض في أن تغيّر أعظم المعاني في أبسط البشر.

فعمارُ القلوب بعيد كلّ البعد عن أيدي الأعداء المخرّبين.. لا يصل إليه عَدو، وتعجز دون خرابه أعْظمُ قوى الأرض.

ذكرياتٌ عامرة في قلوبنا، وبصمات ستبقى على مرِّ الزمن لشعبٍ مِضياف كريم ذي تراث وتاريخ عريق. شعبُ فكرٍ ومعرفةٍ وثقافة.. شعبٌ متقنٌ مُبدعٌ، يتمتع بذوق رفيع في شتى مجالات الحياة.

شعبٌ حرٌّ مناضل يدافع عن أرضه ليحقق قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (150).

وستصمد لبنان بإذن الله بدماءِ المدافعين، وعرق ومالِ العاملين، ودعاء الأتقياء المخلصين.

وسَتُبنى لبنان في كلّ مرةٍ يهدمها الأعداء الحاقدون.

ستبنى في كلّ مرة أسرعَ من سابقتها وأفضل وأجمل.

وفي كلّ مكان سقط منه حجرٌ سَيُبنى عوضًا عنه أكثرُ من حجر.. ليشهد التاريخ أنَّ العمار الحقيقي هو في عمار المحبّين لهذه الأرض من البشر.. وإنْ بدا للجُهَّال أنهم يهدمون لبنان بهدمهم لأحجار لبنان.

نعم.. إنما تُعمر الأرضُ بعمار قلوب المحبين لها من البشر.. وإن سقط الحجر وراء الحجر.

---

(150) سورة الحج، من الآية 40.

عندما تُختَزَلُ أحلامُ شعبٍ في "بَلاَّعة"

منذُ نعومة أظفاري وأنا شغوفٌ بقراءة التاريخ، وخاصَّة تاريخ أمة الإسلام العظيمة، فكنت أقرأ التاريخَ كالذي يعيشُ فيه، وصِرْتُ أُصبحُ وأُمسِي مستشعراً ثقلَ المسئولية الملقاة على كاهلي، مترهبًا من حمل أمانة أَبَت الأرض والجبال أن يحملنها وحملَها الإنسان، إنه كان ظلومًا جهولًا، ولذلك رأيتني في كلّ مراحلِ حياتي أحمل مسئوليّتي في الحياة بكلِّ ما آتاني الله من قوة.

فتخرَّجت من ثانوية الثغر، وكنتُ بحمد الله من أوائل المملكة، وسافرت إلى أمريكا، وعاهدت الله أن أكون في نفسي ذلك التغيير الذي أحبُّ أنْ أراه في مجتمعي، فدرستُ الهندسة الصناعية وتخرَّجت الأول على دفعتي في جامعة جورج واشنطن بفضلٍ من الله وحده، ثمَّ التحقت بالطب في نفس الجامعة، وكنت أولَ سعودي يتخرج من أمريكا بشهادة الطب MD، ثمَّ التحقتُ بجامعة هارفارد لأُكملَ دراسة الامتياز والتخصص والزمالة من المستشفيات التابعة لهارفارد، وقد أكرمني اللهُ وحصلتُ على البورد الأمريكي، ولله الفضلُ والمنّة، ثمَّ درجة الماجستير في إدارة وقوانين الصحةِ من جامعة هارفارد كذلك، ومن ثمَّ تمَّ تعييني ضمنَ طاقم التدريس كأستاذ في كلية الطب بجامعة هارفارد.

وأثناءَ دراستي وعملي بالولايات المتحدة أكرمني اللهُ بالمشاركة في تشييد أكبرِ مركز حضاري إسلامي في أمريكا، وذلك بمدينة بوسطن، والذي كان له دورٌ كبير في تفعيل حوار الأديان، وكنتُ بذلك في ذروة تحصيلي الأكاديمي والإكلينيكي والنفسي والدعوي والمادي.

ولكنْ إحساسًا منّي بواجبي تجاه وطني الغالي تركتُ كلّ ذلك، وعُدْتُ من أجل رسالة واحدة، ألا وهي "صناعة نموذج فريد لرعايةٍ صحية ذات نظرةٍ شمولية لشفاء الإنسان جسدًا وعقلًا وروحًا باتباع أفضل المعايير الطبية العالمية للعلاج واقتفاء المعايير الربّانية في المعاملة والأخلاق"، ولأَضَعَ مع شركائي في المركز الطبي الدولي الذين أكرمني الله بهم واصطفاهم لهذه الرّسالة بذرةً لنبتةٍ صالحة تكون يومًا من الأيام تلك الشجرة الوافرة القوية المثمرة، لنُسْهم في وضع معايير إسلامية ربانيّة في القطاع الصحي.. كيف لا نطمح لذلك وهناك معاييرُ أمريكيّة وأوروبيّة وكنديّة؟ بل إنَّ أستراليا على محدوديةِ سكانها لها معاييرُ تتنافس المستشفيات حول العالم للحصول على مصادقتها.. ونحن أمة محمد ﷺ أكثرُ من بليون ونصف البليون نسمة، ليس لدينا معايير إسلامية للرعاية الصحية!

وقد أدركنا سلفًا أنَّ طريقًا طويلة وعرة تنتظرنا. لم نهتمَّ أن نرى نتيجة هذا العمل في حياتنا مادُمنا وَضعْنا البذرة الطيّبة التي سَتُثمِرُ ولوْ بعد حين. ومِن هذا المنطلق سَعَينا للإتقان في كلّ جزئية، فالتصميم وحده استغرق أكثر من أربع سنوات من العمل المتواصل الدؤوب المُضْنِي بمشاركة مستشفيات هارفارد الرائدة، والذي كلفنا ملايين الدولارات لنراعي الجمعَ بين روح التصميم الإسلامي وأحدثِ معايير الهندسة الحديثة في الرعاية الصحية، والمَبني على فلسفة الشفاء بالتصميم، فمِن حدائق داخلية وخضرة في كلّ مكان، إلى غرفٍ تجمع بين دقة المواصفات وجمال المنظر. بل كنّا في كلّ جزئية تمسّ سلامة المرضى نزيدُ على ما تطلبه المعايير العالمية ونُجَاوز المطلوب، فحرصنا مثلًا على أن يكون المبنى مقاومًا للزلازل مهمَا كلّفنا ذلك، بالرغم من تأكيد الخبراء أنَّ الموقع ليس عرضة للزلازل، ولكنها أمانةُ الحفاظ على

سلامة مرضانا التي لا نساوم عليها. كما قُمنا ببناء محطة كاملة لتعقيم المياه تحت الأرض، بحيث تكرّر المياه المستخدمة في المستشفى إلى مياه صافية يُعاد استخدامها في الري بدلًا من ملايين اللترات من مجاري الصرف الصحي التي تنتج عن تشغيل مستشفى بهذا الحجم، فكنّا بذلك أول مؤسسة في السعودية تعتمد مثل هذه التقنية العالية، مطبّقين بذلك تعاليم الإسلام في المحافظة على الموارد الطبيعية واقتفاء سنة رسول الله ﷺ بعدم الإسراف كما روي عنه ولو كنت على نهر جار.

هذه الجودة العالية في التصميم تُوّجَت في السنة الثانية من التشغيل بحصولنا على شهادة الجودة العالمية من الهيئة الدولية المشتركة لاعتماد المستشفيات بأعلى نسبة نجاح في الشرق الأوسط، ولذلك تم اختياري كعضو في لجنة الهيئة الدولية المشتركة لمناقشة المعايير الجديدة لأكون أول عربي مسلم يتم اختياره للمشاركة في هذه اللجنة.

وتمر الأيام.. ثلاثة أعوام مضت سراعًا وجاء وقت تجديد الاعتماد العالمي، وحَضَرت اللّجنة المقيّمة، وأقامت في مستشفى المركز الطبي الدّولي لخمسة أيام جابت فيها أرجاء المستشفى كاملة. وفي صباح اليوم الخامس، والذي صادف يوم الأربعاء الموافق 26 يناير 2011م، بدأتِ الأمطار تهطلُ بشدّة على مدينة جدة. وأثناءَ تقديم اللجنة نتائج تقييمها مليئًا بالتقدير والثناء للإنجاز الرائع والإتقان، وإعلان النتيجة الرائعة التي حقّقها المركز الطبي الدولي، التي كانت أعلى حتَّى من سابقتها لتستمرَّ كأعلى نسبِ الاعتماد في الشرق الأوسط؛ إذا بالمسئول عن إدارة الكوارث بالمستشفى يستأذن المهنّئين حولي ويأخذني خارجَ القاعة ليخبرني بأنَّ جدة تواجه خطراً محدقًا؛ فقد انهار سدُّ أمِّ الخير وبدأ السيلُ يهدر إلى المستشفى، وعلمنا لاحقًا أنَّ هذا السد ركامي وقد أخطأ مَن سمّاه

سدًّا.

وقد تتابعت فصولُ كارثة الأربعاء 26 يناير 2011! فبدأ منسوبُ الماء في شارع حائل المقابل للمستشفى بالارتفاع بسرعة عجيبة، ثمَّ اندفع الفيضانُ إلينا من كلّ مداخل القبو. وعلى الرغم من الموقع المرتفع للمستشفى، ووجود مضخّات مياه أسفلها، إلّا أن السيلَ كان أعنف من أنْ تحتويه مضخّاتنا، فلم يكن في شارع حائل بلاعة واحدة تعمل على تصريف المياه! واستمرَّ مستوى الماء في الارتفاع سريعًا حتَّى اقترب من محولات الكهرباء، والتي وضعتها تصميماتُ المستشفى في منطقة مرتفعة، فقد صُمّم المستشفى للتعامل مع الكوارث من قبل معماريّين عالميين، ولكنه للأسف لم يُصمّم لمدينةٍ شوارعها تفتقرُ إلى أبسط معايير السلامة، ألَا وهي تصريف المياه! ما أبعد ما يكتبه وما يقوله المسئولون عن الواقع الذي أعايشه الآن وأنا أكتبُ هذه الكلمات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وما هي إلّا ساعة ويغرق قبو المستشفى، فأغلقنا قواسَ الكهرباء إيثارًا منا لسلامة مرضانا وخشية أن يصيبنا ما أصابَ غيرنا من حالات الماس الكهربائي ومِن ثمَّ الحرائق، خاصة وأنّنا مستشفى به مئات المرضى ومئات العاملين وهُم جميعًا أمانة في أعناقنا. بل وكان المستشفى يومَها ملاذًا ومأوى لأكثر من مائتي طالب من المدارس المجاورة، لم يجدوا مكانًا آمنًا لهم إلّا سقف مستشفى المركز الطبي الدولي لحُسن تصميمه، فاحتضناهم وتقاسمنا جميعًا الطعام والشراب والملابس والغطاء ليقضوا الليلة معنا.. شاهدينَ على المأساة التي ألمّت بنا جميعًا بمدينتنا الحزينة.

ولم تنته، بل بدأت حكايةُ مأساتنا..

الماءُ يحيط بنا من كلّ جانب، وكأننا في جزيرةٍ انقطعت عن

العالم، لا كهرباء إلّا من مولّداتنا الخاصة والبعيدة عن منسوب المياه، والتي تُغَذّي أقسام العناية الحرجة بالمستشفى.

الماء يُحكِمُ قبضته على المركز الطبي الدولي، وليس لنا ماءٌ للشرب يصل إلينا عبر شبكة المياه، وهذا ليس بجديد! فعلى مدى خمسة أعوام، ومنذُ افتتاح هذا الصرح الطبي على يدِ والدنا ومليكنا ووليِّ عهده الأمين ونحن نعاني من نقص الماء، مُرغمين على تغذية مصدرِ الماء بخمس سيارات ماء يوميًّا على مدار السنة. والآن.. وقد انقطعنا عن العالم، فلا تصل إلينا حتّى سيارات الماء، وليس هناك مِن بنية تحتية صحيّة لإيصال الماء إلينا. وفي المستشفى أكثر من ألف وخمسمائة روح محاصرة.. مرضى وأطباء وممرضات وأطفال لاجئين وأهاليهم.. وصار على عاتقنا وحدنا توفير الملجأ والماء والطعام والسلامة.

شارع حائل يغرق، ويغطي الماءُ السيارات، وما من مغيث إنْ كان عنده غوث، طيلة يوم الأربعاء ولا من أحد يُعيننا على ما نحن فيه.. ولا مغيث ولا معين لنا إلا الله.

وتشرق شمسُ الخميس.. ولا يصل إلينا إلّا الصحف!! أمّا غير ذلك من دعم فَتعذّر عليه الوصول إلينا أو مساعدتنا.

ومِن منطلق الحرص على الأطفال القادمين إلينا من المدارس المجاورة، وعلى المرضى الذين لم يستطع ذووهم الوصول إليهم؛ فقد أخذنا على عاتقنا مسئولية نقلهم وإيصالهم إلى ذويهم.

فقمْنا ذلك الصباح بوضع خطةٍ لتنسيق نقل وتحويل المرضى إلى أماكن إخلاء آمنة أو مستشفيات أخرى للحالات التي تستدعي ذلك، وأبقينا الحالات الحرجة في المستشفى، وكان فريقنا الطبّي والفنّي في حال تأهُّب دائم، يعمل على قدم وساقٍ لتقديم الخدمة الصحيّة في أصعب ظروف مررنا فيها وأحلكها، وقد وفّقنا الله

وله سبحانه الحمدُ والمنة في تقديم كلّ الرعاية اللازمة لكلِّ مرضانا.

إنَّها حقًّا أيام لن تنسَى من حياتنا.. لم ترَ أعيننا فيها النوم.

أخلاقُ شعب

زرتُ مع عائلتي ماليزيا في إجازة حجّ ذاتَ مرة، وكانت هذه زيارتي الأولى بالرغم من أنني كتبتُ عدةَ مقالات عن ماليزيا، وعنْ إنجازات هذا الشعب على مدى عقدينْ من الزمن لينتقل من بلدٍ صغير فقير يعتمد على الزراعة والقصدير والمطاط إلى دولةٍ صناعية متقدمة ذاتِ اقتصاد قوي، وشعب متعلم مُنتج عامل متطور محافظ على أسسه الإسلامية.

وشرحتُ في أحد المقالات الدورَ الذي أدته الخطة الإستراتيجية التي وضعها رئيس وزرائها آنذاك الدكتور مهاتير محمد في رفع مستوى التعليم، وتكريس جزء كبير من الدخل القومي في هذا المجال. وذكرت آنذاك أن هذا متوقَّع من طبيب يَعي دورَ العلم في بناء الحضارة ورقي المجتمعات.

وبدأت رحلتي لماليزيا لحظة أنْ وطئت قدماي طائرة الخطوط الماليزية، وعزمت أن أكتب مقالًا عن الخطوط الماليزية نظرًا لما رأيتُ من خدمة ومعاملة، وأدركت آنذاك سببَ نجاح الخطوط الماليزية في الحصول على جائزة أفضل مضيفي طيران في العالم لعدةِ سنوات متتابعة، ورأيت للخطوطِ الماليزية إعلانًا يقول "فوزنا بجائزة أفضل مضيفي طيران في العالم أربعة أعوامٍ على التوالي قد يعزى لأننا نتدرَّب على مدى قرون مضت. عند البعض هذا مجرَّد عمل، ولكن الضيافة عندنا هي جزءٌ من طبعنا وعاداتنا وتقاليدنا، والشكر يعود لقرون عديدة تعلمنا فيها واجب إكرام الضيف وآداب الضيافة".. وسألت نفسي أوَلسنا أولى أن نقولَ ذلك ونطبِّقه ونحن من شُرِّفنا بخدمة ضيوف الرحمن منذ أكثر من 1440عامًا.

ووصلنا إلى مطار "كوالامبور" عاصمة ماليزيا، وأُعجبت بما رأيت،

فعزمت أن أكتبَ عن مطارها الذي لَو قورن بمعظم مطارات أمريكا وأوروبا لكانَ الأفضل، وأخذت أقارن بين ما رأيت في ماليزيا وبين ما رأيت في مدن أخرى هي أولى أن يكون مطارُها بهذا المستوى الراقي، علمًا بأن مطار أيِّ مدينة هو بوابتها للعالم الخارجي، وإن كانت المدينة كتابًا فالمطار هو عنوان هذا الكتاب.

وخرجنا من المطار ورأيتُ الاهتمام بالحدائق العامَّة والمرافق العامة والمواصلات والبنية التحتية والتنظيم والترتيب في كلّ ما تقع عليه عيناي، فأدركت أنَّ هناك الكثير والكثير ممّا يستحق الكتابة عنه والمقارنة بين ما وصلوا إليه وما نحن فيه.

وأُعجبتُ بما رأيت من تقدُّم وتطور صناعي وتجاري، وكيف أنَّ ما يقرب من نصف السيارات التي أراها في الطريق هي مِن صنع ماليزيا. واستمرَّ إعجابي بكثير ممّا رأيت هناك ويستحقُّ الكتابه عنه. واضطررت إلى الذهاب إلى مقرِّ الخطوط الماليزية للحجز، ولشراء تذاكر سفر، فدخلتُ قاعة كبيرة قمة في النظام والنظافة والراحة، مليئة بالعملاء كلّ يجلس ينتظر دورَه، فأخذت رقمًا من الأرقام المسلسلة، وجلست أنتظر دوري متعجبًا من الهدوء العجيب في صالة كبيرة مثل هذه مكتظّة بالعملاء. ونظرتُ حولي فرأيت معظمَ المنتظرين يقرؤون كتبًا أو مجلات في أيديهم، كلّ منشغلٌ بالقراءة لا تسمع جدلًا أو صوتًا عاليًا، بل لا تكاد تسمع همسًا، سلام عجيب يملأ المكان، وفي خلال دقائق ظهرَ رقمي على الشاشة وفيه تحديدُ رقم الموظف الذي سيساعدني فذهبت، فوجدتها امرأةً متحجبة حجابًا قمة في النظافة والأناقة، أمّا تعاملها فقمةٌ في الخلق الرفيع والأدب الجمِّ، ونبرة صوتها وأسلوب مخاطبتها يعكس تربية إسلامية راقية واعية، أمّا أداؤها لعملها فقمةٌ في الدقة والإتقان والاخلاص في العمل. وفي خلال عشر دقائق انتهت مهمَّتي وغادرت مكتب الخطوط الماليزية. سلام في سلام..

وهنا وقفت متأملًا ومدققًا ومتمعنًا فيما أرى.. وهنا صدمتني الحقيقة المُرَّة. وأدركت أنَّ هناك ما هو أولى وأجْدر أن أكتبَ عنه من أن أكتب عن مطار ماليزيا أو صناعتها أو بنيتها التحتية أو حدائقها أو تطورها، وإن كان كلّ ذلك يستحق الإشادة به. إن كلّ ما ذكرت وإن كثر وإنْ تباعدت الشقة بيننا وبينَ مَن سبقونا من شعوب وأمم، كلّ ذلك يمكن أن يتدارَك في عقد أو عقدين من الزمن خاصَّة في دولة غنية بمواردها الطبيعية.. نعم كلّ ذلك يمكن أن يتدارَك، ولكن هناك ما هو أصعب من أن يتدارك في عقد أو عقدين من الزمن؛ ألا وهو "خُلق الشعب" فهذا يحتاج إلى أجيالٍ وأجيال. وما الإسلام إلَّا ما أكد رسولُ الله ﷺ أنَّه إنما بُعث ليتمِّمه "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(152).. ومِن المسلَّم به في حقيقة الأمر، ألا وهو الذي وصفَه رسولنا الكريم بقوله "المسلمُ مَن سلم الناس من لسانه ويده(151)".

إنَّ البنية التحتية الحقيقية لأيِّ حضارة هي خُلق الشعب. أمّا سوء الخلق والفظاظة والغرور والعجرفة والتسلط واحتقار الناس وعدم المبالاة بالمسئولية أو العقاب؛ كلُّها عوامل هدمٍ لأيِّ مجتمع ودمار له واجتذاذ شجرة ثماره وخيره من جذورها.. وكما قال الشاعر أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت.. فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

هنا مهبطُ الوحي.. هنا نزلت آخرُ الرسالات السماوية للأرض والبشرية جمعاء.. هنا يقطن مَن شُرِّفوا بخدمة ضيوف الرحمن. أوَلسنا أحقُّ وأولى أن تتمثَّل فينا أسمى صور المعاملة والخطاب والخلق الكريم؟!

وهذا هو طريقُ التقدم والحضارة الحقيقية.

(152) سبق تخريجه.

(151) رواه عبد الله بن عمرو بن العاص بمسنده، برقم 7086.

مكتبةُ الإسكندرية

كنتُ قد زرت قبل سنوات مكتبةَ الإسكندرية، حيث حضرتُ مؤتمر الغدد الصماء والسكر الذي يقام كلّ عام في بلد عربي، والذي أقيمَ في مصر بمدينة الإسكندرية في قاعة المؤتمرات بالمكتبة التي أنشئت بمعايير عالمية، وبتكلفة ربع مليار دولار بإسهاماتٍ عربية ودولية. وقد كانت آخرُ زيارة لي للإسكندرية قبلَ حوالي ثلاثين عامًا، ودخلت المكتبة فسُررت لما رأيت، وذكَّرتني المكتبة بما عهدتُ أن أرى في أمريكا مِن مكتبات الجامعات الكبرى مثل هارفار MITH وغيرها.

وأخذتُ أجوبَ المكتبة أتأمَّل كتبها ومراجعها، ولكنني توقَّفت فجأةً وانصرف نظري عن الكتب والمراجع لما هو أهمُّ من ذلك ووقفتُ في ذهول.. نعم في ذهول، فقد صدمتني ظاهرةٌ واضحة بيِّنة جلية وغير متوقعة، فأخذت لنفسي ركنًا مُرتفعًا من المكتبة التي تتكوَّن من عدةِ طوابق مُشرفة على بعضها بعضًا على شكل مدرجات، وأخذت أنظر وأدرس هذه الظاهرة، وأخرجت ورقة وقلمًا وبدأت أسجِّل ملاحظاتي لهذه الظاهرة التي تستحقُّ الدراسة والرعاية، والتي بعثت الأمل في قلبي.

إنَّ هذه الظاهرة التي تعدُّ عجيبة في بلادنا العربية ولا سيَّما في مصر، هي الهدوء التامُّ والانضباط في مكتبة كبيرة عامرة ومكتظة بالطلبة.

وأخذت أسأل نفسي.. كيف يكون ذلك؟ إنَّهم هم الأشخاص بعينهم الذين نراهم خارج المكتبة.. فماذا حدث هنا؟

وتوصَّلت إلى ما يلي: إنَّ الاستثمار الذي وضع في هذه المكتبة والتصميم الراقي الجميل المتقن في كلّ جزئية من جزئيات تصميم المكتبة؛ خلق مناخًا مختلفًا عن ذلك الذي يعايشه الفرد خارج

حرم المكتبة. هذا المناخ الجميل النظيف الراقي الحضاري يُخاطب كلّ زائرٍ بلغته الخاصَّة ليعلمه أنَّ هذا المكان هو مكان علم، يحترم العلم والفكر والعقل ويحترم بذلك الإنسان. ومِن صور احترام الإنسان أن يحترم ما يقوم به الإنسان في هذا المكان من تحصيل للعلم والبحث والدراسة، فلا يشوّش عليه بالكلام الجانبي، أو استعمال الهاتف الجوال، أو إحداث ضجة من أي نوع.

إنَّ هذه الظاهرة تستحق عنايةَ المتخصصين في علم الاجتماع، فشعوبنا التي انتشرت فيها الغوغائية والفوضى وعدم احترامها للقوانين واللامبالاة يمكن لها أن تنتظمَ وأنْ تسلك مسلكًا حضاريًّا، بل قد تكون الغوغائية والفوضى وعدم احترام القوانين واللامبالاة وغيرُها من الأمراض السلوكية، كلّ ذلك قد يكون ردودَ فعل وانعكاس للمرآة التي وضعت لهم، والرسائل المباشرة واللامباشرة التي تُرسل لهم كلّ يوم، وبمجرد تغيير المرآة أو الرسائل واستبدالها بأخرى تُعيد للفردِ كرامته وقيمته كإنسان، وتحترم عقله وفِكره؛ سيبرز جوهر الإنسان في مجتمعاتنا. ذلك الجوهر الذي خفي بريقه لكثرةِ ما تراكم عليه من ترابِ الدنيا وغبارِ المعارك وطينِ الأرض، بما كتب على الفرد من الشقاء والعناء والذل والهوان والتصغير والتهميش والاستحقار.

إذا أردنا حضارةً حقيقية فلنبدأ بتكريم الإنسان الذي كرَّمه خالقه "ولقد كرمنا بني آدم"، ومن صور تكريم الإنسان احترامُ فكره وعقله، والاستثمار في كلّ ما يهيئ له المناخَ الملائم الذي يشعره بسمو ورفعة وقدر العلم في تاريخ هذه الأمة. إنَّ ما أراه الآن وأنا أكتبُ هذه الكلمات في مكتبة الإسكندرية الجديدة من هدوء وانضباط ونظام غير متوقع أو معهود، خاصَّة وأنَّ المكتبة مكتظَّة بالطلبة والدارسين والزائرين؛ لهوَ خيرُ إثبات بأنَّ الاحترام يوجب الاحترام، والتقدير يعلم التقدير، والتكريم يورث

الكرامة. وكيف يفوتنا ذلك ونحن أمةُ العلم بدأ وحي السماء لها بـ "اقرأ" وبآيات العلم والقلم. وبعث آخرُ رسل السماء للأرض ليتمِّم مكارم الأخلاق "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(153) إنني أناشد كلّ مَن بيده صنعُ قرار أن يعيد كرامةَ هذه الأمة بإعادة مكانة العلم فيها وإعادة تكريم الإنسان باحترام فكره وعقله.

إنَّ الاستثمار في المكتبات العامة كما يستثمرُ فيها الغرب، وتزويدها بكلِّ مستلزمات البحث والدراسة لَهِي إحدى صورِ تقييم نظرة المجتمع للعلم.. فلنبدأ بالإنسان.

---

(153) سبق تخريجه.

أينَ الرَّقابة؟

موقفان شاهدتهما يستحقّان الذكر والتعليق: أمّا الأول فحدَث بينما كنت أتناول طعام العشاء مع زوجتي في أحد المطاعم التي يُفترض أن تكون من أرقى وأفضلِ مطاعم مدينة جدة، والتي لا تقبل إلَّا العوائل، وإذ بفتاتين في سنِّ المراهقة لا يتعدَّى عمرُهما الرابعة عشرة تدخلان المطعم، وتجلسان على طاولة مجاورة، وما إن جلستا واستقرتا على طاولتهما حتَّى أزالا ما كانَ يغطّي رأسيهما ليظهرَا زينتيهما، وفي دقائق معدودة أُتي "بأرجيلة" لكلِّ واحدة منهنَّ وبدأنَ في التدخين كمُحترفات. نظرتُ إلى زوجتي ونظرتْ إليَّ وتبادلنا نظرات الدهشة، فقد أمضيت في أمريكا عشرين عامًا وأمضتْ زوجتي هناك أحدَ عشر عامًا ولم نرَ هناك فتيات مراهقات في هذه السنِّ يُباع لهن في الأماكن العامة أيُّ نوع أو وسيلة من وسائل التدخين، فهذا ممنوع منعًا باتًّا، وهناك قوانين صارمة وعقوبات لكل مطعم أو محلٍّ يبيع الدخان للأطفال أو المراهقين تحت السن القانونية.

تبادلتُ وزوجتي أطرافَ الحديث، وتعجبنا من عظم وبيان المفارقات التي ابتلينا بها فكيف تُطلق يدُ الفتاة المراهقة في الأماكن العامة لمزاولة ممارساتٍ وعادات هدَّامة مثل التدخين الذي يتعارض مع أربع من المقاصد الخمس العليا للشريعة الإسلامية: "حفظ الدين، وحفظ المال، وحفظ النفس، وحفظ العقل"، علمًا بأن معظمَ الدول الغربية المتقدمة تضيق على هذه الممارسات والعادات لما فيها من مهلكة للفرد والمجتمع وتقوم حكوماتها بوضع القوانين التي تساعد على تحجيم هذه الممارسات ومحاربتها.

فأينَ الرقابة على المطاعم والمحلات في بيع هذه السموم الخبيثة

إلى القصَّر المراهقين من شبابنا وشباتنا؟..

أمّا الموقفُ الثاني الذي شاهدتُ فقد كان في فجر يوم، وكنت قد واعدت أخًا لي أن أصلي معه الفجر في مسجد في شارع التحلية، وفوجئت وأنا في طريقي بأنَّ طريق الملك مغلق بسيارات الشرطة، وعشرات السيارات تقف على جانبِ الطريق ومئاتٌ من الشباب المراهقين خرجوا من سياراتهم وسدّوا الشوارع الجانبية وخط الخدمات، وعندما اقتربتُ بسيارتي أدركت أنَّ الشباب قد جاءوا من كلّ حدب وصوب ليشهدوا حادثَ سيارة يعدُّ مربعًا من شكل السيارة التي لم يبقَ منها إلَّا الجزء الخلفي وقد احترقتْ وتناثرت أشلاؤها في كلّ مكان، ومن الواضح أنَّ الشخص الذي يُقِلُّها لا بدَّ وأنه ماتَ ونقل من المكان، ولم تبق إلّا سيارات الإطفاء والشرطة ومئات المراهقين الذين ليس لهم شغل ولا شاغل إلَّا التسكع في شوارع جدة ليلة فجر الجمعة. ويا ليت أنَّ واحدًا فقط من هؤلاء المئات يعرف كيف يقدم الإسعافات الأولية لينقذ حياةَ شخص أو يستطيع أن يقدم شيئًا غيرَ تسلية نفسه وقتل وقت فراغه بالتفرج على كلّ شيء وأيّ شيء يستحق أو لا يستحق النظر إليه. في حين أنَّ في كثير من الدول الغربية المتقدمة تُدرس الإسعافات الأولية بل والمتقدمة إلى طلبة المدارس، وفي بعض الدول يبدؤون في سنوات الدراسة الابتدائية، وكم من قصة رأيتها وعايشتها في أمريكا لأطفال لم يتعدّوا العاشرة من أعمارهم أنقذوا أحدَ أفراد عائلتهم أو جيرانهم وأصدقائهم نتيجة هذه الدورات التعليمية التي أخذوها في مدارسهم، وتعطَى هذه الدورات أهمية قصوى، وفي ذلك تطبيق لقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (154).. أين الرقابة المنزلية؟.. وأين التوعية المدرسية؟

مِن الواضح أنَّنا مجتمع يغالي ويفرط في مُراقبة أمور محدَّدة بحيث

يتعدَّى التضييق فيها المنطق، وذلك من باب سدِّ الذرائع، في حين أنّه يُفرِّط في أمور أخرى لا تقلُّ عنها أهمية إن لم تكن أكثرَ أهمية إمّا جهلًا بالمقاصد العليا للشريعة الإسلامية أو الجهل بأنجع الطرق والوسائل والأدوات التي بها يتم تحقيق هذه المقاصد.

مفارقاتٌ عجيبة يتوجَّب الوقوف عندها والنظرُ فيها بتأمل، فهي بحقٍّ تعكس روحَ التخبط الاجتماعي الذي نعيشه.

---

(154) سورة المائدة، من الآية 32.

النِّساءُ والتَّدخين

يعتبرُ تفشّي ظاهرة التدخين بين النساء في وطنِنا العربي ظاهرةً تستحقُّ التفكير مليًّا؛ لذا فإنني ومن باب المسئولية الطبية أقول:

إنَّ الدخان يحتوي على أكثر من خمسمائة مركبٍ كيميائي، وأكثر من خمسين منها تعتبر سرطانية، وقد لا يخفى على كثيرٍ من الناس ما يسبِّبه التدخين من أضرار جسيمة بالصحة كالأمراض السرطانية التي لا تكاد تستثني جهازًا واحدًا من جسم الإنسان، مثل سرطان الرئتين والفم والمريء والمعدة والأمعاء الغليظة والمثانة والبنكرياس والغدة الدرقية وسرطان الدم والجلد.. وسرطان البروستاتا والخصيتين في الرجال وسرطان الثدي والرحم والمبايض عند النساء، أضف إلى ذلك أمراض القلب والأوعية الدموية والذبحات الصدرية وجلطات الدماغ وتصلب الشرايين وتليف الرئتين والضعف الجنسي. ولكن قد لا يعلم الكثيرون أنَّ أضرار تدخين المرأة أكبرُ من أضرار تدخين الرجل، وإليكم بعض الأدلة العلمية:

يؤدّي التدخين إلى خفض نسبة هرمون الأنوثة الأستروجين في المرأة، والذي يعمل بمثابة هرمون للشباب والحيوية والنشاط، وله فوائدُ عظيمة على أكثر أعضاء الجسم، فهو يحمي من أمراض القلب والذبحة الصدرية ومرض تآكل وترقق العظام (Osteoporosis). ولقد أكدت إحدى الدراسات التي تمت على 911.000 ممرضة بين 3050 عامًا وعلى مدى سنوات أنَّ نسبة الإصابة بأمراض القلب لدى النساء المدخنات فاقت نظيراتهنَّ من غير المدخنات بما يزيد عن 11 ضعفًا، ووجد كذلك أنَّ التدخين يساعدُ على حدوث وتفاقم مرض ترقق العظام في سنٍّ مبكرة، وبمعنى آخر فإن المرأةَ المدخنة تصل إلى سنِ

اليأس وتهرم أسرع من غير المدخنة، بالإضافة إلى الإصابة بجميع الأمراض المذكورة أعلاه.

أوضحت دراساتٌ عديدة أنَّ التدخين يؤدي إلى إضعاف قدرة الإخصاب عند النساء، كما أنه يؤدي إلى زيادة نسبة الإجهاض التلقائي والأمراض الناجمة عن خللٍ التصاق المشيمة بجدار الرحم والنزيف أثناء الحمل والوضع المبكر للجنين وتأخُّر نمو الجنين وصغر حجمه وازدياد نسبة إصابته بالأمراض الصدرية بل وانتقال الموادّ المسببة للسرطان من الأم إلى دم الجنين، ليس هذا فحسب بل وتشير دراساتٌ أخرى إلى أن التدخين غيرَ المباشر (وهو استنشاق هواء الدخان المتصاعد من أفواه المدخنين عن طريق مجالستهم)، وحده كافٍ لكي تستنشقه الحاملُ فتنتقل المواد السرطانية من الأم إلى جنينها، وثبت بالفعل وجودُ بعض الموادِّ السرطانية في دم الجنين لنساء مدخنات مثل البنزوبايرن (Benzopyrene) الذي يسبب سرطان الرئتين والجلد، وأمينوبايفينيل4 (4 Aminobiphenyl). التي تسبب سرطان المثانة، وأكرونيتريل (Acronitrile) الذي يؤدي إلى سرطان الكبد. ووجد أن نسبة الموادِّ السرطانية عند النساء الحوامل المدخنات تفوق نظيراتهنَّ من غير المدخنات بعشرة إلى عشرين ضعفًا.

بحكم وجود المرأة في البيت أكثرَ من الرجل في مجتمعاتنا الشرقية، فإن مضارَّ تدخين المرأة على أطفالها تكون أعلى نظرًا لاستمرارية تعرض الأطفال لدخان السجائر (التدخين غير المباشر).

تفيد الدراساتُ أن النساء المدخنات يصبنَ بتجاعيد في الوجه في عمر مبكر، إذا ما قورنَّ بنظيراتهنَّ من غير المدخنات، حيث وجد في إحدى الدراسات (Kadunle) أن التدخين شكَّل عاملًا أساسيًّا في الإصابة بتجاعيد الوجه في وقت مبكّرٍ من العمر، وأنَّ

هذه العلاقة طردية إذْ إن التجاعيد ازدادت بمقدار 5 أضعاف في الأشخاص المدخِّنين بشراهة مقارنة بغير المدخنين.

وقد تكون هذه النقطة ذاتَ أهمية، خاصَّة عند معظم النساء أكثر من الرجال، ولذلك ذكرناها في هذا السياق وإنْ كانتِ التجاعيدُ تزداد في الرجال والنساء على السواء.

الوطنيةُ الصَّحيحة

خلق اللهُ الإنسان، وأمدَّه بثلاث وسائل يستطيع بها تغييرَ نفسه وتغييرَ مَن حوله، وهذه الوسائل الثلاثة هي: القلب واللسان واليد. بل إنَّ المسلم مأمورٌ بأن يأخذ بواحدة من هذه الوسائل من أجل تغيير ما هو منكر شرعًا، لقول الرسول الكريم ﷺ: "إذا رأى أحدُكم منكرًا فليغيِّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(162).. وهذه خصيصةٌ من خصائص هذه الأمة، وشرط من شرائط خيريتها.. ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (161)، إذا أعطاها كلّ مسلم حقها ومارسها أفراد المجتمع الإسلامي الممارسة الصحيحة، وامتثلَ كلٌّ بشروط وآداب تطبيقها، أنتجت لا شكَّ في هذه الأمة هذا الخير العظيم، ورفعتها هذه المنزلة العالية.

أمّا التغييرُ باليد فهو أعلاها وأدقُّها شرطًا، فهي لازمةٌ لَمن ملك القرار، ووليَ مِن الأمور ما يؤهله لتغييرها بيده، شريطة ألّا يترتب على استعمالها مفاسدُ أكبر من المصالح المؤمَّلة المرجوَّة من التغيير، وهناك تفصيل وتأصيل شرعي يطول شرحُه لا يسعنا الخوض فيه في مقالنا هذا.

أمّا التغيير بالقلب فهو أوسعها وأوجبُها على كلّ مسلم لأنّه داخل في استطاعة كلّ أحد غير متعدٍّ بطبيعته لغيره، ولذلك فهو أضعفُ الإيمان، ولكنه مع ذلك نقطةُ الانطلاق، فإن لم ينكر العمل الفاسد بالقلب لم ولنْ تنهض أي جارحة لتقوم بدورها في التغيير.

أمّا التغييرُ باللسان فهو محورُ حديثنا اليوم، ويقصد به التغيير بالكلمة، سواء كانت مقروءة أو مسموعة أو مرئية، وهي طريقة ووسيلة فعّالة في إحداث التغيير.. ميسرة الآن عبر الوسائل

الإعلامية المتطورة المختلفة. وقد أثنى عليها الخالقُ سبحانه في مواقع كثيرة من كتاب الله.

فها هو القرآن الكريم يسمي سورة (غافر) باسْم (المؤمن)، وما هو إلّا رجل مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه ولكنّه حين دافعَ ونافح عن سيدنا موسى عليه السلام ودعوته بلسانه خلَّده القرآن: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...﴾ (160)

وها هو شهيدُ آل النجار تفصِّل قصتَه سورة "يس": ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (159) فقتلوه فأدخله الله الجنة ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (158)، بل وأفنى الله قومه عن بكرة أبيهم عندما قتلوا صوت الحق ليسكتوه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (157)..

ويباهي اللهُ في سورة الكهف بفتيةٍ مؤمنين ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (156)، لأنهم قاموا وأعلنوا بلسانهم رفضهم لعبادة غير ربهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (155).

وقد جعل اللهُ لوسيلة التغيير باللسان كما بيّناه هذه المكانة العالية لدورها في تجنيد طاقات أفراد المجتمع المسلم للخير، وندبهم بواجبهم الشرعي أن يكونوا جزءًا من عملية إصلاح المجتمع، وعونًا بالتالي لمَن بيدهم القرار ويملكون سلطانَ التغيير باليد، فكأنه جعل لكلِّ صاحب فكرٍ وقضية، ولكلِّ مقدم لمقترح أو نصيحة، ولكلِّ طالب حاجة أو مَظلمة وسيلته السلمية المعتبرة لإيصال ما يريده بلسانه.

وعندما يُحرَم أصحابُ سلطان التغيير باليد من سماع أصواتِ

أصحاب الفكر ومقدمي النصح وطالبي الحاجات وأرباب المظالم، يخلو الجوُّ للفساد ليطلَّ برأسه، وعندما يُمارس القمعُ على هذه الأصوات الحرة تفتح الأبواب لأصحاب المصالح الشخصية وتسخَّر للمنابر التي تخدم النفوذَ والأموال كلّ الوسائل الإعلامية، وبذلك يُضرب حول صانعي القرار بسورٍ فلا يصل إليهم ولا إلى مسامعهم وأبصارهم إلّا ما يخدم مجموعة من المرتزقة، فتنمو بطانة طفيلية فاسدة حول كلّ صانع قرار.. تكبر كلّما تعظم ولايته فتعظم بذلك مصيبته.

نرى ذلك رأيَ عين في كثير من الأنظمة التي يتمُّ فيها إخراسُ كلّ صوت مخالف ومعارض، تتميز هذه الأنظمة بتزييف الكلمات وصناعة الأخبار لا نقلها، فلا يُسمع عندها صوتُ الشعب، فتستمرُّ المظالم وتضيع الحقوق ويستشري الفساد، ولا نصحو إلّا وقد بدأ الغليان فإذا ما وصل إلى نقطة الانفجار سيدفع المجتمع بأسره تبعات ذلك، تبعات تعطيل واحدة من أهمِّ وسائل إصلاح المجتمعات، ألا وهي التغيير باللسان.

وإنني أعجب أنه مازال هناك في عصرٍ مثل هذا الذي نعيش مَن يعتقد أنه يستطيع أن يخرسَ صوتَ الحق، وأن يزيّف الواقع، في عصر حطمت أسواره الإنترنت والفيس بوك واليوتيوب والفضائيات وغيرها.

وأعجب ممَّن يدعي الوطنية ولا يؤدي دورَه في الإصلاح بلسانه، لأن الوطنية الحقيقية تستدعي من المواطن الصادقِ أن يكون عونًا لولاةِ الأمر وصنّاع القرار بإيصال المعلومة في أحسن صورة، وبالحكمة والموعظة الحسنة وإنْ طاله في سبيل ذلك الأذى من أصحاب المصالح والمنتفعين باستمرار الأوضاع وانتشار الفساد.

بل إنَّني أكاد أجزم أن كلَّ مَن باستطاعته أن يصلح بلسانه أو قلمه أو صوته ثمَّ يتوانى عن ذلك خوفًا على نفسه أو على مصالحه الخاصة؛ فقدْ خان الأمانة، وأسهم دون أن يدري في استفحال الشر وانهزام الخير وتفشي الفساد، وكان أبعدَ ما يكون عن تحقيق مفهوم الوطنية والمواطنة الصادقة.

---

(162) رواه أبو سعيد الخدري، صحيح مسلم، برقم 49.

(161) سورة آل عمران، من الآية 110.

(160) سورة غافر، من الآية 28.

(159) الآية 20.

(158) الآية 26.

(157) الآية 29.

(156) من الآية 13.

(155) سورة الكهف: 14.

صعاليكُ الصَّحافة.. مرة أخرى

تعمَّدت أن أستعيرَ جزءًا من عنوان مقالي هذا من مقال للرافعي بعنوان "صعاليك الصحافة"(164) والذي عبَّر فيه عن ألمه لمَا وصلت إليه الصحافةُ في أيامه من تردٍّ وانحطاط، ولا أدري أيَّ شيء كان سيكتب الرافعي رحمة الله عليه لَوْ صَحَّ له أنْ يقرأ صحف اليوم؟ ولكنَّني على يقين أنه لو تسنَّى له ذلك لترحَّم على الصحافة في أيامه، وتمنى لو عادت صحف اليوم لما كانت عليه بالأمس.

أمّا الجزءُ الثاني من عنوان مقالي "صحف اليوم وصحف الآخرة" فقد استوحيته من خطبة جمعة للأستاذ هشام بنان، وكان عنوانُ خطبته "كيف تكون قراءة الصحف اليومية عبادة؟" وقد بدأ خطبته بالحمد والاستغفار والصلاة على سيد الخلق والأنام، ثمَّ قال: "والعبادة في الإسلام هي نظامٌ شامل ومتكامل، لا تحدُّه آفاق بعض الأفهام، إنه أذكار وأركان الإسلام، أو طلب علم وخشية العزيز العلّام، بل إنَّ نظام العبادة في الإسلام يتعدَّى من العبادات إلى العادات، والمسلمِ اليوم لا يستغني عن قراءة الصحف اليومية، والتي تشغل الكثيرَ من وقته وبعض ماله، فهل يمكن أن تترجم تلك الأموال والأوقات والجهود الذهنية إلى عبادة مُرضية؟".

ثمَّ ربط مفهومَ صحف الدنيا "الصحف اليومية" بمفهوم صحف الآخرة "وإذا الصحفُ نُشرت" أي صحيفة بني آدم يوم القيامة، وطرح أسئلة على كلّ صحيفة ومَن يقرؤها مثل "هل تتمتع صحيفتُنا اليومية بصدق المعلومة، والتثبت من الخبر، وسلامة التوجُّه، وأدب الطرح، وحُسن الحوار، وعمق التربية، وهل تؤدي صحيفتنا اليومية رسالتها الإعلامية لتحافظَ على توجيه أمة الإسلام بأنْ تكون سليمة العقيدة.. قوية العبادة.. حسنة الخلق، وهل يربطنا

الخبر في الصحيفة اليومية إيمانيًّا بنعم الله وأفضاله؟

يقول الرافعي في مقاله "صعاليك الصحافة"، وهو مقالٌ طويل من أربعة أجزاء: "فالصحافة لا تقوى إلا حيثُ يكون كلّ إنسان قارئًا، وحيث يكون كلّ قارئ للصحيفة كأنه مُحَرِّر فيها، فهو مشاركٌ في الرأي لأنه واحد ممَّن يدور عليهم الرأي، مُتَتَبِّع للحوادث لأنَّه هو مادتها أو هي مِن مادته، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت، وأنْ تكون له كما يكون التفكيرُ الصحيح للمفكّر، فيُلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمسُ فيها الهداية، وتأتي إليه في مطلع كلّ يوم أو مغربه كما يدخلُ إلى داره أحدُ أهله الساكنين في داره. وفي قِلة القراء عندنا آفتان: أمّا واحدة فهي القِلة التي لا تُغني شيئًا، وأمّا الأُخرى فَهُمْ على قلّتهم لا ترى أكبر شأنهم إلّا عبادة قوم لقوم، وزراية أناس بآخرين، وتعلّق نفاق بنفاق، وتصديق كذبٍ لكذب، وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنتين: وهي أن أكثرهم لا يكونون في قراءتهم الصحيفة إلّا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلهّون به، أو كالفراغ يلتمسون ما يقطعون به الوقت، فهم يأخذونَ السياسة مأخذَ مَن لا يشارك فيها، ويتعاطون الجدَّ تعاطي مَن يلهو به، ويتلقون الأعمال بروح البطالة، والعزائم بأسلوبِ عدم المبالاة، والمباحثة بفكرة الإهمال، والمعارضة بطبيعة الهزْء والتحقير، وهم كالمصلين في المسجد، فمثل لنفسك نوعًا من المصلين إذا اصطفّوا وراء الإمام تركوه يُصلي عن نفسه وعنهم وانصرفوا..".

إنَّنا كأصحاب مؤسسات وشركات نعلم أنه لا بدَّ أن يكون لأعمالنا رسالة محددة "Mission" ورؤية واضحة "Vision" وقيم أخلاقية ثابتة "Values" تبنى عليها إستراتيجياتنا وخططنا وأعمالنا وأهدافنا التي نرغب في تحقيقها على المديين القصير والبعيد.

وهناك معاييرُ محددة نقوم من خلالها بتقييم مدى تحقيقنا لهذه

الأهداف من عام إلى عام، أو على مراحل أقصر على مدى العام لتعديل الوجْهة في حال انحرافنا عن الغاية والهدف، وبعدنا عن روح الرسالة التي نؤمن بها ونسعى لتحقيقها، ونوازنُ بين الأهداف والغايات، ونحن كمؤسسات وشركات نسعى لتحقيق التوازن بين المقاييس المالية وغير المالية، ويتطلب تنفيذ هذا النظام منّا سلسلةً من المهام نتلخَّص في خطوات رئيسية محددة تبدأ بتحديد الأهداف الإستراتيجية، ثمَّ وضع وتدقيق العلاقة بين الأهداف، وتحديد وتخصيص الموارد اللازمة لإنشاء النظام وتحديد المقاييس والنتائج المرغوبة، وأخيرًا البرامج العملية للوصول إلى هذه الأهداف "Balance Score Card".

ومِن المؤسف أنَّ كثيرًا من صحفنا ليس لها رسالةٌ محددة أو رؤية واضحة أو قيم أخلاقية ثابتة، والبعض له رسالة مكتوبة لكن ليس لها في الواقع من رصيد، وإنما كُتبت لتُخرس كلّ مَن يسأل عن رسالة الصحيفة، والأكثر أسفًا من ذلك أنَّ كثيرًا من المساهمين في هذه الصحف قلَّما يسألون عن رسالة الصحيفة ومدى تحقيق هيئة التحرير لهذه الرسالة، بل إنَّ كثيرًا من الاجتماعات العمومية قلَّما يناقش فيها غير الأرباح المادية للمؤسسة حتَّى أصبح هَمُّ المستثمر في آخر العام هو نسبةَ الأرباح الموزعة دون مراقبة أو مراجعة لأي معايير يقيِّمون بها مدى تحقيق رسالة الصحيفة، هذا إن كانت الرسالة واضحة.

وما علم مَن أسهم وشارك في إخراج صحيفة اليوم بجهده أو ماله أو قلمه أنَّ له منها في صحف الآخرة بقدر ما أسهم وشارك فيها، وتبلى صحفُ الدنيا بعدَ يوم واحد من نشرها، وتبقى صحفُ الآخرة لتنشر على ابن آدم يومَ القيامة "وإذا الصحف نشرت".

قال قتادة: صحيفتُك يا ابن آدم، تُملى ما فيها، ثمَّ تُطوى، ثمَّ تُنشر عليك يوم القيامة.

وبعدم وضوح الرسالة نرى التخبطَ في ما يُكتب ويُنشر، وبعدم وضوح الأهداف والوسائل ومعايير تقييمها والالتزام بمراقبتها تضيع قيم الصحافة المتعارف عليها من الصدق والأمانة والشفافية والموضوعية والعدل، وغيرها من القيم التي قد تلتزم بها بعضُ الصحف الغربية، ويضرب بها عرض الحائط في بعض صحفنا المحلية.

وأنهي مقالي هذا بكلمات حسرةٍ من الرافعي على الصحافة في عصره، والذي يعدُّ عصرًا ذهبيًّا إذا قورن بعصرنا هذا.. يقول الرافعي(163) "لا جَرم فَسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة، وجاءت فنون من الكتابة ما هي إلّا طبائع كُتّابها تعمل فيمَن يقرؤها عملَ الطباع الحية فيمن يخالطها، ولو كان في قانون الدولة تُهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة، لقُبض على كثيرين لا يكتبون إلّا صناعة لهوٍ ومسلاة فراغ، وفسادًا وإفسادًا، والمصيبة في هؤلاء ما يزعمون لك من أنَّهم يستنشطون القراء ويلهونهم، ونحن إنما نعملُ في هذه النهضة لمعالجة اللهو الذي جعل نصف وجودنا السياسي عدمًا، ثمَّ لملء الفراغ الذي جعل نصفَ حياتنا الاجتماعية بطالة".

وهذا ممّا جعل ويجعل بعضَ الكُتّاب في هذه الصحف من "صعاليك الصحافة"، فإلى متى سيبقى حالنا مع صُحفنا كحال مصلّين اصطفّوا وراء الإمام وتركوه يصلّي عن نفسه وعنهم وانصرفوا؟!

---

(164) وحي القلم، ج 3.

(163) صعاليك الصحافة تتمة، ج 3، ص 183.

المسئوليةُ الاجتماعية..
مفهومٌ أشملُ وأعمق

ازدادَ مؤخرًا التحدثُ عن ما يسمَّى بالمسئولية الاجتماعية، أو مسئولية الشركات والمؤسسات تجاه مجتمعاتها (Corporate Social Responsibility) ولقد شاركت منذ سنوات طويلة في أول مؤتمر وطني من هذا النوع، وهو ملتقى المسئولية الاجتماعية (إلزام أو التزام)، وشاركت فيه بورقة عمل ومحاضرة بعنوان (الإسلام والمسئولية الاجتماعية).

إنَّ هناك مفهومًا تقليديًّا سائدًا لتعريف المسئولية الاجتماعية للشركات، ويضمن هذا المفهوم كلّ المشاريع التي تقوم بها الشركات أو المؤسسات لخدمة المجتمع، سواءً كانت في صميم عمل الشركة أو المؤسسة أو خارج نطاق عملها. وتتفاخر الشركاتُ والمؤسسات بعرض هذه المشاريع الاجتماعية وتجعلها جزءًا من شخصية الشركة أو المؤسسة، وقد تُستخدم هذه المشاريع تسويقيًّا لتحسين صورة الشركة أو إضفاء الصبغة الأخلاقية أو الاجتماعية عليها وزيادة مصداقيتها ممّا يؤدي إلى زيادة الإقبال عليها وعلى منتجاتها وزيادة الدخل والأرباح.

وإنني أسعى في مقالي هذا إلى أنْ أَصل مع القارئ الكريم إلى فهمٍ أعمق وأشمل لمفهوم المسئولية الاجتماعية، وقبل أن أبدأ رحلتي معَ القارئ الكريم أريد أن أضعَ بعضَ الحقائق، وهي أنني أؤمن إيمانًا راسخًا لا شكَّ فيه "وهذا جزء من إيمان المؤمن" أنَّ الله عندما خلق الكونَ وضعَ النظام الكوني، وهذا النظامُ الكوني هو نظام أزلي ثابت لا يتبدل ولا يتغير معَ الزمن مادامت السماوات والأرض، ووضعَ اللهُ القوانين التي يستند إليها هذا النظام، وهي قوانين مشتركة جاءت جميعُ الديانات السماوية

لتأصيلها وحثِّ الناس على الامتثال لها مثل: الصدق والإخلاص والأمانة والإتقان والإيثار والعمل الجماعي والعدل والمساواة وغيرها..

وإنني أؤمن كذلك بأنَّ الله وضع نظامًا يكافئ كلّ مَن يمتثل ويلتزم بهذه القوانين مكافأة تلقائية في الدنيا قبل الآخرة، بمعنى آخر أنَّه على قدر امتثال الإنسان أو المؤسسة بهذه القوانين الربانية يكون العطاءُ الرباني في هذه الدنيا، وأجرُ الآخرة أجل وأبقى.

وإنَّ من أشدِّ المفاهيم الخاطئة الفتاكة التي أصابت مجتمعاتنا الإسلامية هي أنَّ الالتزام بهذه المبادئ والقيم والقوانين في الأعمال التجارية يمكن أن يقللَ من الدخل والمكسب والربح، وأنَّ اتخاذ الطرق الملتوية ممن يعتقدون أنهم يعرفون مِن أين تؤكل الكتفُ من المخضرمين في اتّباع الأساليب الملتوية من "الشُّطَّار" "التي تعني في اللغة العربية الفصحى السرّاق والشاطر هو السارق" فيه مردودٌ مادي أكبر ونجاح أفضل، وإنَّ هذا المفهوم هو أكبر فتنة ابتليت بها أمتنا، وفيه سوءُ ظنٍّ بالله وعدله بالذين يَسْبَحُون في مُلكه باتباعهم لنظامه الكوني الأزلي واتباع أمره ونهيه وسنة رسوله في كلّ جزئية من جزئيات الحياة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (168) وهذه أعلى درجات التسبيح بحمده سبحانه وتعالى.

وقد أدرك كثيرٌ من رجال الأعمال حولَ العالم، وكثيرٌ من الشركات هذا القانون الكوني، فبدأت كثرة من الشركات تتَّجه نحو الاستثمار الأخلاقي لما وجدتْ فيه من مكافأةٍ في الدنيا، وصدرت كتبٌ عدَّة تؤكد هذا المفهوم وتوثقه وتثبته بالأرقام والحقائق، وأسوق لكم في مقالي هذا كتابيْن: أحدهما بعنوان "المستثمر الأخلاقي "The Ethical Investor"، والآخر بعنوان أرباح تخضع للمبادئ "Profits with Principles"، أما الكتاب

الأول ففيه يخاطب المؤلف الفرد المستثمر ويثبت له بالأرقام والإحصائيات الموثقة كيف يستثمرُ أمواله في مشاريع ناجحة، وفي الوقت ذاته يخدم مجتمعَه يُسهم في نموِّه وازدهاره ورقيِّه، فيبين المؤلفُ إحصائيًّا الفوائدَ التي جناها المساهمون الحريصون على استثمار أموالهم في مشاريع هدفُها الرئيسي خدمة المجتمع.

وخلالَ سبع سنوات كان أداءُ الأسهم أفضلَ من غيرها التي لا تندرج تحتَ التعريف والتصنيف الأخلاقي الذي فصله المؤلفُ في نقاطٍ عديدة يمكن ذكرُ بعضها على سبيل المثال لا الحصر، مثل:

المشاريعُ التي تقدم خدماتٍ أساسية للمجتمع، والرفع من مستواه العلمي والاجتماعي والتربوي والصحي.

المشاريعُ التي تستهدف الحفاظَ على المصادر الطبيعية، وإيجاد البدائل التي تساعد على حماية البيئة من "ماء وهواء وغذاء" من التلوُّث والعبث والاستنزاف وسوء الاستعمال.

المشاريعُ التي توفِّر للأفراد فرصَ عمل جديدة وشريفة، وتُعين على بناء الفرد ورقيِّه لا هدمه واستعباده.

الابتعادُ عن كلّ المشاريع التي لا تعينُ على تحقيق المصالح المذكورة أعلاه.

ويبدأ المؤلف كتابَه بتحليل مفهوم أصبح للأسف جزءًا من عقلية ونفسية الأغلبية العظمى من البشر في هذا العصر الذي تهيمن عليه الرأسمالية، ألا وهو أنَّ الفرد عند قيامه بعمل هدفه الأساسي جلب الخير والمنفعة لغيره، فلا بدَّ له أن يضحي بمصالحه الشخصية.

ويؤكِّد المؤلف أنَّ هذا المفهوم خاطئ، وتدحضه الدراسة العلميةُ الدقيقة لتاريخ مثل هذه الاستثمارات بالإحصائيات والأرقام

التي لا تقبل المناقشة.

وقد يبدو بالقراءة السطحية للموضوع أنَّ كلّ عمل واستثمار هو في الحقيقة أخلاقي، لكن المؤلف يبين أن هذا غير صحيح، فهناك أولوياتٌ واحتياجات تختلفُ من مجتمع إلى آخر، وهذه الأولويات والاحتياجات هي التي تفاضل بين الاستثمارات.

ونحنُ هنا لا نتحدَّث عن الاستثمارات اللاأخلاقية "بديهيًّا" مثل الاستثمار في الأمور ذات المضرة الواضحة البينة مثل الدخان بأنواعه المختلفة والمكروهات والخبائث، وإنّما نتحدث عن استثمارات قد لا تحمل مضرَّة واضحة ولكنها لا تساعد على رفع مستوى أفراد المجتمع علميًّا أو اجتماعيًّا أو عقليًّا أو تربويًّا أو صحيًّا، أو أنّها لا تحمي البيئة ولا تحافظ على طاقات المجتمع، ولذلك فقد أدرجَ المؤلف تحت تعريف الاستثمار الأخلاقي ما يسمَّى بالمستثمر المهموم بمجتمعه "Socially Concerned Investor" وجعلها شرطًا من شروط اكتمال واستيفاء تعريف الاستثمار الأخلاقي، فالمستثمرُ المهموم بمجتمعه هو الذي يحمل همومَ مجتمعه فوق كاهله لتصبح خدمة مجتمعه والسعي لرفعته وتقدُّمه هي همَّه الشاغل، فعلى سبيل المثال: إذا انتشرت الأطعمة السريعة "Food Junk" في مجتمع ما وشحت البرامجُ التي تساعد الفرد على نموه عقليًّا ونفسيًّا وصحيًّا، لا يصبح الاستثمار في الأطعمة السريعة أولوية لهذا المجتمع، دعْ عنك ما تسبِّبه هذه الأطعمة من أمراض جسدية على المدى البعيد نظرًا لرداءتها وعدم مراعاتها للمبادئ الأولية للأغذية الصحية إلَّا ما ندر منها.

ويؤكد الكاتب أنَّ استثمارَ الفرد في المشاريع الأخلاقية التي تعنى بخدمة المجتمع ليست في الحقيقة تضحية وإيثارًا لمستقبل بعيدِ المدى وغير معروف، وإنّما هي استثمارٌ تتوفر فيه جميعُ العناصر التي تتوافر لغيرها من المشاريع قصيرة المدى التي لا تعنى

بمثل هذه المبادئ، والفرق هو أنَّ هذه المشاريع الأخلاقية تعنى بخدمة المجتمع ونموه وازدهاره، فبقاؤها مضمونٌ ببقاء المجتمع، أمّا المشاريع قصيرة المدى التي لا تبالي بمثل هذه المبادئ فبقاؤها مشروطٌ بظروف تحكمها، وبتغير تلك الظروف "كانتشار الوعي الصحي، أو ارتفاع المستوى العلمي للفرد في المجتمع.. إلخ.." تتلاشى وتضمحل مثل هذه المشاريع والمؤسسات.

وقسْ على ذلك التعامل الأخلاقي مع الموردين والمستهلكين... إلخ، فالتعاملُ الأخلاقي مع المستهلك يؤدي على المدى البعيد لتكوين ولاءٍ عند المستهلك، ممّا يؤدي إلى تخفيف العبء المادي المخصص لمعالجة وإزالة الانطباعات السلبية عنِ الشركة، وتخصيص المبلغ ذاته في العملِ على تكوين الانطباعات الإيجابية، والتي تساعد على سرعة نمو وتقدم الشركة.

وهذا كله في الحقيقة يُمكن أن يترجمَ في النهاية إلى رفع مستوى وفعالية العمل، وما يتبعه من نجاح مادي أكبر يمكن توجيهُه لرفع مكافأةِ العاملين على جهودهم ومثابرتهم، ومكافأة المستثمرين على حُسن اختيارهم لمشاريع تعنى بخدمة المجتمع ورفع مستواه.

وكلُّ ما ذكرته إنما يعكس عدلَ الخالق لكل مَن فهم النظام الكوني، والتزم بالقوانين التي تحكمه فأصبح بذلك أشبه بالذي يسبح في فلكِ هذا النظام الكوني، ويأكل من خيرات هذا الالتزام بالسُّنن الكونية في الدنيا أجرًا ماديًّا، وفي هذا تحقيق لعدالة الخالق.

أمّا الكتابُ الثاني "أرباح تخضع للمبادئ" "Profits with Principles"، ففيه يضع الكاتب بين يدي القارئ إستراتيجيات سبع لتقديم القيمة "المادية" مرتبطة بالقيمة الأخلاقية، وهي كالتالي:

•تسخير الإبداع للمصلحة العامة "Harness INNOVATION for Public Good".

•ضع الإنسان في قلب المعادلة "Put PEOPLE at the Center".

•اعمل على توزيع ونشر الفرص الاقتصادية "Spread Economic OPPORTUNITY".

•التضافر من أجل تحقيق المنافع والمصالح المتبادلة "Engage in New ALLIANCES".

•مقادون بفعالية الأداء مدفوعين ومساقين بالإتقان "Be PERFORMANCEDRIVEN in everything".

•ممارسة أفضل أساليب الضبط والإشراف والإدارة "Practice superior GOVERNANCE".

•السعي لتحقيق الغايات الأسمى من المكاسب المادية "Pursue PURPOSE beyond profit".

وبذلك فإنَّ المسلم الواعي يدرك أنَّ الله عندما خلق الكون وضعَ النظام الكوني على أساس نظام ثابت لا يتغير ولا يتبدَّل مع الزمن مادامت السماوات والأرض، كذلك قضتْ حكمة الله عزَّ وجل أنه يقيم، سبحانه، الحياة الإنسانية على أساسِ نظام أخلاقي يستند إلى قوانين سماوية جاءَ الأنبياءُ لتأصيلها، وحثّ الناس على الامتثال لها، مثل الصدق والأمانة والإخلاص والإتقان والإيثار والعمل الجماعي والعدل والمساواة وغيرها..

والمسلمُ الواعي يدرك أنه على قدر الامتثال كفردٍ أو مؤسسة لهذه القوانين الربانية؛ يكون العطاء الرباني في هذه الدنيا، ولا ينقص من أجر الآخرة وثوابها شيء، وأجرُ الآخرة أجلُّ وأبقى.

ونصلُ معكم هنا إلى نهاية المقال آملينَ أنْ نكون قد وصلنا معًا إلى فهمٍ أعمق وأشمل لمفهوم المسئولية الاجتماعية للشركات والأفراد، وهو أنَّ أعظم وأقيم ما يمكن أن يقدمه الفردُ أو تقدمه أيُّ شركة لمجتمعها هو تقديم النموذج الأخلاقي الإسلامي للعمل في كلِّ جزئيةٍ من جزئيات العمل، وفي هذا عمارةٌ لأرض الله كما يحبُّها أن تعمر، وتحقيق لغاية الخلق من عبادة للخالق بمفهومها الشامل في أسمى صورها.

بل أذهب فأقول: "إنَّ الضررَ الناجم من مخالفة القوانين التي يستندُ عليها النظام الكوني ممّا ذكرنا سابقًا كالصدق والأمانة والإخلاص والعمل الجماعي والعدل والإتقان وغيرها، يفوق أيَّ مصلحة يمكن أن يجنيها المجتمع نتيجة تكريس جزءٍ من الأرباح في مشاريع تخدم المجتمع".

إنني أناشد أصحابَ الشركات والمؤسسات أن يتعمقوا في فهْم دورهم تجاه مجتمعاتهم، فتكريس نسبة من الأرباح في المشاريع الخيرية التي تنفع المجتمع هو أمرٌ جيد، بل واجبٌ اجتماعي ولكنَّ الأوجب منه والأولى والأقيم هو اتباع المعايير الربانية والأخلاقية في كلّ جزئيةٍ من جزئيات العمل، وتحقيق غاية الخلق من عمارة الأرض بمفهومها الشامل.

وبتطبيق هذا المفهوم الشامل للعبادة تَصلح أعمالنا ويَصلح المجتمع ويُبنى الفرد والمجتمع ونرى ثمرات أسمى صور التسبيح للخالق، وذلك في السبح في ملكوته واتباع قوانينة ونظامه الكوني، والذي ما جاء الرُّسل والأنبياء إلَّا لإحيائه في النفوس وتطبيقه على أرض الواقع.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ

(167) ﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (166)

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (165)

---

(168) سورة الأنعام: 162.

(167) سورة الفرقان، من الآية 7.

(166) سورة الفرقان: 20.

(165) سورة الأنعام: 162.

أميّتُنا الحقيقية 1

لو تخيَّلنا أنَّ النبي ﷺ قد بُعث في عصرنا هذا، فأكاد أجزم أنَّ الأُميّة التي سيحاربها ليست فقط أُميّة القراءة والكتابة، ولكن أُميّة المعلومات المتلاحقة (العلم المتسارع في التطور) كتبها لي أخٌ وصديق وأهداني إياها ضمنَ ملزمة تحتوي على كثيرٍ من الأفكار القيمة والجمل الحكيمة.

والحقُّ ما قال.. إنَّ أمة اقرأ مازال كثيرٌ من أبنائها إمّا لا يدركون أو لا يطبقون أمرَ السماء لهذه الأرض بافتتاح القرآن بقوله سبحانه لنبيّه (اقرأ) وبكوْن أول خمس آيات في القرآن الكريم تحتوي على سبع كلمات عن القراءة والعلم والقلم، وليس فيها كلمة واحدة صريحة عن الإيمان أو التَّقوى أو الخشوع أو غيرها من أمور القلب، كيف لا وهذا قولُه تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (171).

إنَّ أميّتنا الحقيقية ليست في عددِ أفراد المجتمع الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وإنَّما هي في الكم الهائل ممن يقرؤون ويكتبون ويقودون المجتمعاتِ الإسلامية، ولا يدركون واجبَ أمة اقرأ تجاه تطبيق المفهوم الشامل الكامل العميق لكلمة (اقرأ)، والتي هي قراءة آيات الله في الأرض والسماوات والكون والبحث والدراسة والتدقيق، وتسخير كلّ ذلك لإيقاظ النفس البشرية بتأكيدِ وحدانية الله وتهيئتها لوظيفة إلهية، ألا وهي عمارةُ الأرض كما يحبها الله أن تعمر.. قال تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (170)، وجلب الخير والمنفعة والرفاهية لبني الإنسان.. كلّ الإنسان.. وكل إنسان.

وإنَّنا لو نظرنا في الكم الهائلِ من المشروعات التي تُسهمُ في هذا الجانب لوجدناها تقصر جلَّ اهتمامها على محو الأمية، والتي لا

تزال إلى يومنا هذا منتشرةً في أرجاء بلادنا، وحين نأتي إلى مشاريع البحث العلمي المتطور، تجدنا مثل كلّ المسلمين للأسف في مؤخرة الركب وذيل الترتيب.

إنَّ نهضة الأمة مرتبطةٌ بفهم وإدراك أصحاب رؤوس الأموال في هذه الأمة ومن بينهم القادة أنَّ الأمر السماوي (اقرأ) يحتِّم علينا أن تنصبَّ كبرى مشاريعنا في هذا المجال بالذات، وأن تركز على إنشاء جامعات عالمية للدراسات والأبحاث، وجامعات أهلية مدعومة بوقف قوي يضمن استمرارها ونجاحها، مع المزج الحكيم بين استيراد الخبرات وتكثيف الجهود في جميع مجالات هذا التقدم العلمي الهائل وبين المحافظة على تراثنا وتأصيل أخلاقنا وقيمنا.

وقبل كلّ هذا يجب التركيزُ على مرحلة ما قبل الابتدائية والحضانة Preschooling أو ما يسمى بمرحلة ما قبل المدرسة، حيث إنَّ الدراسات تؤكد أنَّ هذه المرحلة هي أهمُّ وأخطر مرحلة في حياة الإنسان، ففيها يتمُّ تكوين شبكة الاتصالات العصبية في الدماغ، فكلُّ حثٍّ للدماغ في هذه المرحلة يحثّ الأعصاب على تكوين جسر واتصال عصبي.. هذه الجسور تعمل على حمْل المعلومات، وعلى قدْر حثّ الدماغ في هذه المرحلة يصبح العقل أكثر قدرة على إجراء أعقد العمليات وحلِّ أصعبِ المسائل في المراحل المتقدمة من حياة الإنسان.

إنَّ حرمان الطفل في هذه المرحلة من الحثّ المدروس ينتج عنه ضحالةٌ وسطحية في قدرة العقل على إجراء عمليات فكرية معقدة في مراحلَ متأخرة، تمامًا كالذي يبني مدينةً يأتي بالآلاف من الجسور ويصبح قادرًا على إجراء أعقد المسائل المتزاحمة، وآخر لا يسعه ذلك لندرةِ الجسور التي تحمل المعلومات من نقطة لأخرى.

ولذلك اتجهت كثيرٌ من دول العالم إلى تسخير جزءٍ كبير من ميزانيتها في التعليم لمرحلة ما قبل الدراسة.

إنَّنا نتطلع لمشاريع قوية وسريعة تنتشر في بلادنا، وتقدم نموذجًا قويًّا كالذي نجحت كثيرٌ من الدول في دعمه ونشره في بلادها.

إنَّ تقاعس الكثيرين من أصحاب رؤوس الأموال عن مثل هذه المشاريع له أسبابٌ عدة:

1.العراقيل والبيروقراطيات.

2.عدم وجود حوافز معنوية أو مادية.

3.عدم تقدير كثير من أفراد المجتمع لمثل هذه المشاريع وتقاعسهم عن الاستثمار في أبنائهم، فتجد العائلة تنفق على البيت والسيارة والهواتف الجوالة وسفر الصيف وتحاول التوفير في الاستثمار في تعليم أطفالها وأبنائها.

4.غياب فهم الدور الحقيقي لأبناء هذه الأمة أمة محمد أمة اقرأ.

5.غياب مقاصد الشرع في استثمار المال من أجل عمارة الأرض وجهل أولوياته.

إننا في أمسِّ الحاجة لتحقيق نهضة حقيقية لهذه الأمة أنْ يعي أصحابُ رؤوس الأموال واجبهم الشرعي تجاه هذه الأمة، وأن يمتثلوا بالفهمِ الدقيق الشامل العميق لأولِ أمر من السماء نزلَ على قائدها وزعيمها ورسولها سيدنا محمد ﷺ.. ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (169).

---

(171) سورة فاطر، من الآية 28.

(170) سورة هود، من الآية 61.

(169) سورة العلق: 1.

أميَّتُنا الحقيقية 2

يحتاج كلّ طفلٍ إلى مَن يأخذ بيده ويعينه على إشغال وقت فراغه. وقضيَّتنا اليوم هي تأثيرُ الوسائل التي يستعملها الطفل لإشغال وقت فراغه في تكوين عقله ووجدانه وفكره وكلِّ سجاياه.

يَصرخ الطفلُ كلٌّ بلغته وطريقتِه معبرًا عن مللِه "أنا طفشان"، وكثيرًا ما يلجأ الوالدان لملء فراغ أبنائهم بوسائل تتطلَّب أقلَّ مجهود من الوالدين، أي بمعنى آخر أنَّ كثيرًا من الآباء والأمهات يقتلون أثمنَ ما يملك أطفالهم "الوقت" باختيارهم لأسهل وسائل قتل وقت فراغ أبنائهم مثل: التلفاز والفيديو والألعاب الالكترونية وغيرها.. وكلها وسائلُ ترفيه لا تُثري فكرَ الطفل ولا وجدانه ولا عقله.

والنتيجة أنَّ الطفل سرعان ما ينتهي من إحدى هذه الوسائل إلَّا ويصرخ ثانية معبرًا عن مله بقوله "أنا طفشان"، وكيف لا يكون ذلك؛ بل هذه هي النتيجة المتوقعة لمثل هذا النوع من الترفيه.

تجد طفلَ اليوم يمضي يوم إجازته كلَّه في لعب ومرح ثمَّ يأتي آخر النهار ولم يبقَ من اليوم إلَّا ساعة واحدة قبل النوم ليعبِّر الطفل مرة أخرى عن مله كلٌّ بلغته "أنا طفشان"، وعندها لا بدَّ أن يقف المربون والآباء ليدركوا أن الوسائل التي استعملت في ذلك اليوم لم تُشبع وجدانَ الطفل وفكره وعقله.

عندما كنَّا أطفالًا لم نُبتلَ بمثل هذه الوسائل التي لا تشبع فكرًا أو تثري وجدانًا، فكانت وسيلة ملء الفراغ الرئيسية هي الكتاب، نقرأ الكتاب وراء الآخر، والقصة وراء الأخرى، والرواية وراء الأخرى، منها ما يأخذ أيامًا، ومنها ما يأخذ أسابيع، ومنها ما يأخذ شهورًا، نعيش مع الكتاب والقصةِ والرواية ونتلهَّف لمعرفة نهايتها

ونتشوَّق لمعاودة القراءة وحمل الكتاب بينَ أيدينا. كلّ ساعة فراغ هي ساعة ذهبية نفرح بها لنعودَ فننكبّ على الرواية والقصة، وكل دقيقة فراغ لا تحتاج إلى مَن أو ما يملؤها لنا، فالقصة والرواية والكتاب مازالت معنا في عقولنا وأفئدتنا أينما ذهبنا. نراجع في مخيِّلتنا وخيالنا نهايةَ القصة والرواية، ونحلِّل تفاصيلها ونتفاعل مع أحداثها، فالكتاب يُشبع ويُثري.

إنَّه أحبُّ على نفسي مائةَ ألف مرَّة أن يصبح أبنائي ممّن يعشقون الكتاب والقراءة على أن يكونوا ممن يأتون آخر العام من الأوائل الحاصلين على المعدَّل الكامل ولكنَّهم لا يحبون الكتاب أو القراءة.

فعشقُ القراءة والكتاب هو مفتاحُ الثقافة الحقيقية، ولهذا كان أولُ ما نزل من القرآن الكريم هي آياتِ القراءة والعلم والقلم في سورة "اقرأ"، وهي آياتٌ تحمل إعجازًا علميًّا في كلمة "العلق"، ولتسمَّى السورة كلها بكلمة "العلق".

عندما كان أبنائي يدرسون في أمريكا كانوا مُلزَمين من قِبل مَدْرستهم بقراءة كتاب كلّ أسبوع وتلخيصه حتَّى أصبحت عادة، وبدأت تتكوَّن بينهم وبين الكتاب علاقة ودٍّ وحُب، ولكن بعدَ عام واحد من عودتهم إلى أرض الوطن تغير كلّ شيء، فَهَمُّ التلاميذ في مدارسنا هو المنهج، وتحصيلُ العلامات العالية هو شغلُهم الشاغل، أمّا وقت الفراغ فهو للعب لأنَّ المناخ الذي حولهم لا يشجِّع على القراءة.

فأطفالنا اليوم لا يتباهون بينَ بعضهم بعضًا بما يقتني كلّ منهم من كتب أو قصص، وإنما يتباهون ويتنافسون على اقتناء أفلام الفيديو والألعاب الإلكترونية.

أينَ تلك المكتبات الضخمة التي كنت أراها في الغرب بأقسامها المتخصصة على حسب العمر والاهتمام، فتجد قسمًا كاملًا

للطفل، وآخر للمراهق والمراهقة، وأقسام أخرى كثيرة متخصصة في كلّ مجالات الحياة.

لا أرى إلّا عشرات الأسواق "المولات" والمحلّات التجارية تفتح كلّ شهر حتّى ذهب مَن قال ساخرًا متهكّمًا بحالنا المزري.. إنّنا نحقق رسالتنا ألا وهي "بناء مول لكلِّ مواطن".

إنّني أؤمن بأننا إنْ نجحنا في تكوين جيل مُحبٍّ عاشق للقراءة والكتاب والقلم، فإنّنا ملكناهم مفاتيح العلم وسيّدنا العقل الذي به يُعرف الله، وبه تتحقّق الخشية ويتعمّق الإيمان "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، وقد ذهب المتعمقون في التفسير لبعض أسرارِ بداية الوحي السماوي بكلمة "اقرأ"، وتسمية السورة بكلمة "العلق" أنّ فيها إعجازًا علميًّا عظيمًا لا يدركه إلّا أهل العلم، وقد استوجبَ منهم ويستوجب الوقوف على ذلك خشية وإجلالًا وخشوعًا للخالق سبحانه، وأهلُ الطب وعلم الأجنة يدركونَ الإعجاز العلمي في الكلمة والآية والسورة.

وبالنجاح في تكوين جيلٍ محبّ عاشق للقراءة والكتاب والقلم ترتقي الأمةُ لفهم وإدراك وتطبيق المفهوم الشامل المتعمق لكلمة "اقرأ" من قراءة الكتاب وقراءة الكون والتفكر والتأمل والنظر في آيات الله، وما يتوجب لتحقيق ذلك من بحثٍ ودراسات ممّا يزيد من تعلّق المخلوق بخالقه، ويعمق فهمَ الدور والرسالة التي خُلق الإنسان من أجلها وتحقيق مفهوم العبادة الشامل الكامل.

لقد كان أولُ الوحي كلمة "اقرأ"، وأولى أولويات القائمين على أمانةِ تدريس أبنائنا في المدارس هو أن يجعلوا أبناء هذا الجيل مُحبِّين وعاشقين للقراءة لعلّنا نرتقي يومًا لتحقيق قدرٍ من الطاعة لأمرِ السماء لنا في أولِ كلمة نزل بها الوحي "اقرأ".

أميَّتُنا الحقيقية 3

يبدو أنّني بمقالي السابق قد وضعتُ أصبعي على جرح عميق فانهالتْ عليَّ الرسائل، وكثيرٌ منها استرسل أصحابها في سرْد قصص مؤثرة ومعانٍ جميلة ونظرةٍ عميقة لحال مجتمعاتنا مع الكتاب، يقول أحدُهم في رسالته: "أخي الحبيب الدكتور وليد، مقالك عن القراءة مقالٌ مهمٌّ لأنه معنيٌّ بأمر مهمٍّ في حياتنا أتلمس فيه أسباب تخلفنا عربًا ومسلمين. مثلك تمامًا نشأتُ محبًّا للقراءة ابتداء من القصص وكتب التاريخ التي كنت أتسلَّل إليها في مكتبة والدي حفظه الله فألتهمها التهامًا، ولقد أكرمني اللهُ بالزواج المبكر من زوجة تشاركني ذات الاهتمام بالقراءة، حيث تزامنت أيام زواجي الأولى مع وصول البثِّ الفضائي إلى المملكة، لا أدري كم من الساعات أمضيت وزوجتي على المحطات الفضائية السبع التي كانت موجودةً في ذلك الوقت على بساطةِ ما تبث، ولكنني أمضيت الكثيرَ حتَّى احتلَّ التلفاز مكان الكتاب في حياتنا، وبعدَ فترة من هذا التدهور قرَّرت زوجتي أن تطردَ هذا الضيف الثقيل من البيت إلى غير رجعة وكانتِ الفرصة عندما انتقلنا إلى منزلنا الجديد معَ طفلنا الوليد "ملاحظة لا علاقة لهذا القرار بالتدين والالتزام وإنما القراءة فحسب". عدْنا إلى الكتاب، وإلى المناقشات الحامية واللطيفة والودودة بعد كلّ كتاب تقرؤه هي أو أقرؤه أنا، نتَّفق ونختلف في وجهات النظر ولكننا في آخر المطاف نزدادُ ألفة ومحبة وتفاهمًا، ننظر إلى يومنا السابق دون المعلومة التي تعلَّمناها اليوم فنحمدُ الله على نعمة الكتاب. نشأ صغيرنا في هذا الجو، كنّا نشتري له الكتب البلاستيكية التي تمكنه من تقليدنا، ومع تقدُّمه في السن كنّا "زوجتي هي الأكثر اهتمامًا بهذا الجانب" نوفر له ما يناسبه على قدر معرفتنا، فتعلق الصغيرُ بالكتاب، وعقوبته القصوى اليوم أن يبيتَ ليلته دون قصةٍ يطالعها، ربما

هو ليس الأول في فصله ولكنَّني أفضل أن يكون طفلي مثقفًا عن أن يكون الأولَ في فصله ولكن من باب اجترار المعلومة، وهم ينادونه في مدرسته اليوم في الصفِّ الأول المتوسط "المؤرخ الصغير" وهو فعلًا كذلك، حتَّى أنا أعود إليه عندما تستشكل عليَّ معلومة تاريخية "ما شاء الله تبارك الله"، ولله الحمدُ والفضل والمنة. أمّا ابنتي فقد تعلمت القراءة في سن الثالثة والنصف من خلال القاعدة النورانية، وهي الآن في الصف الأولِ الابتدائي، وما شاء الله تقرأ كطفل في السادس الابتدائي، بل إنها اختبرت لدى إدارة الموهوبين في وزارة التربية والتعليم قبل أن تلتحقَ بالصف الأول "كنا نحاول أن تندرج في السنة الثانية مباشرة" إلّا أن الوزارة رفضت ذلك بحجج واهية رغم أنها تحصلت على ما يقارب الـ95% في الاختبار. أمَّا أصغرُ أبنائي فقد بدأ للتَّو مشوارَ القاعدة النورانية، وقدوته في هذا أخته وأخوه، فهو لا ينام دون قصة في يده مثلهما تمامًا، وإن كان لا يفهم منها إلّا الصور. أخي وليد، لم نكن لنصلَ لكلِّ هذا لولا فضل الله أولًا وأخيرًا، ثمَّ قرار زوجتي الحاسم بطرد "الدش" من حياتنا "رغم معارضتي في أولِ الأمر"، نحن لدينا تلفاز صغير وفيديو جيد، وجهاز دي في دي، وأيضًا جهاز بلاي ستيشن الذي ألعبُ فيه مع ابني كرة القدم، ولكننا نتحكم في ما يدخل إلى بيتنا ووقت مشاهدته بدلًا من أن نترك له العنانَ في أن يتحكم هو فينا. لا أقول اطردوا الدش فورًا، ولكن احْبسوه في غرفة بعيدًا عنكم لمدّة شهر واحد وشاهدوا الفرق.. ستعيشون في جنةٍ من جنان أيام زمان.. آسف على الإطالة، وشكرًا على قراءتكم لهذا المرسال".

وآخرُ كَتَبَ لِي من كندا يقول: "عزيزي الدكتور وليد، شعرت بالفخر عندَ قراءتي لمقالتك عن "القراءة" والتي أرسلت إليّ عن طريق البريد الإلكتروني من أحد معارفي في جدة. علمًا أنني

عشتُ في جدة قرابة تسع سنوات قبل هجرتي إلى كندا، وقد وجدتُ في كندا مكتبة لكلِّ مواطن "لا مولًا لكلِّ مواطن كما هو الحال في جدة"، الكتب هنا في كلّ مكان، وكتب مجانية للأطفال، ويوجد كذلك جلساتُ سرد قصص مجانية للأطفال في كلّ مكان، استعارة الكتب تتمُّ بكلِّ سهولة ويُسر، يتوافر كوبونات لشراء الكتب للأطفال بأسعار زهيدة رمزية، يوجد كتّابٌ يحفظ أسماء الطلبة الذين يدخلون المكتبات لتشجيعهم ومكافأتهم، ويوجد جوائزُ للطلبة القراء، وهنا الطلبة يتنافسون على قراءة الكتب وتلخيصها ومناقشتها وسردها في المدرسة والمكاتب العامة، عوضًا عن الألعاب Play station وأفلام الفيديو. إنني في غاية السعادة لأنَّ أبنائي يسألونني ويحثّونني على الذهاب إلى المكتبة لقضاء وقت ممتع، وأجمل وأقيم هدية بالنسبة لهم هي كتاب جديد. إنني أتطلَّع لأمثالك أن يقدموا لأبنائنا في جدة برامجَ مشابهة، وأتطلع لكرمك وعطاء الأثرياء في مجتمعاتنا أن يحملوا هذه المسئولية".

وأخرى تقول في خطابها: "أخي الدكتور وليد، أشكرك على مقالك، وإنّه كما تصفُ بحق، فولدي كلّ دقيقة يقول لي "أنا طفشان" حتَّى وإنْ قضى ساعاتٍ أمام التلفاز والفيديو وألعاب الكمبيوتر، وإنني الآن أعيش في بريطانيا لتحضير الدكتوراه، وقد لاحظت أنَّهم في المدارس هنا يشجعون الطلبة على القراءة وكتابة آرائهم، وليس الحال كما هو في مدارسنا من حفظ ما في الكتب بدون تفكير. وإنهم هنا في بريطانيا يدرِّبون الطلبة على أسلوب القراءة السريع ويسمّونها "Readathone" أي ماراثون القراءة، وعندما ينتهي الطالب من قراءة كتاب فإن العائلة تعطيه نقودًا ومن ثمَّ تجمع النقود من قِبل مدرس المدرسة لتخصَّص لشراء الكتب للطلبة الفقراء ولفعل الخير. وإنني أتمنى أن تطبق في

بلادنا يومًا هذه العادات الحميدة عوضًا عن تقليد العادات السيئة من الغرب وإغفال ما يستحق أن يُقلَّدْ".

وعدةُ مقالات ورسائل عديدة كلها تصبُّ في هذا المجرى..

إنني أنادي أثرياءَ مجتمعاتنا.. مَن لها؟ مَن الذي سيكتب له اللهُ أن يعيد للكتاب مكانته في مجتمعنا هذا، ومن ثمَّ لأمة لم ولنْ يكون عِزَّها إلَّا بإطاعة أمرِ أول كلمة من وحي السماء لها (اقرأ) فهلْ من مجيب؟ اللهمَّ إني قد بلغت اللهمَّ فاشهد.